بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

هوية الكتاب

* الكتاب: بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة لقمان).

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م. (٣٠٨ صفحة).

* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر.

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

١٤٣١

دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سُورة لقمان)

مركز العصر للثقافة والنشر

﴿بِسۡمِ اللَّهِ الرَّحۡمَنِ الرَّحِيمِ(١)
الۡحَمۡدُ لله رَبِّ الۡعَالَمِينَ(٢)
الرَّحۡمَنِ الرَّحِيمِ(٣)
مَالِكِ يَوۡمِ الدِّينِ(٤)
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (٥)
اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦)
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمۡ
غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمۡ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾

» المحتويات

» المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

في الحياة آفاق نجهلها، ونجهل التعامل معها. ومن رحمة الرب بعباده أنه أنزل إليهم كتاباً فرقاناً فيه ما يحتاجون إليه من المناهج الصائبة في الحياة.

وهذه المناهج هي الحكمة التي يقول عنها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[(١)].

وسورة لقمان قد احتوت على الكثير من أبعاد الحكمة، ولكن يا ترى كيف نستفيد منها؟

يرى البعض أن مسؤوليته تفسير القرآن، ولكني أعتقد أن مسؤوليتنا الأساسية تفسير واقعنا بالقرآن، لأنه نور وضياء وفرقان وهدى.. ولو أننا عرضنا حياتنا وما فيها من آفاق مجهولة

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

على القرآن، إذًا لعرفنا المزيد منها.

وهـذا الكتاب مسـاهمة في هـذا الأمر بـإذن الله تعالى، حيث حاولنا إضـاءة جوانب من واقعنا المظلم بما في كتاب ربنا من هدى ونور.

وقد سبق أن وفَّقنا الله تعالى لنشر كتاب عن سورة النور وما فيهـا من إضاءات لواقـع الأسرة، وقد أنعم الله علينـا بالنجاح فيه بصورة كبيرة، حيث توالت علينا كلمات التشجيع والحمد لله.

واليـوم حيث نقدم هذا الكتاب نسـأل الله سـبحانه ليجعله نافعاً لمن قرأه وألقى السمع وهو شهيد، وأن يجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

محمد تقي المدرسي

١٧ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ

» تمهيد

ليس الناس سواء في مدى استيعابهم لما في القرآن الكريم -هذه المائدة الإلهية- من نِعم عظيمة، بل هم درجات، ولكلّ منهم معارج مُعيَّنة لتساميهم وتكاملهم. إنهم يتمايزون بمستوى عقولهم ومدى فهمهم لسرّ الحياة، ثم مدى قدرتهم على الاستفادة من فضل الله عزّ وجلّ.

ومن هنا، فإن أوّل عمل ينبغي أن يقوم به الإنسان -على المستوى العقائدي- يتمثل في تعرُّفه على القرآن الكريم.. هذا الكتاب الذي لو أُنزل على الجبال، لخشعت وتصدّعت.. هذا الكتاب الذي يُحيي به الله تعالى قلوب البشر، ولو أحيا به ربنا الموتى لما كان ذلك عجبًا.. هذا الكتاب الذي يجعله الربّ يوم القيامة شافعًا مشفّعًا وماحلًا مصدّقًا، فمن جعله أمامه وإمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه وتولّى عن تعاليمه ساقه إلى النار وبئس المصير.

إن تكامل الإنسان عبر مراحل السموّ متعلّق بمعرفة حقيقة القرآن، لتتسنّى له الاستفادة الكاملة.

وهذه المعرفة تتحقّق بالتدبّر في آياته المباركات أكثر من تحقّقها

عبر القراءة الساذجة، رغم ما في التلاوة من خير.. وكلام القرآن المجيد أعظم الكلام وأفضله.. وفضله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقيس المسافة بين الله وخلقه.. وكذلك لا نستطيع أن نقيس المسافة بين القرآن الحكيم وسائر الكلام.. ولذلك، فإنّ معرفة مدى العظمة القرآنيّة والفضل القرآني تؤدّي بصاحبها إلى ضمان السموّ والارتقاء.

مدارج الاتصال بالقرآن

وهكذا -ينبغي قبل كلّ شيء- فهم القرآن ومعرفة فضله، سواءً من خلال التأمل في القرآن نفسه، ومن خلال الأحاديث الواردة عن الذين خوّلهم الله سبحانه وتعالى تبيينه، وهم: النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

ثم الواجب علينا أن نجعل القرآن ميزانًا لتقييم أنفسنا ومعرفة مصائرنا. لماذا؟ لأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء. وهكذا كانت الدنيا دار ابتلاء. ومن أبعاد الامتحان أن الإنسان يعجز عن معرفة ذاته إلّا بصعوبة؛ فمثلًا لو أن الإنسان كان يُجازى مباشرةً بعد العمل، إذًا لانتفت قاعدة الفتنة ومبدأ الامتحان. فكيف تُعرف مواقفنا، وهل نحن من أهل الجنة أم النار؟.

بالطبع لا يجوز أن ننتظر إلى حين الوفاة، حيث يُقضى الأمر، فكيف نعرف أنفسنا؟.

الجواب: أن نزن أنفسنا بميزان القرآن، الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى، وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ، وَنُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَضِيَاءٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ، وَعِصْمَةٌ مِنَ**

الْهَلَكَةِ، وَرُشْدٌ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَيَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ..»[1].

فإن من المؤمل بقارئ القرآن وتالي آية من آياته أن يتساءل عمّا إذا كان من أهل تلك الآية. فإن كانت الآية تأمر بالصلاة والعبادة والطاعة وما أشبه، فله أن يُسرَّ ويشكر الله سبحانه وتعالى إن كان ممن يعمل بها، وأن يزمع الاستقامة على ما هو ماضٍ فيه.

أمّا إذا مرّ بآية تتناول أعمال المنافقين والمشركين أو صفاتهم فعليه أن يتساءل عمّا إذا كانت تتمثل فيه. فإذا كان الأمر كذلك، تاب إلى ربّه وتوكل عليه للإقلاع مما هو عليه.

وهذا بحد ذاته ما نسميه بمحاسبة النفس ووزنها بميزان القرآن المجيد ومقاييسه. وهو لعمري يجسّد مسؤولية كبيرة وليست وحيدة.

وهناك مسؤولية أخرى تتمثل في الانتفاح على آيات الكتاب المجيد، لأن للقرآن أبعادًا متعدّدة، لأن فيه ظاهر وباطن، والظاهر له علوه كما أن للباطن مستوياته، مما يستدعي مزيدًا من التأمّل من قبل القارئ، ولا يكفي أن يتأمّل القارئ آية معيّنة مرّة واحدة، لأن من طبيعة كتاب الله أن تتفتّح أبوابه، الباب تلو الباب تبعًا لرقي القارئ المؤمن. وهذا ما يجعل القرآن كتابًا نَظِرًا جديدًا، لا تَخلق آياته عبر تقادم الأيام.

إنّ الله سبحانه قد أمرنا بالتدبر في كتابه حين قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[2].

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص ٥٩٦.
(٢) سورة محمد، آية: ٢٤.

ذلك لأن التدبّر يزيد من تفاعل القارئ وآيات الذكر الحكيم، ومن دون التدبر يبقى القرآن فوق مستوى القارئ له أنى كان. لماذا؟ لأن كتاب الله وحي يعلو أبدًا مستوى البشر، ولأنه الكتاب الذي يتحدّث للإنسان عن أمور غيبية صادقة لا ريب فيها، وإنما -عبر التحول الجدي في واقع الإنسان- يقدر على بلوغ مستوى فقه كتاب الله وأنه بحاجة إلى تمهيد السبيل. ولكن بماذا؟.

أولًا: مزاولة الاشتغال بالأعمال الصالحة.

ثانيًا: تطهير القلب من الحجب.

ثالثًا: إحراز ملكة التقوى.

وهناك تتكسّر أقفال الذات، وتتحطّم حواجز الجهل والكِبر، وإذ ذاك سيقرأ القارئ آيات الكتاب وكأنها أُنزلت عليه مباشرة، فيكون من ذوي القلوب الواعية والآذان الشاهدة.

ولا ريب في أن هناك ممهدات أخرى للوصول إلى مستوى أرقى لدى قراءة الكتاب المجيد؛ مثل إسباغ الوضوء، والقراءة في وقت السحر أو عند الفجر، أو استغلال فرصة شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن، أو تلاوة القرآن في الصلاة وفي البقاع المقدسة وبالذات في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف. كل ذلك يمهد السبيل لفقه القرآن. لماذا؟.

لأن هذه الأوقات أو البقاع المقدسة تعرج بروح المؤمن إلى آفاق الغيب، حيث تتساقط حجب الغفلة ووساوس إبليس وأقنعة الشرك وأكنة الحميَّات الجاهلية وما سواها مما يحجب نور الرب عن القلب، إضافة التي ممارسة شعائر الله مثل الصيام والاعتكاف والحج والزيارة؛ بما يهيئ القلب لاستقبال مفاهيم الآيات الكريمة

أكثـر فأكثر. فهو إذ ذاك، سـيقرأ القرآن بتوجّـه بالغ، ويتلقّى وحي الكتاب الكريم بنفس زكية وقلب واع.

وعليه؛ يمكن القول: إنه كما أُمرنا بتلاوة آيات الذكر الحكيم، كذلك أُمرنا بالتدبّر فيها والتأمّل في آفاقها وكسر الأقفال التي تحيط بالقلـب: «**وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ** -لدى القراءة- **آخِرَ السُّـورَةِ**»[1]. كما ورد ذلك عن مولانا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونحن -في نهاية المطاف- ننصح بأمرين:

الأوّل: قـراءة القـرآن بتلـك المواصفـات المثبتـة والمعروفة، إضافة إلى اختيار الوقت والمكان والحالة المناسبة، وغير ذلك.

الثـاني: التدبّـر في الآيـات، ويمكـن أن يختـار القـارئ وقتًا للقراءة ووقتًا للتدبّر، ويمكن أن يجمع بين الأمرين في وقت ومكان واحد. علمًا بأن للتدبّر أصوله التي ما لم تراعَ ولم يتم التقيّد بالمناهج المرسومة، فإن المتدبر قد يقع في أوحال القول بالرأي والهوى.

والله المستعان.

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٦١٤.

» فلسفة الحروف المقطعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾.

* * *

أرى أن هـذه الحـروف التـي تضمّنتها الآيـة الأولى، كما هي كلمات القرآن، تحتمل أكثر من تفسير، ولعلّ الآية القرآنية الواحدة تحتمل عـشرات التفاسـير، وكلّهـا صحيحـة ومنطقيّـة؛ إذ القرآن كتـاب نزل من عنـد ربّ العالمين، والله تعالى حينـما يُوحي، يُوحي بكلّ الحقائق، ومن جميع الأبعاد.

التفسير الأوّل، وهو التفسير الأبسط والظاهري الذي يتلقّاه المـرء بـادئ ذي بدء، هـو أن الكتاب المعجـز الذي تحـدّى به النبي الأكـرم ﷺ كلّ العالم وجميـع العصور، إنما يتألـف من حروف، وأن الآيات ظاهرها الأحرف ﴿الٓمٓ﴾ والقرآن كلّه حروف.

التفسـير الثـاني، والأكثر عمقًا، هـو أن القـرآن الكريم أراد إلفات نظر الإنسـان إلى أهميّة الحروف والإشـارة إليها، وهي ثمانية

وعشرون حرفًا التي تتكوّن منها اللغة العربيّة ولا تحتمل غيرها، بينما اللغات الأخرى قد تحوي أقل أو أكثر عددًا.

مما يعني أن الله سبحانه وتعالى قد علَّم الإنسان علوم الكون بهذه الحروف القصيرة المعدودة، ومكّن مخلوقه من أن يركّبها، فتتحوّل إلى ملايين الكلمات[1].

» لعلّ الآية الواحدة تحتمل عشرات التفاسير، وكلّها صحيحة؛ إذ القرآن تنزيل ربٍّ يُوحي بكلّ الحقائق، ومن جميع الأبعاد.

وهناك **تفسير ثالث** أعمق، يتناول ما إذا كانت الحروف الأبجديّة الموجودة والمعروفة ذات معانٍ أم لا؟.

وهناك بعض الأقوال والآراء القديمة والحديثة تذهب إلى أن لكلّ حرف معنىً ونغمة ونبرة ووقعًا خاصًّا به، من شأنه التأثير في أعصاب الإنسان، ومن خلال هذا التأثير تنعكس على الإنسان من حيث إن لديه معانيَ معيّنةً ومحدّدةً. وهذه الحقيقة تنفي نظرية العبثيّة في دلالة الحروف أو نظرية المواضعة، وتؤكّد نظريّة القصديّة في علم الألسنيّة. وهذا بدوره تتضمّنه بحوث أكثر عمقًا لسنا بصددها في هذا الحيّز من القول.

وهناك تفسير آخر يرى أن هذه الأحرف تحوي إشارات معيّنة إلى حوادث وقعت قبل نزول الوحي، أو حوادث ستقع بعد نزول الوحي، وأن القرآن قد بيّن تلك الوقائع من خلال إشارات الحروف هذه، كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[2]،

(١) هذا المعنى يحوي بحوثًا عديدة وعميقة تتناول كيف جعل أدوات ومسارات النطق ومكّنها من إلقاء الحروف.. وهذا خلق الله سبحانه وتعالى.

(٢) سورة مريم، آية: ١.

«.. **فَالْكَافُ اسْمُ كَرْبَلَاءَ، وَالْهَاءُ هَلَاكُ الْعِتْرَةِ، وَالْيَاءُ يَزِيدُ وَهُوَ ظَالِمُ الْحُسَيْنِ** عليه السلام**، وَالْعَيْنُ عَطَشُهُ، وَالصَّادُ صَبْرُهُ**..»[1]. أو في تفسير آيات قرآنية أخرى. وهي على العموم، بناء على هذا التفسير، إشارات لحقائق خاصّة لا يفهمها إلَّا من خوطب بالقرآن، أعني: النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وبناءً على هذا التفسير يفرض سؤال نفسه، إلا وهو: إذا كانت هذه الحروف عبارة عن إشارات خاصّة بين الله والمصطفَين من عباده، فلماذا ذُكرت في القرآن المجيد؟ وألم يكن كافيًا أن يُلقيها الله تعالى إلى نبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فيفهم ويعي حقيقتها من دون الحاجة إلى تدوينها في القرآن؟.

في الحقيقة؛ هناك أكثر من سبب يجعل هذه الإشارة تذكر في الآيات القرآنيّة.

السبب الأوّل: لكي نعرف –من خلال وجود هذه الإشارة– أننا بحاجة في معرفة الدين إلى تبيين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، ومن خلال هذه المعرفة يتوجّب علينا الاعتقاد بضرورة تمحور الأمّة حول إمامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإمامة الأئمة المعصومين عليهم السلام من بعده، باعتبارهم الأوصياء على حفظ المفاهيم القرآنية وتوضيح أحكام الشريعة للناس عبر الأجيال. وهذه لعمري فضيلة ما بعدها فضيلة.

السبب الثاني: أن هناك من القلوب المتفتّحة والآذان الواعية ما تتلقّى –أو له قابليّة التلقي– الإشارات القرآنية؛ نظرًا لأن كتاب الله رفيع لا يعيه حقّ وعيه إلَّا من يرتفع بهمّته.

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص١٧٨.

وهنـاك أسـباب أخـرى، كـما أن هناك تفاسـير أخـرى لهذه الحروف، ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر البسيط.

» بصائر وأحكام

في القـران الكريـم آيات تسـمو فوق مسـتوى فهـم الناس، وهذه الظاهرة تدلنا على أمرين:

الأول: الرجـوع إلى كلـمات النبـي ﷺ وأهـل بيتـه عليهم السلام طلبًا لمعرفة حقائق الآيات.

الثاني: السـعي الدائب من أجل التسـامي إلى مسـتوى القرآن بالتدبر والتفقُّه وبالتقوى والعرفان.

» أننـا بحاجـة في معرفـة الديـن إلى تبيـين النـبي وأهل بيتـه، المعرفـة التي توجـب ضـرورة تمحـور الأمّة حول إمامة النبي والأئمة

» آفاق الآيات

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.

***

١ - ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾

بعد أن يبيّن القرآن حقائق عبر هذه الأحرف، يقول: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ إشارة إلى ﴿الٓمٓ ﴾. ومن هذه الكلمات المقطّعة والأحرف البسيطة، يصوغ القرآن ويصنع آيات. فماذا تعني كلمة الآية يا ترى؟.

الآية تعني العلامة، والعلامة تعني الإشارة، والإشارة ليست هدفًا بذاتها، بل هي بمثابة جسر يؤدي إلى معرفة ما وراءه، أو العلم الذي يأخذ بأيدينا إلى علم آخر.

فالشمس -مثلًا- آية من آيات الرب، فلماذا نسميها آية؟. لأننا إذا نظرنا إلى هذه الكرة الملتهبة، وإلى دقّة حركتها ونظام سيرها والمسافات الدقيقة التي تفصلها عن سائر الكرات المحيطة بها ومنها الأرض؛ عرفنا قدرة الله خالقها سبحانه وتعالى وعظيم علمه وتدبيره. كذلك ما في القرآن آيات إلا أنها من كلمات، نصل

من خلالها إلى حقائق الخلق ولكن من خلال تدبّرنا في آياته.

وبين هذا وذاك، نجد بعض الناس يجعلون القرآن المجيد نهاية المطاف في مرحلة المعرفة، في حين أن القرآن هو المنطلق. وكونه كذلك، يعني أنك حين تدرس القرآن، عليك أن تكتشف تفاصيل الخلق الذي أبدعه الله تعالى.

كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾[1].

بعد ذلك قال الله سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وليس كافيًا أن نحوم حول الآية، بل لابدّ من الاستعانة بالآية الشريفة لفهم حقائق الخلق باعتبارها مصباحًا ينير الحقائق.

٢- ﴿الْكِتَابِ﴾

الكتاب والكتابة ومختلف مشتقاتها يدل على شيء ثابت. ومعنى ذلك أن القرآن سنن إلهية ثابتة، رغم أن الكائنات في تغيّر مستمر، كما قال الله سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2].

ومن أبرز ما في هذا الكتاب المجيد؛ هو الحكمة. فماذا تعني الحكمة؟.

(١) سورة المؤمنون، آية: ١٢-١٤.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

سـنتحدّث مطوّلًا -إن شـاء الله- عن الحكمـة. ولكن على سـبيل الاختصار نقـول: إنّ الحكمة بدورها تعبير عن وعي سـنن الله الثابتة التي على الإنسـان الاتصال بها واسـتيعابها، وتسـخيرها لصالحه، فلا يصطدم بها، بل يستفيد من كلّ خيرها.

٣- ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾.

وحيث ألحـق الله تعالى صفة الحكيم بالكتاب، فإنما يعني أن كلّ حرف في هذا الكتاب، وكلّ كلمة منه، وكلّ آية من آياته متشبّع بالحكمة.

» بصائر وأحكام

لا يكفـي التأمـل في حقائـق آيـات الكتـاب ولكـن علينـا الانبعاث إلى التأمل في حقائق الخلق لأنها آيات إليها، يعكس كتاب ربنـا بآياتـه الكريمة سـنن الله الثابتة في خلقه، وبوعي تلك السـنن وتنظيم السلوك معها ندرك بعض آفاق الحكمة.

» الحكمـة تعبـير عن وعي سـنن الله الثابتـة الـتي على الإنسـان الاتصـال بهـا واسـتيعابها، وتسخيرها لصالحه، ويستفيد من خيرها.

» الخلق الفاضل ميراث الحكمة

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾

***

١ – ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾

يبدو أن سورة لقمان هي: السورة التي تُبيّن الخطوط العريضة للحكمة، ليس فقط لأن لقمان كان مشهورًا بالحكمة، وإنما لأن الآية المحوريّة في هذه السورة المباركة –كما يبدو لي– هي الآية الثانية عشرة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾.

ومن هذه الزاوية جاءت كلمة الحكمة في بداية السورة إشارةً إلى حقائق السورة وإطارها العام، (حيث إن كل سورة تحدّثنا عن حقيقة محوريّة، هي إطارها العام، رغم تناولها لحقائق أخرى أيضًا). ولعلّ سورة لقمان المباركة قد تمحورت حول الحكمة، ولذلك أُشير إليها في البداية.

وهنا أيضًا يصف القرآن الكريم نفسه بصفتين أساسيتين:

الصفة الأولى: الهدى.

الصفة الثانية: الرحمة.

والهدى يعني أن للإنسان أن يصل -عبر القرآن الكريم- إلى معرفة ماذا ينبغي أن يفعل ليهتدي إلى الحق. والحديث عن معنى الهدى وآفاقه بشكل كافٍ يحتاج إلى مزيد من التفصيل. ولكننا مع ذلك، نجد القرآن الكريم يحدّثنا عن هذه الكلمة التي تحمل في طياتها عشرات المفاهيم والأبعاد الغيبيّة.

إننا نجد هذه الكلمة المباركة في فاتحة القرآن، وهي سورة الحمد (أُم الكتاب).

فحينما نقرأ سورة الفاتحة المباركة، نحمد الله أوّلًا، ثم نثني عليه ونبين صفاته، ومن صفاته الرحمة الدائمة والواسعة، وأنه مالك يوم الدين. ثم نبين حاجاتنا إلى الرّب المتعال، ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]. ثم نطلب منه الهدى، حيث نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. كذلك تأتي هذه الكلمة في بداية سورة البقرة، وهي السورة الكبرى في القرآن، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

»ينعكس الإحسان على ابن آدم حين يصبح محسنًا للآخرين، كما ينعكس على وجدانه وعقله ومجمل حياته.

كذلك وردت هذه الكلمة في فاتحة سورة لقمان المباركة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ويمكن التوضيح باختصار عبر القول: إن ثَمَّةَ برمجة يتوفّر عليها مخ الإنسان تكفيه لمعرفة الحقائق، ولكن المشكلة تكمن في أن ابن آدم يُحجب عن هذه البرمجة بسبب الظروف القاسية التي تحيط به. ولا ريب

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٢) سورة الفاتحة، آية: ٦.
(٣) سورة البقرة، آية: ١ - ٢.

في أن مـن هذه الظروف ما يجد الإنسـان نفسـه فيهـا محاطًا بها رغمًا عنه، ومنها ما يخلقها أو يستدعيها لنفسه.

الإنسان؛ كائن مبرمج

فمثـلًا التربيـة الخاطئـة، أو ضغـوط الهوى والشـهوات، أو منظومـة الحميَّـات والثقافـات الباطلـة أيضًـا تنتهي بالإنسـان إلى تعطيـل برمجته العقلية وحجبه عـن الحقائق، حتى لعلّه يرى خلالها الحقّ باطلًا والباطل حقًّا.

وهكذا يجب على الإنسان إصلاح نفسه والعودة إلى برمجته الفطرية عبر ما آتاه الله من عقل يصلحه ويبعد عنه العوامل المسيئة والمخربة.

وقد نسأل ما هو دور الشيطان في هذا المجال؟.

الجواب: إن دور الشيطان يتمثل في إثارة كوامن التربية الفاسدة والثقافة المزيفـة والشـهوات والعصبيّـات، دون أن يكـون للشـيطان القـدرة والهيمنـة الجبرية على الإنسـان ومصيره. مما يعني أن بمسـتطاع المـرء أن يبعد هذه العوامل المعطِّلة والمفسـدة عن نفسـه، والوصول إلى نـور عقله، والتحـرر من الأُصر والأغلال الضاغطـة التي أحاطت به. فـتراه ينطلـق، ويفهم نفسـه ويعـي جوهر الحيـاة وسرّهـا، حيث يفهم محيطه. على العكس من أولئك الذين ورّطوا أنفسهم في شرنقة الأباطيل والضغوط، وتمسّكوا بقشور الحياة ومظاهرها الخادعة. أما الوحي فإنه يوفر للبشر الهدى الذي يجعل الإنسان يعود إلى فطرته ووجدانه وعقله، إلى ذلـك البرنامـج الذي جعله الله تعـالى في قلبه ليفهم الحيـاة وآفاقها، خصوصًا وأن الله تعالى لم يخلق ابن آدم سـدى. وحاشـا لرحمته الواسعة أن يتركه يغرق في أمواج الشهوات دون أن يوفر له فرصة النجاة.

وقد جاء في الدعاء: «**سُبْحَانَ مَنْ لَا يَأْخُذُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِأَلْوَانِ الْعَذَاب**»[1].

إن ربنا خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهيّأ له كل ما يحتاج إليه، وهداه النجدين، وألهمه فجوره وتقواه، وأعطاه كلّ شيء.

إن الإنسان حين يتعرّض لمعضلات الفتن يجد نفسه بمسيس الحاجة إلى الفطرة، وإلى من يأخذ بيده ويعيده إلى هداه؛ ولذلك تجد التنسيق الفذ لهذه الآيات: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى ﴾ أي أنه يهتدي بهذه الحكمة، فإذا وصل إلى الهداية تحقّقت له الرحمة: ﴿وَرَحْمَةً﴾، والرحمة تتمثل في الفلاح.

الإحسان الطموح الأرقى

٢ - ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾

نستفيد من كلمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ هنا أن من الأبعاد الحقيقيّة والجوهريّة للرحمة هي تطلّع الإنسان لنفع الآخرين، ومن أبرز أسباب الرحمة للإنسان هو الإحسان. إذ ينعكس الإحسان على ابن آدم حين يصبح محسنًا للآخرين، كما ينعكس على وجدانه وعقله ومجمل حياته، فيكون مثله في ذلك مثل من يجلس في غرفة محاطة بجدران، ثم يقذف بكرة تعيدها الجدران عليه. وهكذا الإحسان إلى الآخرين يعود إليك عاجلًا أم أجلًا.

ثم إن القرآن المجيد يبين هذه الحقيقة مرّة أخرى ويقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٣، ص٩.
(٢) سورة لقمان، آية: ٥.

فَمَـنْ هؤلاء الذين يصلون إلى مرتبة الهدى؟ وما هي حقيقة الفلاح؟ وَمَنْ هؤلاء الذين يصفهم القرآن بالمفلحين؟.

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لابدّ أن نعرف أن كلّ إنسان يولد ومعـه طموح وتطلّع، إذ يتطلّع إلى الخير والكمال والسـموّ والسـعادة. والسـعادة هي جوهر الفطرة الإنسـانية، وهي الغايـة المثلى. ولولا هذه الفطرة، لبقي ابن آدم كسائر المخلوقات الأرضيّة، لا يسمو ولا يتقدّم.

فـإذا كانت السـعادة غايتـك المثلى -أيها الإنسـان- فلك أن تتساءل وتقول: أين هي؟.

» إنّ الكثـير مـن النـاس أرادوا السعادة وسعوا إليها سعيًا حثيثًا، إلا أنهم لم يصلـوا إليها، بل ضلوا طريقها، إذ لم يكونوا على هدًى.

إنّ الكثير من الناس أرادوا السـعادة وسعوا إليها سـعيًا حثيثًا، إلَّا أنهم لم يصلوا إليهـا، بل ضلوا طريقها، إذ لم يكونوا على هدًى.

وواضـح أن من ينطلق في طريـق خاطئ، فإنه لا يزداد عن الغاية إلَّا بُعدًا.

وهـذه الآيات القرآنية المجيدة تؤكّد أن السـعادة -كلَّ السعادة- إنما تكون من نصيب الإنسان المتزوّد بمنطق حكيم وخُلق عظيم وسلوك سليم.

وهـذه الميزات الثلاث قـد بُيِّنت في الآيات الأولى، ثم إنّ الله تعالى يبيّن النهاية السعيدة لأصحابها، حيث قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1].

أمّا المنطق الحكيم، فحيث قال: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[2].

---

(١) سورة لقمان، آية: ٥.
(٢) سورة لقمان، آية: ٢.

إذ مَـنْ لا يملك المنطق الحكيم، يفتقر إلى العقيـدة الصحيحة في الحياة، ويفتقـد الرؤية الشـمولية للكون ولنفسـه. ومثـل هـذا لا ينفعه الخُلق العظيـم ولا السـلوك السـليم؛ لأن الاسـتراتيجية العامّة لهذا الإنسـان استراتيجية خاطئة، حيث الابتعاد عن الله والمُثُل السماوية العليا.

وهذه الحكمة التي يُبينها ربّنا سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة ينبغي أن تتجلّى في الخُلق العظيم؛ يعني في الصدق والوفاء والإحسـان، والعدل وإعطـاء كل الناس حقوقهم. فإذا تجلّت هذه الحكمة في هذه الأمور، فسوف تنفع هذه الفضائل.

أمّا إذا تجرّد المرء عن الحكمة؛ أي لم يمتلك العقيدة السليمة، لم يعرف الله، ولم يؤمن باليوم الآخر، ولم يؤمن برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبمنهج الخلفاء الراشـدين الحقيقيين للنبي عليهم السلام. سيصاب بالتيه في هذه الدنيا الطافحة بالأمواج والتحوّلات.

إنّ الخُلـق الفاضـل هو ميراث الحكمة، حيـث تتجلّى في كلّ خصلة أخلاقيّة تُبنى الحياة على أساسها.

» بصائر وأحكام

يجـب على الإنسـان العـودة إلى فطرتـه التي فطـره الله عليها ويتحـدى العوامـل المختلفة التي تبعده عنها. والإنسـان يتطلع إلى الفلاح الذي يتحقق عبر منطق سـليم وخُلق عظيم وسلوك سليم، ومفتاحها الإحسان إلى الآخرين.

» حقيقة العبادة

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

***

أمّا الصلاة والزكاة التي أرفقها الله تعالى بالهداية والحكمة والفلاح، فهي بمثابة الركيزة لامتلاك الحكمة والتزوّد بالخُلق. فالذي لا يلتزم بها، فإنه سيفقد جانبًا أساسيًّا من سعادته؛ لأن هناك تفاعلًا في التأثير بين جوانب حياة الإنسان، حيث يؤثر قلبه في عمله، كما أن عمله يؤثر في قلبه. والصلاة -باعتبارها عمود الدين- تعكس الخُلق الفاضل، كما أن الخُلق الفاضل يعكس الحكمة في مجمل حياة الإنسان.

أمّا إذا لم تنهَ الصلاةُ صاحبَها عن الفحشاء والمنكر، ولم تُقرن بتقديم الزكاة، فإن هذه الصلاة ليست صلاة خالصة لوجه الله تعالى؛ لأنها قد تخدعه فيتصور نفسه على الصواب بمجرد إقامة الصلاة من دون التزام بشروطها، فيصبح ممن قال ربنا فيه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[1].

(١) سورة الماعون، آية: ٤.

ومن هنا؛ نقول بوجوب عرض أنفسنا على القرآن حتى تتكشّف لنا خفايا ذواتنا، فنتعرّف إلى حقيقة صلواتنا ووجهتها، وهل تنخرط ضمن عنوان: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، أم هي الصلاة المنظوية تحت إعلان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1].

هناك صلاة وصلاة!

صلاة يتبرأ منها الله تعالى، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2].

فهي صلاة يستخدمها صاحبها للتعالي على الناس، أو يستأكل بها، ويغطّي بها ما فسد من أفكاره وأعماله؛ فهو لا يؤمن بالله، لأنه من: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[3]، رياءً وابتزازًا وقطيعةً بين الناس.

وصلاة مفيدة مثمرة، هي صلاة الخاشعين الذين يؤكّدون طاعتهم لله وللرسول وللإمام من خلالها.

وكذلك أمر الزكاة، حيث احتواؤها على هدفٍ سامٍ؛ إذ الأَولى من غايات الزكاة استصلاح النفوس؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[4]. فالفائدة الأسمى من الزكاة وقاية النفس وحفظها من الشح والبخل والجبن والكبر، حيث يقول الرب جلّ جلاله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) سورة المؤمنون، آية: ١-٢.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٣٥.
(٣) سورة الماعون، آية: ٦-٧.
(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، ولكـن مِنَ الناس مَنْ يُزكّي ريـاءً، أو مجرّدًا عن أن تستوعب الزكاة حياته، على أن مَنْ يتهرّب مِنْ تقديم الحقوق الشرعيّة يخسر من أجر الله تبارك وتعالى أكثر مما يربحه من حطام الدنيا.

إن الـزكاة شُرِّعـت لتزكية النفس أوّلًا، ثـم لتزكية الأموال؛ نظرًا لأن كلّ إنسـان يجمع المال لابدّ أن يُصاب ماله بشـائبة الحرام. إضافـة إلى هـدف ثالـث يتمثـل في الحيلولـة دون تكديـس الثروة وجعلها دُوْلةً بين الأغنياء.

أمّا الزكاة التي لا تُتحقَّق هذه الغايات من خلالها، فهي ليست تلك الزكاة المطلوبة.

» الصلاة باعتبارها عمود الدين تعكس الخُلق الفاضل، كما أن الخُلـق الفاضل يعكـس الحكمـة في مجمـل حيـاة الإنسان.

ولذلـك، تجد الآيـة الشريفة صريحة في هـذا المجال، حيث قالت: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إذ الصلاة دين وعمل، والزكاة ممارسة عملية هادفة عبر المال.

ولكـن القـرآن المجيـد لا يكتفـي بذلـك، وإنـما يضيـف قائـلًا: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي أن المصـلّي والمزكّـي الصـادق يصلّي ويزكّـي انطلاقًا مـن علمه بأن هناك يومًا عسيرًا سيلقاه، وهو يوم القيامة. أمّا الشاكّ في ذلك، فإنه قد لا ينتفع من صلاته وزكاته.

إذن؛ فإن هذه المفردات الثلاث:

- الحكمة في المنطق،
- والفضل في الخلق،
- والسلامة في السلوك.

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

إذا اجتمعت إلى بعضها، أضحى الإنسان على هدىً من ربّه وكان من المفلحين. أمّا إذا تزعزعت العقيدة، وساء الخُلق، وفسد السلوك، فإنه لن يحظى من الحكمة والهدى والفلاح بشيء مذكور.

ما هي الحكمة؟

حينما يُبيّن القرآن الكريم الحكمة، فإنه يعني غلبة عقل الإنسان على هواه، وعلمه على جهله. كما أن الحكمة قد تنتهي به إلى أن يعرف الحقائق كما هي، بعيدًا عن التصوّرات الباطلة. وهكذا يضبط المرء -وفق مقاييس الحكمة- حركته، كما يضبط أخلاقه ضمن القيم التي فطر الله تعالى قلبه عليها.

إنّ الحكمة -بصراحة بالغة- تعني كلّ خير، ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(1).

ومن هنا؛ فإن الخُلق الذي لا ينبعث من الحكمة ولا ينطلق من قواعدها ومقاييسها، والسلوك الذي لا يعتمد على الخلق الفاضل والحكيم؛ فإنهما يجسّدان أزمة إنسانيّة كبرى.

أية صلاة وأية زكاة؟

ولنضرب لذلك مثلًا:

نعرف أن الصلاة من طبيعتها أن تؤدّي إلى كلّ الفضائل، ولذلك وُصفت بأنها عمود الدين، وأنها تنهى عن الفحشاء

(1) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

والمنكر. فهل كل صلاة كذلك؟.

كلا؛ إنـما المصلّي المُحرز لمواصفـات الصلاة الصحيحة يجب أن يَنْفَـضَّ عـن صلاتـه وهو أكثـر خشـوعًا وامتناعًا عـن الرذائل وإقبـالًا عـلى الفضائل. ولعـلّ مصلّيًـا كان يفكّـر في بعض الأمور الخاطئة قبل إقامته الصلاة، ولكنّه بعد ذلك، يضبط نفسـه ويتغلّب على ما تحوطه من وسـاوس نفسيّة أو شـيطانيّة. ومثل هذه الصلاة هي التي تصبح قربانَ كلِّ تقي.

وكذلك شأن الزكاة.

والقرآن الحكيم يحدّثنا عن قصّة ابني آدم عليه السلام، إذ قدّم كلّ منهما زكاةً وقربانًا، فتقبّل الله من أحدهما، وهو هابيل، ولم يتقبّل من الآخر، وهو قابيل.

ولكن كيف كانت ردّة فعل من لم يقع قربانه موضع القبول؟.

لقـد كان مـن المفترض أن يراجـع قابيل نفسـه ويبحث عن أسـباب رفض زكاته، ليصلح نفسـه. لكنّه أصرّ على نيته الخاطئة في دفـع الزكاة وراح يهـدّد أخاه قائـلًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[1]، مؤكّدًا عزمه عـلى ارتـكاب جريمة كبرى. ممـا يعني أنه لم يكن يقـدّم القربان من أجـل الله تعـالى، ولا مـن أجل تطهـير نفسـه وتزكيتهـا، وإنما كان يدفـع الـزكاة ويقـدم القربـان من أجـل السـيطرة، ومـن أجل أن يكـون الأفضل، ومـن هنا قال له أخـوه المؤمن: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

(١) سورة المائدة، آية: ٢٧.
(٢) سورة المائدة، آية: ٢٧.
(٣) سورة المائدة، آية: ٢٨.

فقابيـل هنا قام بممارسـة فعل الـزكاة، في حين مارس هابيل نوعًا آخر مناقضًا.

إذن؛ علينـا –حين نصـلّي أو نزكّي أو نصوم أو غير ذلك من الممارسـات العباديّة– أن نلازم جانب الحذر بأشـد مـا يكون، لئلَّا تقـع هذه الممارسـات في الاتجـاه الخاطئ. كما علينـا أن نحرص كلّ الحـرص لتتجه عباداتنا وممارسـاتنا الأخلاقية صوب تزكية النفس وتطهيرهـا، لتتصل في نهايـة المطاف بما يُرضي الله سـبحانه وتعالى، وتتحوّل إلى قربان خالص لوجه الله.

إنهـا سلسـلة متصلـة، بدايتهـا الحكمـة، ووسـطها الخُلُـق الفاضـل، ومنتهاها العبادة. فـإذا كانت السلسـلة متصلة، أثمرت الحكمـة، وطـاب الخُلُـق، ونفعـت العبـادة. أمـا إذا انقطعت فهي الطامة الكبرى والمصير المشؤوم.

الزكاة؛ وسيلة تطهير

الـزكاة تـؤدّي إلى تطهـير النفس من شـحها، وتطهـير المال مـن حرامـه، وهـي وفـاء لحقـوق النـاس؛ ذلـك أن هنـاك فريضةً عامّـة تتمثل في إيمان الإنسـان بحقّ الآخرين عليـه. ثم إن الشريعة السـمحاء حدَّدت هذا الحق بما لا يكـون إجحافًا بحقّ المزكّي، ولا يكون تقصيرًا بحقّ الناس، ورعاية العدل بدقّة.

ولذلك؛ لم ترد كلمة الزكاة في القرآن الكريم للتعبير عن الزكاة كـما هـي في الاصطلاح الفقهي فحسـب، وإنـما وردت أيضًـا ببعدها اللغـوي. والشريعة المقدّسـة قـد وضعت الزكاة على هـذه الأموال[1]

(١) النقدان: (الأنعام الثلاثة، الغلات الأربع).

المعروفة، وأضافت إليها الخمس، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى في سورة الأنفال المباركة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾(١).

كما أضاف إليه الصدقات، والأضحية في الحج، والنذور وغير ذلك.

» إن الزكاة شُرِّعت لتزكية النفس أوّلًا، ثم لتزكية الأموال؛ نظرًا لأن كلّ إنسان يجمع المال لابدّ أن يُصاب ماله بشائبة الحرام.

ونحن لا نستطيع الاقتصار في الزكاة على موارد خاصّة، بحيث إن من لا يملك مفردات الزكاة التسع، يُعفى من العطاء. كلا؛ إن عليه الخمس فيما يغنمه ويستفيده من أمواله خلال السنة بعد أن يحرز منها مؤونة سنته وحاجاته العرفية. بل ورد في المأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**زَكَاةُ الْعِلْمِ نَشْرُهُ، زَكَاةُ الْجَاهِ بَذْلُهُ، زَكَاةُ الْحِلْمِ الِاحْتِمَالُ، زَكَاةُ الْمَالِ الْإِفْضَالُ، زَكَاةُ الْقُدْرَةِ الْإِنْصَافُ، زَكَاةُ الْجَمَالِ الْعَفَافُ، زَكَاةُ الظَّفَرِ الْإِحْسَانُ، زَكَاةُ الْبَدَنِ الْجِهَادُ وَالصِّيَامُ، زَكَاةُ الْيَسَارِ بِرُّ الْجِيرَانِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، زَكَاةُ الصِّحَّةِ السَّعْيُ فِي طَاعَةِ الله، زَكَاةُ الشَّجَاعَةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، زَكَاةُ السُّلْطَانِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، زَكَاةُ النِّعَمِ اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ، زَكَاةُ الْعِلْمِ بَذْلُهُ لِمُسْتَحِقِّهِ وَإِجْهَادُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِ بِهِ**»(٢).

والآية في سورة البقرة التي تقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٣)، حيث تشير إلى ضرورة إنفاق المؤمن حقًّا مما أُوتي من نعمة، كنعمة القوّة ونعمة البصر والسمع والفكر وأية نعمة أخرى، وذلك في

(١) سورة الأنفال، آية: ٤١.
(٢) مستدرك الوسائل، ج٧، ص٤٦.
(٣) سورة البقرة، آية: ٣.

مساعدة الضعفاء والعجزة.

فالقدرة على تزكية النعمة، تستوجب المبادرة إلى الإنفاق منها، والله تعالى يقول في محكم كتابه الحكيم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

فكلّ ما فضل عن نعمة المال، أو الجاه، أو العلم، أو القوّة الجسميّة، أو غير ذلك، ينبغي إنفاقه على ذوي القربى والمحتاجين وعموم المجتمع.

وهذا معنى الزكاة بالأفق الأوسع للكلمة. ولعلّ القرآن حين استخدم كلمة الزكاة، أراد منها هذا المعنى الأوسع لها، بدلالة أسلوب الاستخدام القرآني؛ مثل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، وقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ وآيات أخرى متشابهة.

ونحن نعلم أن من حكمة الدين كون الله تعالى أراد النعم لجميع الناس، بصورة عادلة. ولطالما أكّد أهل البيت عليهم السلام أنه لم يفتقر فقير إلَّا بسبب إحجام الغني عن الإنفاق من ماله. ولو أن الأغنياء جميعًا أدّوا ما فرض عليهم من الإنفاق لما بقي فقير ولردمت الفجوة بين الطبقات.

» حينما يُبيِّن القرآن الكريم الحكمة، فإنه يعني غلبة عقل الإنسان على هواه، وعلمه على جهله.

ومن ذلك قول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(٢).

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٢٨.

ومن ناحية أخرى لو فرضنا أن ظروفًا قاهرة وقاسية، كزلزال أو فيضان أو حرب وما أشبه، تسبّبت في حدوث فجوات ماليّة عميقة بين الناس؛ هنالك يتوجّب على الحاكم الشرعي أن يبادر إلى إيجاد الآليات المناسبة لردم الفجوة الحاصلة بسبب الظروف القاهرة، ويحق له إذ ذاك ألّا يكتفي بمجرّد جباية الزكاة أو استقبال الخمس. بل يفرض حسب العناوين الثانوية حقوقًا أخرى انطلاقًا من القاعدة الشرعية التي أمر بها النبي صلى الله عليه وآله، حيث قال: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»(١)، أو قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(٢).

إذا وصلت الأمّة إلى حالة العسر والحرج، ووصل الأمر بالظروف الطارئة إلى درجة الضرر، فهنالك تتدخل الدولة وتضع القوانين الخاصّة حتى اجتياز المحنة.

» بصائر وأحكام

علينا أن نعرض أنفسنا على القران لنُقَوِّمَها على أساسه، فليست ممارسة الشعائر وحدها كافية، بل يجب أن تكون لوجه الرب، ومؤثرة في سائر جوانب السلوك.

الحكمة تغليب العقل على الهوى، وبلوغ روح الدين وأحكامه.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٢.
(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

» بين الهدى والخرافة

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾

***

نعود إلى القرآن الكريم حيث يقول ربّنا المتعال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾، إذ الحديث عن مجموعة من الناس بلغة الجمع، فيقول: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ و: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و: ﴿وَهُم﴾ و: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ و: ﴿رَّبِّهِمۡ﴾.

ويبدو أن السبب في ذلك هو أن القرآن كتاب أمّة، وكتاب يصوغ مجتمعًا فاضلًا. أَوَلَيْسَ الفرد يعجز عن تطبيق كلّ الشرائع الإسلامية لو بقي فردًا؟. قال الله سبحانه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[1].

وهنا سؤال: لماذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ في حين قال بعد ذلك: ﴿ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾؟، فهذه الكلمة: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ تشير -يا ترى- إلى أية حقيقة؟.

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

الجواب: هو أن الهداية من الله سبحانه وتعالى في أولها، وهي أيضًا في استمرارها من الله تبارك اسمه. وهذا يعني أن الإنسان الذي هُدي إلى الصراط المستقيم ينبغي ألَّا يغتر بنفسه؛ إذ الهداية -في حقيقتها- فيض مستمر وعطاء دائم، ويمكن أن ينقطع ذلك الفيض في أي وقت من الأوقات. ولهذا قال الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1]. وورد في الدعاء المأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**رَبِّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا**»[2].

وكلمة «**رَبِّ**» الواردة هنا تعتبر ذات دلالة لطيفة جدًّا، لأن الربّ هو الذي يربّي، وهو يواصل نعمه على المخلوق لحظة بلحظة، وهو الذي خلقه من نطفة، ثم جعل النطفة علقة، ثم مضغة، ثم كساه لحمًا، ثم خلقه أطوارًا؛ يرعاه من طور إلى طور. فهو معه في كلّ الحالات إلى أن اكتمل وأصبح رجلًا سويًّا، وهو الذي منحه الهدى والنور باستمرار، مما يفرض على الإنسان أن يكون دائم التوجّه إلى ربّه، لئلَّا ينقطع عنه الهدى، أو تحول الأسباب دون فلاحه.

وقد سبق أنّ التطلع إلى السعادة من فطرة الإنسان، فكلّ إنسان يبحث عنها ولكن لا يعرف كيف يحصل عليها، وقد جاء القرآن الحكيم لبيان ما يحقّق له هذه الأمنية الشائقة التي تداعب الوجدان.

إرادة الإنسان وهداية اللّه

العلاقة وطيدة بين إرادة الإنسان وحرّيته في الاختيار، وبين

(١) سورة آل عمران، آية: ٨.
(٢) الأصول من الكافي، ج٢، ص٥٨١.

هدايـة الله تبارك وتعـالى. فمن هداه الله لا يعني أن الله أجبره، ومن انقطعـت عنـه لا يعنـي أن الله قد ظلمه سـبحانه، بل إنـه هو الذي اشترى الضلالة بالهدى.

فالشـمس تـشرق بنور ربهـا فتـضيء الأرض، ولكن من لا يمتلك العين البصيرة فلن يرى نورًا، ولا أرضًا، وجمالًا.

كذلـك هُـدى الله تعالى يضيء، ولكن من أغلـق منافذ قلبه، فقد خسر نفسه، وكانت خسارته بسوء اختياره.

إنّ الهدايـة من الله، هذا حقّ، ولكن ابن آدم حرّ، وله القدرة عـلى اسـتقبال الهدايـة أو رفضهـا، تمامًا كهـذه الذبذبـات الإذاعية المتوفّرة من حولنا، ومن يملك جهاز اسـتقبال بمقدوره الاستفادة منهـا عـبر مذياعه مثـلًا. إنما علينا أن نسـعى جاهديـن لكيلا تختل أجهزة استقبالنا لهداية الله سبحانه وتعالى.

وربّنـا المتعال حينما يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يضيف قائلًا: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

» وقـد سـبق أنّ التطلع إلى السعادة من فطرة الإنسـان، فكلّ إنسان يبحث عنهـا ولكـن لا يعرف كيف يحصل عليها.

بمعنى أن القلب المغلق والمحيطة به الشـهوات، أو الـذي ران عليه ما اكتسـبه من الإثـم.. إنه يعجز عن استقبال أنوار الكتاب.

وإنما القلب الخاشـع هو كالأرض الخاشعة التي تسـتقبل الميـاه العذبة التي تسـوقها الرياح لتكـون غيثًا وخصبًـا. ولكـن هـل كل أرض تنبـت زرعًـا أو تنفـع ضرعًا؟.

(١) سورة محمد، آية: ٢٤.

جـواب ذلك نقـرؤه في قول الله عزّ وجـلّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[1].

إذن؛ فالقول بحرّية الإنسان، قول بحرّيته في استقبال الهدى، وبمقدوره أيضًا أن يسـدّ منافذ قلبه فيبقى في ضلال، فيخسر الدنيا والآخرة.

بين الهدى والخرافة

في سـياق الحديث عن الحكمة، يبرز سـؤال هـام هو: كيف نسـتطيع التعـرّف إلى الحكمة؟. وكيـف لنا أن نميّزهـا من غيرها، ولا سيّما من الأساطير والخرافات والأفكار الضالّة والمضلّة؟.

الجـواب: إنّ الحقائـق عـادة مـا تعـرف بأضدادهـا. فالنور يعرف جيّدًا حين يُخيِّم الظلام، والليل والنهار متناقضان، والصحّة والمرض يُعرِّف أحدهما الآخر.

كذلـك نجد في المنطق القـرآني أنه كلّما يبيّن لنا ربّنا سـبحانه جانبًـا من حقيقة، يبيّن ما يضادّه، لنزداد معرفة بذلك الجانب. فإذا حدثنـا عن الحكمة، حدثنا عمّا هو ضد الحكمة، وإذا كانت الحكمة هي سـبيل الله الذي يوصلنـا إلى الجنّة والرضوان؛ فـإن ما يُضادها ويُعاكسها، يوصلنا إلى كلّ شرّ وعذاب مهين.

وعـلى الضفـة الأخـرى، لا يمكـن للإنسـان أن يصـل إلى الحكمـة ما لم يصـل إلى معرفة مـا يضادها، فيتجنبـه ويواجهه؛ أي يواجـه ما يضاد الحكمـة مواجهة جدّية. فمـن لا يكفر بالطاغوت

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٨.

لا يؤمن بالله، ومن لا يتحدّى الآلهة المزيفة لا يعرف معنى التوحيد الخالص. بل إن كلمة التوحيد تبدأ أساسًا بأداة النفي لكلّ إله مزعوم.

ومن هذه الزاوية، يكشف القرآن الكريم في سياق هذه السورة عن الجانب الآخر من الصورة؛ أي جانب لهو الحديث الذي هو مضاد للحكمة، والذي سوف نتدبر في الآية الخاصة به إن شاء الله تعالى. أما الآن فعلينا أن نعرف ما هو الفلاح؟ وما هي السعادة.

ما هو الفلاح؟ وما هي السعادة؟

إن فريقًا من الناس يزعمون أنهم يعرفون الخير، ولكن الحقيقة هي أن الكثير من البشر يعيشون العذاب ويعانون الهوان، وإنما حياتهم أشبه بالممات؛ فلا هي حياة، ولا هي ممات.

والسبب في ذلك؛ أنهم لم يتذوّقوا طعم الكرامة ولم يتحسّسوا السعادة، ولذلك فإن أوّل مسؤولية يمكن لأي هادٍ ومربٍّ أن يؤدّيها -وهي المسؤولية التي اضطلع بها الأنبياء والأئمة عليهم السلام والعلماء الربّانيون رضي الله عنهم- هي إثارة مشاعر الإنسان السليمة، وتطلّعاته الفطرية، ومخاطبته كإنسان، وتذكيره بأنه لم يولد لكي يُعذَّب، وأن العذاب ليس مصيره الأبدي.

ولطالما كان الأنبياء والأئمة وخلفاؤهم يُبَيِّنُون دور الإنسان وآفاق كرامته، وأن هذا المخلوق لم يوجد إلَّا ليعيش في مملكة المحبّة والعدل والحرّية والكرامة، ويؤكدون لابن آدم ضروره التطلع -وبجدّية بالغة- إلى امتلاك الجنّة والحبور فيها، وأن يسمو في

تكامله إلى حيث وصفه الربّ المتعال: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(1) إذ يكون جليس الرحمن.

إن هذه هي الخطوة الأولى التي لابدّ أن يخطوها الإنسان نحو الفلاح والسعادة؛ إذ يثير تطلّعاته المشروعة، ويعرف لِمَ خُلق.

» القلب الخاشع كالأرض الخاشعة تستقبل المياه العذبة لتكون غيثًا وخصبًا. ولكن هل كل أرض تنبت زرعًا أو تنفع ضرعًا؟.

إن هناك من الثقافات الجاهلية ما هو قائم على الخرافة يحاول الطغاة وأعوانهم بثها بين الناس، لانتزاع الكرامة من الإنسان، حتى أنهم ليوحون له بأنه قد خُلق ليُعَذَّب، وقد أضحى من البشر اليوم من يُحرم على نفسه ممارسة أي نوع من أنواع استثمار طيبات الحياة ولذائذها. وهذا ما يعتبر عين الخرافة!.

ومن الناس -عبر التاريخ- من انتُزعت منه الكرامة، حتى على مستوى الإحساس، وقد قيل له من قبل: إنك خُلقتَ عبدًا، ولا بدّ أن تبقى عبدًا. فيما الرسالات الإلهيّة ترفض ذلك رفضًا قاطعًا، إذ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وقد قال بعد أن خلقه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(2)، ولم يقل ذلك لدى خلقه. كلّ هذا الفضاء الرحب الذي قد لا يصل حتى الخيال إلى مداه.

فإذا كان من الأشخاص مَنْ لم يفهم هذه الحقيقة بعدُ، ويعجز عن تصوّر الآفاق التي يتكامل بها؛ فإن رسالة السماء -بآياتها وبأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، وحتى أدعيتهم المأثورة التي هي بمثابة كنوز إلهيّة- لترفع من مستوى وعيهم

(1) سورة القمر، آية: 55.
(2) سورة المؤمنون، آية: 14.

بحقيقة الوجود الإنساني والحكمة الربّانية التي تقف وراء خلق الإنسان.

ومن نصوص دعاء أبي حمزة الثمالي رضي الله عنه المروي عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام ما جاء فيها: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ صَبْراً جَمِيلًا وَفَرَجاً قَرِيباً وَقَوْلًا صَادِقاً وَأَجْراً عَظِيماً. وَأَسْأَلُكَ يَا رَبِّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ؛ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ. يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ وَأَجْوَدَ مَنْ أَعْطَى، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَعْطِنِي سُؤْلِي فِي نَفْسِي وَأَهْلِي وَوَالِدَيَّ وَوُلْدِي وَأَهْلِ حُزَانَتِي وَإِخْوَانِي فِيكَ، وَأَرْغِدْ عَيْشِي وَأَظْهِرْ مُرُوَّتِي وَأَصْلِحْ جَمِيعَ أَحْوَالِي، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطَلْتَ عُمُرَهُ وَحَسَّنْتَ عَمَلَهُ، وَأَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ، وَرَضِيتَ عَنْهُ، وَأَحْيَيْتَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي أَدْوَمِ السُّرُورِ وَأَسْبَغِ الْكَرَامَةِ وَأَتَمِّ الْعَيْشِ، إِنَّكَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، وَلَا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ غَيْرُكَ.**

اللَّهُمَّ وَخُصَّنِي مِنْكَ بِخَاصَّةِ ذِكْرِكَ، وَلَا تَجْعَلْ شَيْئاً مِمَّا أَتَقَرَّبُ بِهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ رِئَاءً وَلَا سُمْعَةً وَلَا أَشَراً وَلَا بَطَراً، وَاجْعَلْنِي لَكَ مِنَ الْخَاشِعِينَ.

» أوّل مسؤولية يمكن لأي هاد ومربٍّ أن يؤدّيها هي إثارة مشاعر الإنسان السليمة، وتطلّعاته الفطرية، ومخاطبته كإنسان.

اللَّهُمَّ وَأَعْطِنِي السَّعَةَ فِي الرِّزْقِ، وَالْأَمْنَ فِي الْوَطَنِ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَالْمُقَامَ فِي نِعَمِكَ عِنْدِي، وَالصِّحَّةَ فِي الْجِسْمِ، وَالْقُوَّةَ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّلَامَةَ فِي الدِّينِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبَداً مَا اسْتَعْمَرْتَنِي...»[1].

(١) مصباح المتهجد، ص٥٩٣.

ألا تجـدون كيف أن هذه المقطوعـة من الدعاء الرائع تحتوي عـلى أغلب التطلّعات البشريّة الراقية؟ وكيف تثير في الإنسـان كلّ مشاعره الكامنة وتدفع به إلى تبنّي التطلّع الرفيع؟.

وإن ذلكـم لبُعْدٌ أسـاسي من أبعـاد الفلاح؛ إذ يبـدأ الفلاح بالتطلّع، ثم بالعمل الدؤوب والسعي المستمر.

ثم تحقق لنا رسالة السماء؛ ببرامجها الحياتية وأحكامها الدينية ووصاياهـا الخلقيـة، وبـما تُخلِّفه في المجتمع من سـلام واسـتقرار، وبالمنظومـة المتكاملة من الثقافة الناهضة؛ تحقـق حياة طيبة، ملؤها الأمن، وتحسـين العلاقـات الاجتماعيـة، ودرء البأسـاء والضراء، وكلّ ما من شأنه التسبّب بالشقاء والتعاسة،.

وأخـيرًا؛ يـزرع الإسـلام الرضـا في قلـب الإنسـان، ليبقى مطمئنًـا آمنًا بعيدًا عن الأمراض النفسـية والتوتـرات العصبية وما ينغص الحياة من مخاوف الموت والحرص والطمع والحسد وغيرها. والإسلام يضع الحلول الناجعة لكلّ العقد النفسيّة المُعطلة للحياة، حتى أن المؤمن ليطرد عن نفسه الخشية من الموت، وهو أكبر مُنَغِّص لأكثر الناس. أوَتدري كيف؟

الإسلام يُعَلِّم البشر: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[1]، ويؤكد له ضرورة التـوكّل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، إضافة إلى أهميّة اعتبار المؤمن الدنيا برمّتها جسرًا إلى عالم آخر له حسـاباته الخاصّة. ومن (الاستقرار والاطمئنان إلى غفران الله) يتطلّع المؤمن إلى الرحمة الربّانية المطلقة، وبالتالي فهو في غنىً عن عقدة مواجهة الموت.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

والمؤمن يمتاز بصفة الرضا، والرضا نصف السعادة. وهذا الرضا يفتح أمام عينيه أفقًا راقيًا. كيف؟

إن السعادة تقضي إما بتكيُّف الحياة مع الذات، أو بتكيُّف الذات مع الحياة. فإذا تمكّن المؤمن من الخيار الأوّل فبها ونعمت، وإلّا كيَّف نفسه مع الحياة بما لا يسقط به في المحاذير، ورضي بما قسم الله له.

لذا ينبغي علينا أن نطلب من الله تعالى أن يرزقنا من اليقين ما يهوّن علينا مصائب الدنيا ونرضى بما قسم لنا. وهذا الرضا جزء أساسي من السعادة؛ لأن السعادة قبل أن تكون في واقع الإنسان هي في قلبه.

وكلمة رائعة هذه التي يبينها ربّنا المتعال في الآية الخامسة من السورة المباركة، حيث يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾. إذ الفلاح غير السعادة؛ لأن المرء قد يكون سعيدًا بنفسه، ولكنه من الخطأ أن يتخيّل السعادة فيما أخوه أو صديقه أو جاره يعاني الشقاء، فتلك ليست بالسعادة الحقيقيّة، لا سيّما وأن الإنسان لا يستطيع العيش في جزيرة آمنة ومن حوله بحر من الشقاء، مما يعني لزوم سعيه لإحراز الخير له وللآخرين. وهذا هو الفرق بين كلمتي السعادة والفلاح.

ثم إنّ السعادة الإيمانية لا تقتصر على الدنيا فحسب، وإنما هي تمتد إلى البرزخ وإلى يوم القيامة، وعند الميزان، وعند الصراط المؤدّي إلى الجنّة. وكلمة الفلاح تشمل كلّ هذه الأبعاد لسعادة الإنسان.

والإنسان ينبغي أن ينفض عن نفسه غبار الخمول والجمود.

وينطلق إلى الحياة عبر التطلّع والطموح. وأرقى نوع من أنواع ترجمة هذا التطلّع -الحقيقي والصادق والمشروع- هو الدعاء.

إنّ أوّل ثمـرة للدعاء -في الحقيقة- هو أنه يُكرّس في النفس الخُلـق الفاضل، حيث يدعو الداعي ويطلب مـن الربّ المتعال أن يأخـذ بيده إلى حيث تطهـير قلبه من الأمـراض والعقد النفسيّة، كالطمع والرياء والحسد والفواحش الباطنيّة.

» يـزرع الإسـلام الرضـا في قلـب الإنسـان، ليبقـى مطمئنًا آمنًا بعـيدًا عـن الأمـراض النفسية والتوترات العصبية.

وبالإضافة إلى كون الدعاء يمثّل مستوىً سـاميًا مـن الإيحاء النفسي المطلوب، كذلـك هو نوع عبادة، بل هو مخ العبادة، لأنه يختزل في طياته استيعاب الإنسـان الداعـي سرّ وجـوده، فضـلًا عـن معرفته ربّـه ومعرفته نفسه.

وقد ورد في الحديث المروي عن رسـول الله ﷺ، أنه قال: «**خَيْرُ مَا يَسْأَلُ اللهَ الْعَبْدُ الْعَافِيَةُ**»(١).

والعافية تعني الكمال في الأمن والصحّة والسـلامة الروحيّة والجسـديّة والماليّـة، والصـدق في اليقـين، وعدم وجـود العيب في التمسّك بالدّين.

ثـم الدعاء يُفضّل أن يُشرك فيه الآخـرون، كما هو الوارد في صلاة الليل، حيث يُستحب أن يدعو المصلّي في ركعة الوتر لأربعين شـخصًا من إخوانـه المؤمنين، مما يعكـس تغلّبه على عقـدة الأنا في نفسه، وتحرّره إلى حيث إرادته الخير لغيره. ومن طبيعة هذا الدعاء: أنـه يُقـرِّب بين الداعي والمدعو له؛ أي أنـه يُوجِد صلة غيبيّة بينهما،

(١) بحار الأنوار، ج٧٨، ص١٧٣.

وتتوثّق عُرى هذه الصلة إذا ما دعا المدعو له للداعي الأوّل. ونحن نعلم كم للصلة الوثيقة الطيبة من دور في تحقيق السعادة الحقيقية للإنسان.

هذا إضافة إلى إيجابية الأدعية الجمعيّة، حيث يتفاعل دعاء الفرد مع أدعية إخوته المؤمنين.

» بصائر وأحكام

١- الهدى من الله ولكن على البشر أن يفتحوا منافذ قلوبهم على ضياء الهدى، ولن يجبر الرب عباده على الهدى ولا يمنعهم عنه عبثًا سبحانه.

٢- الخطوة الأولى على طريق الفلاح إثارة فطرة الكرامة عند الإنسان، وأن يتطلع إلى الأسمى، وأن يعلم أنه أنما خُلق ليعبد الله وحده فيحظى بكرامته البالغة.

٣- المؤمن بين حُسنيين: إما بتكيُّف الحياة معه بنعم الله السابغة، أو تكيُّفه مع الحياة بالرضا.

» لهو الحديث نقيض الحكمة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

***

من الحديث

روى الواحدي بالإسناد عن نافع، عن ابن عمر، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، قال: «**بِاللَّعِبِ وَالْبَاطِلِ كَثِيْرُ النَّفَقَةِ، سَمْحٌ فِيْهِ، وَلَا تَطِيْبُ نَفْسُهُ بِدِرْهَمٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ**»[1].

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**هُوَ الطَّعْنُ بِالحَقِّ، وَالاسْتِهْزَاءُ بِهِ، وَمَا كَانَ أَبُوْ جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ يَجِيْئُوْنَ بِهِ؛ إِذْ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَلَا أُطْعِمُكُمْ مَنْ الزَّقُّومِ الَّذِي يُخَوِّفُكُمْ بِهِ صَاحِبُكُمْ؟.**

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ زِبْداً وَتَمْراً، فَقَالَ: هَذَا هُوَ الزَّقُّوْمُ الَّذِيْ يُخَوِّفُكُمْ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٧٧.

بِهِ. قَالَ: **وَمِنْهُ الْغِنَاءُ**»[1].

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **الْغِنَا مِمَّا أَوْعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ النَّارَ**؛ وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾». [2]

عن الحسن بن هارون قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**الْغِنَا مَجْلِسٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَهُوَ مِمَّا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾»[3].

تفصيل القول:

قدمنا القول في السياق القرآني أن القرآن حكمة، وكلّ القرآن حكمة، لأنه وصف نفسه بها. ومعنى ذلك أن الحكمة تحيط بالكتاب من جميع جوانبه، ولكن ما الذي يتناقض مع الحكمة؟.

إنه اللهو الذي يُبعد المرء عن التركيز على ما هو مفيد ومتوجّه إليه. وعادة ما يكون حديث اللهو حديثاً لا محتوى له، وغير حامل ومتميّز بهدف معقول.

وحيث إن الهدف المعقول في أسمى صوره هو: التقرّب إلى الله تعالى.

والقرآن الكريم بيّن هذا الموضوع في أكثر من آية، كما في سورة النور حيث قال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٧٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ١٩٤.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ١٩٤.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(١)؛ نظـرًا لأن اللهو يُبعـد الفرد عن طريقه الصحيح.

أمّـا الحديث (اللهو)؛ فهو الـكلام الفارغ الذي لا يؤدّي إلى مـؤدّى. فيـما الشراء؛ يعـرف بعطـاء شيء وأخذ شيء آخـر يقابله، والاشـتراء أبلغ وأقوى من الشراء. فماذا يمكن للإنسـان أن يُقدّمه من أجل لهو الحديث؟ هناك أكثر من تفسير.

التفسـير الأوّل: هناك مـن الناس من يُقدّمـون أموالًا طائلة مـن أجـل لهـو الحديـث، كـما يشـاهد فعـلًا، حيث تـصرف مئات المليـارات مـن الـدولارات لإنتـاج الأفـلام المخلّة بالحيـاء والعفّة ومثيلاتها، وكلّ هدفها قتل الوقت وإفسـاد النفوس وإلهاء الإنسان عن تطلّعاته وإعاقته عن أداء مسـؤولياته. ولا ريب في أن للشيطان وأعوانـه من الإنس والجن أسـاليبهم الماكـرة في صنع وترويج هذا النوع من لهو الحديث.

أمّا **التفسـير الثاني**: فإن أي إنسان يصرف وقته وعمره ويُبلي شـبابه في اللهو والأباطيل، فإنما يشـتريه بأغلى ثمـن. أوَليس عمره ودينه أغلى ما لديه؟.

فلـماذا يشـتري المـرء لهـو الحديث، ويـصرف وقتـه، فيما الله تعـالى ينهـاه عنه، حيـث يقـول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾(٢).

ولقـد جعـل الله مسـؤولية الإنسـان تجـاه نفسـه ومسـتقبله

(١) سورة النور، آية: ٣٧.
(٢) سورة المنافقون، آية: ٩.

ومجتمعه مسؤولية كبيرة، وأضحى بعض الناس يكبرون مع عظمة مسؤولياتهم، في حين أن بعضهم الآخر يتفنّن في سبل التهرّب من مسؤوليته. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، جعل الله تعالى بُعدًا في النفس الإنسانية أسماه بالنفس اللوّامة؛ فهي تلومه لدى تقصيره وتهرُّبه من مسؤولياته. فترى بعض الناس لكي يتخلّص من وخز الضمير وتأنيب نفسه اللوّامة، تراه يسعى جاهدًا من أجل إشغال نفسه عبر شراء لهو الحديث لينسيه مسؤولياته.

وهو من أجل ذلك كلّه، يغفل عن أن ما يفعله أخطر وأغلى بكثير مما لو كان متحمِّلًا لمسؤولياته، لأنه أنَّى فعل، فلن يستطيع الخلاص من وخز الضمير ولوم النفس، سواءً في اليقظة كان أو في المنام، وسواءً في وعيه أو في عقله الباطن.

ولذلك، نجد القرآن الكريم واضحًا في هذه اللفتة، إذ يقول: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي ليتهرّب من أداء مسؤوليته، وهي المتمثّلة بالسير في سبيل الله القويم المؤدّي إلى الحياة الفاضلة، بدلًا من أن يصرف وقته في لهو الحديث ومجالس البطالين بأنواعها.

» من الناس من يُقدّم أموالًا طائلة من أجل لهو الحديث، كل هدفها قتل الوقت وإفساد النفوس وإلهائها عن تطلّعاته وأداء مسؤولياته.

نعم؛ من المفترض أن تتكوّن المجالس حول محاور مفيدة، حيث يتم فيها مطارحة الأفكار النافعة.

أما إذا تحولت هذه المجالس إلى مقار لممارسة الغيبة والتهمة والنميمة وإثارة الفتنة بين الناس؛ فتلك تكون محافل مبغوضة عند الله، وضارة بالمجتمع.

ولا ريب في أن ابن آدم سيُسأل يوم القيامة عن سِنّي حياته وأشهرها وأيامها وساعاتها، وحتى ثوانيها ولحظاتها، أين وكيف صرفها؟! والحساب عسير، والله سبحانه سريع الحساب، وهو الحاكم وهو الشاهد وهو الناقد البصير، وقد قدَّم المزيد من الوعد والوعيد.

وهكذا نجد القرآن الكريم حين يُبيّن لنا جانب الحكمة، يُبيّن أيضًا الجانب الآخر، وهو جانب لهو الحديث ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم يقول: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، وهذا يعني أن الإنسان يهرب من العلم المتمثل في العقل والوحي. والعلم هو المعيار السليم ووسيلة النجاة، فإذا ضل البشر عنه فتراه لا يحقق شيئًا مفيدًا لنفسه ولا للآخرين، بل ويضرّهما أيضًا.

وحيث إن الوحي يثير العقل ويزيد العلم؛ فهو يتهرّب منه. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

كيف يستطيع الإنسان أن يتهرّب من العلم؟.

يفعل ذلك بالسخرية؛ لأنه يعجز عن مواجهة الوحي بكلمة طيبة وبحجّة بالغة، فتراه يستهزئ به، وإنما هو يستهزئ بنفسه، حيث يهبط من مستوى الجد إلى مستوى اللعب، ومن مواجهة الحقائق بشجاعة إلى ممارسة خداع الذات.

والقرآن الحكيم يؤكّد هنا على كلمة العلم، لأن المتهرّب، جاهل مع ادّعائه العلم؛ لاختياره الفرار من المسؤولية ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

هنا يبين ربّنا سبحانه وتعالى العاقبة التي تقف بالمرصاد لمثل

هـؤلاء، وهي لا شـك عاقبة أليمة جـدًّا ومخزية للغايـة. والعذاب متنوع سواء بصورة نيران ملتهبة أو ضيق وظلام، أو معاناة حالة لا هي موت ولا حياة. ولكن يبدو أن أشـد العذاب على الإنسـان هو الإهانة والإذلال، لا سيّما إذا كان الإذلال في أشد صوره، كما يقول الله سـبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1]، مطلق الخزي ومنتهى الإذلال!.

ويخطئ المتهرّب عن مسؤولياته الشرعية والحكيمة، والداخل في المجـون والإباحيـة والاسـتهزاء بالدين، في أنه قـد يتخلّص من وخـز الضمـير؛ إذ العكس هـو الصحيح، لأنه هو الهـيّن، وهو من اشترى المهانة والهوان، وقد ديست كرامته بعمله الفسوق.

ولا بـدّ من القـول هنا: إنّ معاييرنا في تقييم الثقافة ككلّ، أو تقييـم حياتنا بصـورة أعم، ينبغي أن تكون معايـير إلهية وعقلائية، والمعيار الحقيقي والأساس لذلك، هو أن أي أمر يبعدنا عن الدين، ويبعدنا عن السعادة وعن السلوك الصحيح، وعن مسؤولياتنا، هو معيار مرفوض. ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، ولا فرق أيضًا في أن يكون هذا الأمر ذا ظاهر أنيق أو جذّاب، أو لا يكون كذلك؛ لأن كليهما يبعداننا عن الحقيقة.

عقبات في طريق الهدى

الهدى ذروة وقمّة، والضلالة درك أسفل، وبين الجانبين مسافة لابدّ أن يقطعها الإنسان بوعيه وبهمته وتوكّله على الله عزّ وجلّ.

وبين الإنسـان والهدى عقبات، فإذا عرفها وعقد العزم على

(١) سور آل عمران، آية: ١٩٢.

تحدّيها وتجاوزها، استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ بإذن الله تعالى.

والقرآن الكريم -كما هو شأنه- يشير إلى منظومة هذه العقبات بين الفينة والأخرى؛ لأن كتاب الله ليس كتاب تذكرة فحسب، وإنما هو أيضًا برنامج تزكية، حيث إنه يضع أمام الإنسان منهاجًا متكاملًا لتزكية نفسه من أدران الجهل والغفلة وحجب الشهوات.

وإذا كانت هذه السورة المباركة تدور حول الحكمة، وهي من أبعاد الهدى، فإن ربّنا المتعال يُبيِّن من خلالها كيف يتسنّى لنا التخلّص من العقبات التي تحول دون الوصول إلى الهدى.

الثقافة الجاهليّة

» الهدى ذروة وقمّة، والضلالة درك أسفل، وبين الجانبين مسافة لابدّ أن يقطعها الإنسان بوعيه وبهمته وتوكّله على الله.

ومن العقبات؛ **عقبة الثقافات الجاهلية**، طبعًا مع التحفّظ على تسمية الوساوس الشيطانية والنفسيّة الباطلة بالثقافة. وما يسمّيه الله تعالى بلهو الحديث، هو الكلمة التي تُلهي ابن آدم وتحيد به عن الحقيقة، والتي يسمّيها القرآن في آية أخرى بالشجرة الخبيثة، حيث يقول: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1].

فالكلمة الخبيثة تعادل لهو الحديث هنا، وهو الذي يهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل حتى يحشره في حفر التمنيات الشيطانية، والثقافة الجاهلية، والعصبيّات التي لا تزيده إلّا خسارًا.

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٤.

إذن؛ فهناك من يريد أن يضلك أيها الإنسان، ولكن بأية وسيلة؟.

بوسيلة لهو الحديث ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِى لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ إذ هدفه النهائي هو إضلال الناس، وإبعادهم عن طريق الهدى، وعن فطرتهم وعقلهم وضميرهم.

» الكلمة الخبيثة تعادل لهو الحديث الذي يهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل ويحشره في حفر التمنيات، والثقافة الجاهلية، والعصبيّات.

ومن المؤكّد أن هذا الحديث المُلهي -الذي يحاول البعض تسويقه وإضلال الناس به- هو حديث لا يدور حول العلم، وهو بعيد عن العقل والوجدان، ويتنافى مع اليقين. ولذلك؛ فهو يدور مع الهوى، ويتحرّك باتجاهات مختلفة، وليس له قرار، ويتفرّق به السبيل يمينًا وشمالًا، إذ لا هدف له محدد ولا غاية واضحة، وإنما هدفه ألَّا يصل الإنسان إلى نقطة إيجابية معيّنة، وإنما هدفه الإضلال، ثم الإضلال.

وهنا إشارة لطيفة إلى أن محور الحق والعلم يتناغم كلّ التناغم مع وجدان الإنسان، حيث يعرف به أن الحديث العلمي هو الذي يفتح له باب الحقائق على مصراعيه، أمّا الحديث المجرّد عن العلم، فهو حديث بلا يقين، وينتهي بالضلالة.

ولعلّ القرآن الكريم يشير من خلال كلمة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ إلى أن من يفتري على الله تعالى كذبًا، يدّعي -في معظم الحالات- أن الله يؤيّد ذلك، وهناك الكثير من الناس من يستغل جهل الآخرين؛ فيجعل من نفسه متحدّثًا وناطقًا باسم السماء.

ولكن المستمع -أنّى كان- مدعو إلى مطالبة المتكلّم بالإتيان بالدليل الذي كانت السماء قد حددته من قبلُ، لأن مجرّد نسبة قول أو

حكم ما إلى الله والدين، وإلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام، من دون علم وحجّة بالغة وبرهان ساطع، إنه بذاته يُعتبر ضلالةً وافتراءً.

في حين أن القرآن والحديث وحجّة العقل، أدلّة واضحة ومتاحة لمن أُوتي العلم. فهي -إذن- أدلّة أربعة، إمّا كتاب محكم، أو سُنّة مُتّفق عليها، وإمّا عقل واضح ورشيد، وإمّا بالتالي؛ إجماع يرجع إلى واحدة من هذه الحجج الثلاث. أما خلاف ذلك فإنه ضلال مبين.

عقبة الاستهزاء

أمّا **العقبة الثانية** التي يشير إليها ربّنا سبحانه وتعالى؛ فإنها تتمثل في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾؛ أي إثارة عواطف الناس والميل الطبيعي عند البشر نحو اللعب واللهو والمجون والتهرب من المسؤولية، وبالتالي إثارة الجوانب السلبية في البشر تجاه الحقائق.

ويا للعجب أن يحمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاب الله إلى الناس، فترى مجموعة من سفهاء العرب وسفلتهم يقولون له: مجنون وساحر وكاهن، وينسبون إليه التهم الرخيصة، يهدفون من وراء ذلك إثارة سخريّة الغوغاء من الناس، الذين لم يصلوا إلى مستوى من الوعي.

وهكذا؛ نجد أن هذا النوع من الاستهزاء بالآيات القرآنيّة الشريفة، تعبير عن إثارة لنقاط الضعف عند البشر، والمتمثلة في الهروب من المسؤولية والدخول في غياهب الأفكار الباطلة، وبالتالي إبعاد الناس -ولو للحظات- عن الحقائق.

ومن هذه الإثارات ما نجده اليوم في بعض وسائل الإعلام، حيث تُرمى الثقافة الصحيحة بالتهم الرخيصة، ولا ترعوي وسائل الإعلام هذي حتى عن التنابز بالكلمات البذيئة، من دون

إثبات بدليل وبرهان.

وربّنا سبحانه حينما يُبيّن هاتين الحقيقتين، وأعني بهما عقبة الكلمة الخبيثة، وعقبة الاستهزاء والسخريّة، لا يلبث أن يؤكّد أن الساقطين عند أعتابهما، أرادوا إبعاد الناس عن معرفة الحكمة الربّانية من وجودهم في الحياة الدنيا. هذه الحكمة التي تترجم الحق بأجلى صوره، وبأن العذاب المهين يترصّد أولئك الساقطين عند العقبتين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

والواقع أنّ هذه الإثارات تهدف تجهيل الإنسان وإضلاله بعيدًا عن حياة العقل والعلم والمعرفة، وإقامة بنيان الحياة على الأساطير والخرافات. في حين أن رسالات الله تدعو إلى تنمية العقل وتكريس العلم. دعنا إذًا نعرف ما هي حقيقة العلم، وكيف نبني المجتمع الإنساني عليه؟.

حقيقة العلم

العلم -في حقيقة الأمر- نور من شأنه الكشف عن الحقائق بصورة مباشرة، وعلامته اطمئنان النفس به، وغايته الأسمى إسعاد الإنسان.

وبكلمة: العلم نور، وميراثه اليقين، وعاقبته الفلاح.

أمّا ما سوى هذا، فقد يكون مفردة علميّة يستخدمها فرد ما للتعبير عن حقيقة ما، ككشف أو اختراع. وهو في حقيقته جاهل بأصل الحياة في الدار الأولى والآخرة، وهما -بلا ريب- أكبر من المفردة العلميّة، وأكبر من أي اكتشاف واختراع -مع إيجابية هذين- أو كونه ينسب نفسه إلى العلماء والفضلاء بطريقة وبأخرى.

بين العلم والتواضع

ونستطيع من خلال عقبى العلم معرفة حقيقته. فبينما العلم يدعو حامله إلى ما فيه خير الناس، ترى شبيه العلم كيف يصبح أداة للتجبر وتسخير البشر. لذا تجد الأول كلما ازداد علمًا ازداد تواضعًا، في حين أن الآخر يدعوه جهلة إلى الأستكبار في الأرض بغير الحق.

وقد ورد في المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْداً**»(١).

وفي حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ الْعِلْمَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ، وَلَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ فَيَذْهَبَ بَاطِلُكُمْ بِحَقِّكُمْ**»(٢).

» العلم نور من شأنه الكشف عن الحقائق بصورة مباشرة، وعلامته اطمئنان النفس به، وغايته الأسمى إسعاد الإنسان.

والدليل على بطلان هؤلاء المتشبّهين بالعلماء والمتجبّرين بعلمهم، أنهم عجزوا -طيلة الدهر- عن تقديم نظرية كاملة نافعة للبشرية بما ينقذها من مآسيها، على عكس رؤى الأنبياء التي تتنزّل عليهم من السماء.

فبينما هؤلاء يخدعون أنفسهم والآخرين بظاهرٍ من العلم ويشيعون -بين الناس- السخرية والاستهزاء، ويبعدونهم عن الحقائق الناصعة، نجد الأمر بالعلم والتعلّم وطلب اليقين طافحًا في وعاء القرآن المبارك، حتى أن أوّل آية من آياته، أمرت الإنسان بالقراءة وطلب البركة والتعمّق

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٧.
(٢) الأصول من الكافي، ج١، ص٣٦.

باسم الربّ العلّام. فالعلم الحق يهدف هداية الإنسان وإيصاله إلى شاطئ الحقيقة مباشرة ليشاهد بنفسه ما ينفعه، في حين أن الآخر صاحب ثقافة السخرية يحاول إبعاد الناس عن وعي الحقائق ويهيئ لهم حشوًا من أفكاره بديلاً عن المعرفة.

» الاستكبار هو الابتعاد عن حقائق الخليقة، والعيش في الزنزانة الداخلية للذات، ومن ثم عبادة الهوى والانسياب مع منظومة العصبيّات الجاهليّة.

ومن هنا رغَّب القرآنُ الإنسانَ في العلم وطلب الحقيقة بوسيلة الوحي والعقل والوجدان، كذلك نجد التيقّظ والابتعاد عن الغفلة، وليس بمتعلّمٍ وببالغٍ حكمة الوجود من كان غافلًا.

ضلالة الاستكبار

أمّا **العقبة الثالثة** في طريق المعرفة، التي لعلّنا نستفيدها من الآية السابعة من هذه السورة الكريمة، فهي الاستكبار. إذ يعيش المرء في زنزانة نفسه بعيدًا عن الحقائق الخارجيّة، وكلّما ازداد جهل الجاهل وتعمّق، كلّما غمرته أمواج الجهلة، حتى يصبح أكثر استكبارًا، فيشعر بأنه كلّ شيء.

ولذلك، نقرأ في الآية الثامنة عشر من هذه السورة المباركة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(١).

والاستكبار حقيقته الابتعاد عمَّا في الخليقة من حقائق، والعيش في الزنزانة الداخلية للذات، ومن ثم عبادة الهوى والانسياب مع منظومة العصبيّات الجاهليّة. وهذا الاستكبار هو أحد الأسباب الرئيسيّة التي تمنع الإنسان من الهدى، فهو -في نهاية

(١) سورة لقمان، آية ١٨.

المطـاف- عقبة في طريق الهـدى، ومن أراد الهدى تجاوز هذه العقبة بالطرق المرسومة والمشروعة.

» بصائر وأحكام

١- لكـي يتهـرب البعض عـن وخز الضمـير، ومن النفس اللوامة تراه يشـتري لهـو الحديث لعله يبتعد ولـو لفترة قصيرة من محاكمـة الوجـدان، ومـن ملاحظـات المصلحين، وهكـذا يجب أن يتجنب المؤمن ذلك اللهو ليتفرغ كليًّا لواجباته الشرعية.

٢- الهدى ذروة سامقة والضلال وادٍ سحيق، وعلى المرء أن يقطع مسافة بينهما بالتوكل على الله وبعزم راسخ.

٣- لبلـوغ قمـة الهـدى يتحدى المؤمـن عقبات شـتى: منها الثقافـة الجاهلية، وما هي سـوى وسـاوس إبليس تنتظم في نسـيج مزخرف، ومنها: الاسـتهزاء بالحق وإثارة ميول البشر نحو اللعب واللهـو، ومنهـا الاسـتكبار واسـتبدال مرجعيـة العلـم بمحورية الذات.

٤- والبديـل عـن لهـو الحديث العلـم الذي يتجلى باسـمى الصفـات في حامله، وهكذا رغَّبنا الوحـي في تحصيله والتزيُّن معه بالحلم والتواضع.

» كيف نتجاوز الاستكبار؟

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

* * *

١ - ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾

من أجل اقتحام عقبة الاستكبار، علينا المكابدة عبر سبل شتى بجملة من الطرق:

أوّلًا: أن يعرف الإنسان أن الاستكبار ليُضِرُّ به ضررًا بالغًا، وإنما مصلحته تكمن في الابتعاد عن التكبّر في الأرض؛ ذلك لأن مصلحة ابن آدم تتمثّل في اكتشاف الحقائق والتكيّف معها عبر مزيد من الحكمة التواضع.

ثانيًا: دع الإنسان يعرف ذاته ويقيسها بمخلوقات الله تعالى التي هي أكبر منه؛ مثل الجبال الراسيات، والبحار الواسعة، والأرض التي لا يضاهيها حجمًا، ثم يعرف ذاته ومدى قدراته على تحمل ألم بسيط في جسمه قد يقضي عليه وينتهي به إلى الموت.

وحيث يعمد ابن آدم إلى قياس نفسه بالأشياء والحقائق الموجودة في هذا الكون، فإنه يتواضع -وهكذا يتوقّع له- حتى يصبح أكثر تعادلًا واتزانًا مع مرور الوقت.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي تُكشف له الحقائق وتتوارد عليه الموجودات؛ فإنه يتهرّب من هذه الآيات، ويحشر نفسه في فضاء ضيّق، حيث زنزانة ذاته المغلقة، حتى يستكبر ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.

»الاستكبار حالة فرديّة، وعادة ما يعيش المستكبر بعيدًا عمّن حوله، حتى أن المستكبرين يصعب عليهم التعايش مع أحد.

وهنا إشارة قرآنية لطيفة وردت عبر كلمة ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي هرب من الإيمان والمعرفة، وبالتالي من تحمّل المسؤولية، وشرد ذهنه عن الحق. إنه وبكل إرادته وعزمه، وبكل ما أُوتي من قوّة يحاول التهرّب من الحقائق، كمن يغلق على نفسه باب غرفته الضيّقة المظلمة النتنة الرائحة، ثم يسدل عليها الستائر، ويضع على رأسه غشاءً، تهرُّبًا من نور الشمس.

وليس الهدف من التهرّب من الآيات والحقائق إلّا الاستكبار بداعي الجهل والغفلة وسحق الضمير.

وبعدها؛ يشير القرآن المجيد إلى وقوع الإنسان في فخ الرغبة في الاستكبار على الحقائق.. فيقول: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾. فهذه قد سمعها وسمع بها، ولكن موقفه من الآيات والدلائل والبراهين العقلية والعلمية، كان كأنه لم يسمع بكلّ ذلك.

وبناءً على هذا، نفهم من هذه الآية القرآنية الكريمة أن الحجّة الإلهيّة تُقارب الإنسان حتى تصل إلى أعماقه، شاء أم أبى، لكن يبقى كل فرد بعدئذ في رضا أي اتجاه يعزم عليه. فبينما تجد بعضًا يتهرّب

من الحقّ مستكبرًا، تجد الآخر يستقبل الحقّ استقبالًا جيّدًا.

ويُشبّه القرآن الكريم هذا الذي يستكبر، فيقول: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ لما فيهما من ضعف يمنعه من استماع الحقائق. فهو يسمع ولا يستمع! مثله في ذلك، مثل من تناول أقراصًا منوّمة، فهو قد يفتح عينه إذا ما أُوقظ، ولكنّه سرعان ما يعود إلى رقاده، لفرط استيلاء الأدوية على حواسّه.

وهذه طبيعة المستكبرين.. ومادامت جرثومة المرض الخبيثة مسيطرة عليهم، فإنهم يسمعون الآيات، وكأنهم لايسمعون من فرط الغفلة.

إشارات الاستكبار

الاستكبار حالة فرديّة، وعادة ما يعيش المستكبر بعيدًا عمّن حوله، حتى أن المستكبرين يصعب عليهم التعايش مع أحد؛ لأن الاستكبار يعزل أفراده عن بعضهم، ولذلك تجدهم يخوضون حروبًا طاحنة فيما بينهم.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن ثقافة الاستكبار، هي ثقافة متشابهة؛ لأن عوامل الاستكبار متشابهة، وهكذا فإن ثقافتهم تتمثل في الكلمة الخبيثة وفي لهو الحديث وما أشبه. إنها ثقافة تيار فاسد.

ومن علامات الكبر؛ إنكار الحقّ، مهما كان مستوى الإنكار، ومهما كان شكل الحقّ. وكذلك من علاماته؛ غمط الخلق وتجاوز حقوق الآخرين وعدم رعاية حرماتهم.

والمستكبر ينكر الحق ويغالي في الإصرار على رأيه دونما حجّة مقنعة أو برهان ساطع، حتى يصل إلى حيث تأخذه العزّة بالإثم.

ولابدّ لي من التذكير هنا بأن أسلوب القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال للناس لعلّهم يتفكّرون، فيتّعضون.

المثل القرآني جزء من الحقيقة وباب مشرعة إلى معرفة الحقّ. فهو يضرب لهم مثل فرعون وهامان والعديد من المستكبرين، وهم الذين كان يُشار إليهم بالبنان بسبب أفعالهم وطبيعة مستواهم. لكن هذه الأمثلة ليست خاصّة بهم وحدهم؛ ففرعون -مثلًا- كان شخصًا واحدًا، لكن من يعمل بعمله ويسير بسيرته، وإن كان أدنى منه، فإنه سوف يكون محسوبًا عليه.

وكذلك بالنسبة إلى الطرف الآخر، حيث يضرب القرآن الكريم الأمثلة من المؤمنين والأولياء والصالحين.. وهذا لا يعني أن من كان أدنى منهم درجة في الإيمان والصلاح والجهاد، لا يحظى باهتمام تأييد القرآن الكريم.

ولذلك نجد أن من صفات الفرد المؤمن جديته في الاستفادة من التوجيهات القرآنيّة، فيحملها على محمل الجدّ بما أُوتي من وعي وقوّة؛ فتراه يقف عند كلّ آية، وعند كلّ مثل، فإذا مرّة بآية فيها ذكر الجنّة، وقف عندها متسائلًا عمّا إذا كان من أهلها، وإذا لم يكن تساءل كيف يصبح من أهلها، وعن المسافة الفاصلة بينه وبينها.

وإذا قرأ آية فيها ذكر للجحيم، وقف عندها متسائلًا في نفسه عمّا إذا كان مستكبرًا مستحقًّا للنار والعذاب المهين، فيستعيذ بالله من ذلك، أو من أن يكون من الذين يشترون لهو الحديث، أو الذين يتخذون آيات الله هزوًا.

وبهذا الصدد، روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ، فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ فِي الْمَسْجِدِ،

وَهُـوَ يَخْفِـقُ وَيَهْوِي بِرَأْسِـهِ، مُصْفَرًّا لَوْنُـهُ، قَدْ نَحِفَ جِسْـمُهُ، وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ **كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟**.

قَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ الله مُوقِناً.

فَعَجِـبَ رَسُـولُ الله ﷺ مِـنْ قَوْلِـهِ، وَقَالَ: **إِنَّ لِـكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟**.

فَقَالَ: إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُـولَ الله! هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَـأَ هَوَاجِـرِي، فَعَزَفَـتْ نَفْسِي عَـنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَـا، حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُـرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَـابِ وَحُـشِرَ الْخَلَائِقُ لِذَلِكَ، وَأَنَـا فِيهِـمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُـونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ وَعَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ، وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي.

فَقَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ لِأَصْحَابِـهِ: **هَـذَا عَبْدٌ نَـوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ**.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: **الْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ**.

فَقَـالَ الشَّـابُّ: ادْعُ اللهَ لِي يَا رَسُـولَ الله! أَنْ أُرْزَقَ الشَّـهَادَةَ مَعَكَ.

فَدَعَـا لَـهُ رَسُـولُ الله ﷺ، فَلَـمْ يَلْبَـثْ أَنْ خَـرَجَ فِي بَعْـضِ غَـزَوَاتِ النَّبِـيِّ ﷺ فَاسْتُشْـهِدَ بَعْدَ تِسْـعَةِ نَفَـرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ»[١].

بـلى، إن هناك من يعيش مع الحقائق بصورة مباشرة وجدّية،

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٥٣.

ولقد رأيت بنفسي -خلال موسم الحج أو شهر رمضان أو في مناسبات أخرى- من تستولي عليهم حالة إيمانية معيّنة، فيعايشون الحقائق، وبكاؤهم ليس بكاءً مصطنعًا، وإقبالهم ليس إقبالًا ظاهريًّا، فتتصل قلوبهم بنور الله. وهذه الحالة ممكنة لكلّ إنسان يريد الوصول إلى مستوى راقٍ من الإيمان، وذلك في خضم قراءة القرآن والوقوف عند كلّ آية والتدبّر والتأمّل فيها.

ولكن من الناس من يقرأ القرآن وكأن آياته نزلت لغيره، وكأنه غير معنيٍّ بها وبمفاهيمها، فينطبق عليه المثل القائل: الموت حقّ ولكن للجار!.

ونلاحظ أن عديدًا من الناس تراهم كأنهم يريدون الخير للآخرين، فإذا بهم يطالبونهم بالتزام الأخلاق الفاضلة والأعمال الزكيّة والمواقف الصحيحة، ولكنهم لا يطالبون أنفسهم بذلك، فتراهم يتحوّلون في يوم القيامة إلى جسور يعبر الناس عليهم إلى الجنّة، بينما هم قد يساقون إلى النار، والعياذ بالله.

وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأبي ذر الغفاري، حيث قال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ؛ يَطَّلِعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا أَدْخَلَكُمُ النَّارَ وَإِنَّمَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِفَضْلِ تَعْلِيمِكُمْ وَتَأْدِيبِكُمْ؟!. فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ**»(1).

خزي وألم

ومن هنا، نعود إلى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، حيث قال بعد ذلك: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، بينما قال قبلها: ﴿عَذَابٌ

(1) وسائل الشيعة، ج16، ص152.

مُّهِينٌ ﴾، إذ يُبتلى ويُعاقب بعذاب فيه الخزي والألم.

أمّا الخزي؛ فحيث يحاسب أمام مرأى الملايين من البشر ثم يساق أمامهم أيضًا إلى النار، بعد أن تُبلى سريرته وتُكشف في المحكمة الإلهية الكبرى والميزان الحقّ.

فإذا كان المرء لا يريد للآخرين من الإخوان والأصدقاء أن يتعرّفوا إلى مشاكله في الدنيا، فكيف سيكون موقفه في ذلك اليوم الذي يُفتضح فيه على رؤوس الأشهاد؟.

حقًّا إنه العذاب المهين، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾(١).

إنّ كثيرًا من الناس، يجهدون أنفسهم لأظهارها بمظهر الإيمان والصلاح، فيما سرائرهم يباب، لئلّا تلاحقهم الشتائم واللعنات، ولكنّهم غافلون عن كونهم عاجزين عن الهروب من عذاب الخزي، سواء في الدنيا أو في الآخرة.. إذ الأقوام الظالمة التي تعرّضت للعذاب الإلهي في الدنيا، لا تزال تلاحقهم اللعنات، وفي الآخرة تستقبلهم أيضًا اللعنات بعذابها المخزي والأليم.

» ثقافة الاستكبار، ثقافة متشابهة؛ لأن عوامل الاستكبار متشابهة، وهكذا فإن ثقافتهم تتمثل في الكلمة الخبيثة وفي لهو الحديث إنها ثقافة تيار فاسد.

٢- ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

من العجب أن يستخدم القرآن الكريم لفظة البشارة، والحال أن البشارة تستخدم لما هو خير.

ولعلّ السبب في ذلك، أنه سيُستهزأ بالمستكبر كما استهزأ هو بالحقائق الواضحة والضروريات الدينية.

(١) سورة الطارق، آية: ٩-١٠.

والآيات القرآنية الحكيمة تؤكّد أن الذين استهزؤوا بالآيات في الدنيا، سيُستهزأ بهم في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1].

» إن مجمل النصوص القرآنية تُحرّضنا على نبذ ثقافة الاستكبار، وتُعلّمنا الالتزام بحقوق الآخرين، وتنمية فضيلة احترام الحرمات..

وقال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[2].

وهذا الاستهزاء ردٌّ مباشر على ما كان يقوم به من الاستهزاء بالآيات وبالمؤمنين الذين كانوا ينهونه عن مسلكه الشائن.

إنه كان في الحياة الدنيا يستهزئ وبالتالي يستكبر على كلّ شيء، بما في ذلك حقوق الناس، فيستغلّهم ويظلمهم ويسخر منهم، ولا يرعوي أبدًا لمقولة حقّ، ولا يكلّف نفسه عناء التدرّب على حفظ حرمات الآخرين، بدءًا من أسرته وأصدقائه وزملائه، وانتهاءً بمن هم غرباء عنه. مثل هذا سيتحوّل استهزاؤه واستكباره في الدار الآخرة إلى أن يبشّر بالعذاب ويُهان في سواء الجحيم، حتى يكون ألمه ألمًا مزدوجًا في البدن والروح.

وحيث تغيب الثقافة الدينية الأصيلة، تجد السيّئات

(١) سورة البقرة، آية: ١٣-١٥.
(٢) سورة التوبة، آية: ٦٤.

(الاستهزاء والاستكبار والتطاول على الحقوق) تستشري في صميم المجتمع، فلا ترى الأب يحترم ابنه، ولا الابن يحترم أباه. وتتفشى البذاءة في الحديث لدى حصول الاختلاف، أو حتى في الحالات العادية.

وإن مجمل هذه النصوص القرآنية تُحرِّضنا -فيما تُحرِّضنا- على نبذ ثقافة الاستكبار، وتُعلّمنا الالتزام بحقوق الآخرين، وتنمية فضيلة احترام الحرمات؛ لأن هذه الصفة وشبيهاتها تعني قطع الطريق على التجرّؤ على الحقائق والآيات. وفي الحقيقة، ينبغي لنا التنبّه إلى واقع الحقّ، سواء كان صغيرًا أم كبيرًا، وسواء كان لقريب أم بعيد. والمهم هو الاهتمام بالحق والحقوق، وحملها على محمل الجد.

» بصائر وأحكام

للاستكبار علامات منها إنكار الحق، وظلم الخلق، وعلاج الاستكبار التذكر بأنه خزي في الدنيا والآخرة وعذاب شديد، وعلى الإنسان أن يتوجَّه إلى عظيم خلق الله، وقياس نفسه به لعله يعود إلى واقعه المحدود.

» السعادة المطلقة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

***

١ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾

الدنيا دار ابتلاء، ولأنها دار ابتلاء، فإنها تحتوي على مَثَلٍ من الآخرة محدود، ولذلك فإن فيها ضغثًا من الجنّة وضغثًا من النار. وإذا أردنا معرفة اليوم الآخر، ذلك اليوم العسير، فإنما بالتأمل في أحوال هذه الدنيا يتسنى لنا ذلك الغيب الذي ينتظرنا، ولابدّ لنا منه.

ومن أبعاد الابتلاء الدنيوي: التفاوت المشهود في درجات الناس من حيث التفاضل. فليس الناس سواء، لا فيما يستفيدون من النعم الإلهيّة، ولا فيما يرتبط بحياتهم الاجتماعيّة. فثم تمايز طبقي، وتمايز عنصري، وتمايز في الصحة والعافية والأمن وغير ذلك.

وهـذه الأنماط من التمايز توحي لنا بأن هناك تمايزًا أعظم في الآخرة حيث إن الفجوة بين إنسانين يعيشان في الدنيا معًا ثم يموتان، وقد كان أحدهمـا عـلى صراط مستقيم والآخر على سـبل متفرّقة. هذه الفجوة غائرة وبعيدة وعظيمة إلى حد لا يمكن تصوّره. فهي أوسع مـن حدود الخيال. ومـا نعرفه بهذا الصدد هـو الضياء الذي أوقده لنا قوله عـزّ وجـلّ: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[1].

لا يمكن لنا تقدير المسافة الفاصلة بينهما، علمًا بأن الشخصين ربما كانا في الدنيا أخوين يتعايشان ضمن نطاق واحد وعمل واحد، ولكن كان أحدهما من أهل الجنّة، بينما الآخر من أهل النار.

فأمّـا الـذي هو مـن أهل الجنّـة، فإنه بمجـرّد أن يموت، بل وقبـل أن يموت، تُبـشّره الملائكة بالجنّة، وربما يـرى الأنبياء ويرى الصدّيقـين، ويرى النبيّ الأعظـم ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام فيبشرونـه بالجنّة. ولكن كيف يراهم؟. وكيف تسـتقبله الملائكة؟. وكيف تُبشّره بمثواه السعيد الخالد؟.

لا نعرف عن ذلك العالم الشيء الكثير.

وكثـيرًا ما حـدث أن بعض المؤمنـين -قبيل وفاتهـم، وعند حالة الاحتضار- كانوا يسـلّمون عـلى النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام وعلى ملائكة الرحمة عليهم السلام.

وعـلى عكـس هـؤلاء، هنـاك الأشرار الذين يـرون ملائكة غلاظًـا شـدادًا، حتـى قبـل أن يموتوا. فـيرون من الملائكـة الذين

(١) سورة الحشر، آية: ٢٠.

يحملون سياطًا من نار ويأمرونهم بإخراج أنفسهم، ثم يلعنونهم ويعذّبونهم.

هذا في البداية، ثم في القبر، يرونه إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران. وكذلك الأمر ينساق إلى يوم القيامة، حيث ينطلق المؤمن تحت راية الحمد، فينظر إلى ذلك الحشر الأكبر وهو في راحة بال مطلقة، إذ تُبشّره الملائكة بالجنّة، ويرى مقامه فيها.

» كثير من المؤمنين قبيل وفاتهم، وعند حالة الاحتضار كانوا يسلّمون على النبيّ ﷺ والأئمة وعلى ملائكة الرحمة عليهم السلام..

وعلى الضفة الأخرى، يعيش من يناقضه في يوم القيامة، فترى العرق يلجم أهل المحشر، وأحسنهم حالًا من يملك موضع قدميه، والوضع كما يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[1].

فذاك يذهب إلى الجنّة ذات النعيم المطلق ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي بعيدة عن كلّ أشكال المنغصات، حتى يصبح ملِكًا مطلق الإرادة في مملكته التي قد يستحيل تخيّل آفاقها وأبعادها وإمكاناتها.

أمّا ذلك الآخر، فيساق إلى الجحيم ويُدفع في توابيت مغلقة وأعمدة موصدة وظلام ولعنة وعذاب.

فإذا تصوّرنا هذه المسافة –ونحن في الدنيا– وعرفنا أننا

(١) سورة الحج، آية: ١-٢.

أمام اختيار صعب جدًّا، إن ربحنا؛ ربحنا كلّ شيء، وإن خسرناه؛ خسرنا كلّ شيء. إن فهمنا هذا الاختيار الصعب، أصبح كلّ واحد منّا متكامل الشخصيّة، لأنه سيشعر أنه قادر على اتخاذ القرار العظيم ذا النتائج الهائلة. وإذ ذاك سيستطيل على حقائق الكون كلّها، أي أنه لن يأبه بعد ذلك بما قد يخسر من متاع الدنيا، وبما قد يواجه من المواقف الصعبة، لن يأبه بها أبدًا. وهذه الحقيقة العظيمة هي التي نستفيدها من الآية المباركة.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ إشارة إلى ما يطفح على بشرة الوجه من أثر بسبب خبر سار أو سيّئ.

ثم إن هذا الخيار الصعب الذي يواجه الإنسان وذلك التميز العظيم بين الجنّة والنار، حيث ابن آدم قد يكون ضيفًا للرحمن في الجنّة، أو يحشر إلى الجحيم، في سجن قد يكون أبديًّا؛ إنه يجعلنا نتنبّه إلى مدى دور الانتخاب الصعب في مصير البشر الذي تسجل عليه كل أفعاله وحتى نواياه، مهما كان حجمها، مسجّلة عليه، مما يدعوه إلى مزيد من الحذر، و قد صوّر لنا القرآن مشهدًا مختصرًا عن عسر الحساب في يوم الجزاء، حيث قال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

» في شخصيّة ابن آدم بُعدين: بُعد النار، وبُعد النور، وعمل الإنسان هو الذي يغلب بُعدًا على آخر.

ثم إذا كان الإنسان في الدنيا من أهل الصلاح والإصلاح، وأهل الخير والإحسان؛ فإن نيته تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى هذا المسار؛ بمعنى أنه لو عاش ألف عام،

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

لعاش بهذه الطريقة، وإنما يخلد أهل الجنّة في الجنّة لنيّاتهم الحسنة، كما يخلد أهل النار في النار لنيّاتهم السيّئة أيضًا.

ومن طبع الإنسان أنه تتجذّر نواياه وعاداته بمرور الوقت؛ فهو يكبر، وتكبر معه أعماله ونواياه، حتى تتحول إلى طبيعة ثانوية عنده حتى أن الشيطان ليأتي للإنسان الذي قضى عمره في المعاصي، وقد بلغ من عمره الأربعين عامًا، فيربت على كتفه ويخاطبه قائلًا: «مرحبًا بوجه لا يفلح أبدًا»، وهذا نوع تعبير عن مدى ارتياح الشيطان من تمكّنه من خداع مثل هذا الشخص، إضافة إلى إلقائه اليأس والقنوط من رحمة الله في روعه.

وليكن في الحسبان أن في شخصيّة ابن آدم بُعدين: بُعد النار، وبُعد النور، وعمل الإنسان هو الذي يغلب بُعدًا على آخر. فإذا غلب جانب النور، فهو يلحق بالنور، حيث الجنان والرضوان والنعيم. أمّا إذا غلب جانب النار، فلا شك في التحاقه بالنار، حيث العذاب والغضب.

هذه حقيقة نقتبسها من الآية القائلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ فكأنهم امتلكوا الجنّة واشتروها بأعمالهم وأقوالهم ونواياهم. أمّا العذاب الأليم، فهو عذاب للمسيء، وعبارة عن شيء خارجي يلحق به.

ولعلّ الرواية المأثورة عن النبيّ ﷺ تشير إلى هذا المنحى، حيث قال: «**لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قِيعَاناً وَرَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةً يَبْنُونَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَرُبَّمَا أَمْسَكُوا فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا لَكُمْ قَدْ أَمْسَكْتُمْ؟**.

قَالُوا: حَتَّى تَجِيئَنَا النَّفَقَةُ.

فَقُلْتُ: وَمَا نَفَقَتُكُمْ؟.

قَالُوا: قَوْلُ الْمُؤْمِنِ: سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. فَإِذَا قَالَ بَنَيْنَا، وَإِذَا سَكَتَ أَمْسَكْنَا»[1].

فحين يقول الإنسان: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ تزرع له -على الفور- شجرة في الجنّة، ولعلّ حجم هذه الشجرة يعادل مسيرة ثلاثين عامًا. وبالعكس، حينما ينظر الرجل نظرة خائنة إلى امرأة لا تحل له -مثلًا-، أو تنظر الفتاة نظرة مريبة إلى شاب لا يجوز لها النظر إليها -مثلًا-، فإن هذه النظرة المحرّمة تسجّل عليهما، وقد ينسيانها، ولكنّها تبقى مسجّلة في كتابهما اللذين يفتحانه في يوم القيامة...

وهكذا هو الشأن في سائر المعاصي، ولا سيّما الكبيرة منها، وهي التي ينبغي للإنسان أن يعيد حساباته جراء خطورتها وعظيم شأنها.

ومن الناس من يعاني مرض استصغار السيّئات، ويغفل عمّن يعصي في الحقيقة، وهو الله عزّ وجلّ. فيتحوّل هذا الاستصغار للسيّئات ذنبًا أكبر من السيّئة نفسها.

كذلك هناك من يستصغر الحسنات، فلا يفعلها، بيد أن الإنسان إذا عرف قيمته عند الله تعالى -كأكرم من خلق- ودور قراراته الصعبة، سيكتشف أن أمامه آفاقًا واسعة لتحقيق الفلاح لنفسه في دار الدنيا ودار الآخرة.

ثم إن رحمة الله قد وسعت كلّ شيء، ولكن المؤسف في الأمر هو أن بعض الناس يستغلّون هذه الرحمة فإذا بهم يستصغرون

(١) وسائل الشيعة، ج٧، ص١٨٨.

الذنـوب ويسـوّفون التوبـة. فنراهم بـدل توجّههـم إلى الله وإتيان الحسـنات وترك السـيّئات، ينغمسـون في المسـاوئ كلّـما طال بهم الأمر، معتمدين على غفران الله تبارك وتعالى.

بلى؛ إنّ من المؤكّد كون الله غفوراً رحيماً، وكونه يدعو عباده للتوبة، ولكن ما هي الضمانة للعبد المستصغِر لذنبه، المسوِّف لتوبته، في أن تستمر حياته حتى أن يُوفَّق للتوبة؟.

إنّ المشكلة الكبرى تتجسّد في تحوّل نيّة الإنسان السيّئة إلى عمـل –حيث إن النوايا الخبيثة تُحـصى على ابن آدم– فإن لم يعمل بها غُفرت له، ولكن النية السـيئة عادة ما تظهر على فلتات لسـانه أو بعـض ممارسـاته، حتى أنَّ علـم النفس الحديث وضـع بابًا في اكتشاف خفايا المرضى النفسيين عبر فلتات اللسان؛ أي الكلمات التـي يُطلقهـا المرضى من لا وعيهم، مما يكشـف طبيعة اتجاهاتهم النفسيّة.

والعكـس صحيـح أيضًا، فإن مـن يضمر نيّة حسـنة يُجازى عليهـا، وهـي لا تُكلّفـه عناءً يذكـر، ولعلّه يصـل إلى تحقيقها. وإن كثيرًا من الناس ينوون نوايا حسـنة للرغبـة في القيام بعمل صالح، فيهيـئ الرب تعالى لهم أسـباب ذلك العمل الصالـح، فيقومون به ويحصلون على حسن الثواب.

وقد روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**إِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ وَكَّلَ اللهُ بِـهِ مَلَـكاً يَكْتُـبُ لَهُ فِي سُـقْمِهِ مَا كَانَ يَعْمَلُ لَـهُ مِنَ الخَيْرِ فِي صِحَّتِهِ حَتَّى يَرْفَعَهُ اللهُ وَيَقْبِضَهُ**»[1].

(١) وسائل الشيعة، ج٢، ص٣٩٩.

لقد وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يعملون صالحات بأن يُخلّدهم في نعيم الجنان. وحاشا له أن يُخلِف وعده، فقوله الصدق ووعده الحقّ. ولا سبب في البين أعلى من إرادة الربّ المتعال يجعله لا يفي بوعده.

والملفت للنظر أن الله تعالى حين تحدّث في الآيات السابقة من هذه السورة المباركة عن عذاب المستهزئين والمستكبرين لم يصفه بالخلود، في حين أنه تعالى في الآية التاسعة وصف دخول المؤمنين وبقاءهم في الجنان بقوله الكريم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. وهذا يدلنا على أن رحمة الله تسبق غضبه.

٢- ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

من الرائع أن نتأمّل في هذه الكلمة، وهي الأخيرة من الآية التاسعة من سورة لقمان. وهي تعني -فيما تعني- أن الله تعالى الذي وعد أهل الجنّة بالخلود في الجنّات، عزيز، وهو قوي مبسوطة يداه في ممارسة قوته المطلقة وفرض إرادته.

وحكيم؛ بمعنى أن إدخاله شخصًا في الجنّة وتخليده فيها تابع لحكمته البالغة التي تتجلى في قيم الحق والعدل والرحمة، وهي أساس إرادة الربّ الظاهرة فوق عباده؛ ولذلك فإنهم يستحقّون الخلود في الجنان لإيمانهم بربهم وطاعتهم له.

والآيات التالية لهذه الآية تؤكّد على عزّة الله وحكمته والعديد من صفاته وأسمائه الحسنى التي تتجلّى في الكون المحيط بنا.

» بصائر وأحكام

١ – لأن الدنيا دار فتنة فإن فيها من نعيم الجنة ما تُذكِّرنا بها، ومن عـذاب الجحيم ما يُحذرنـا منها ولكن الدنيا مجـرد تذكرة بينما الآخـرة هي الحق، وهكذا التفاضل بـين الناس فيها لا يقاس بها في الآخرة.

٢ – من عظيم ابتلاء البشر أن انتخابه صعب وعظيم وحسابه عسير فحتى نيته محسوبة عليه إن خيرًا أو شرًّا؟.

٣– والنية تتحوّل إلى عمل، وكلما طال العمر تجذّرت، وعلى الإنسان أن يتحذر من نية السوء فإنها قد تتحول إلى طبع.

» من الناس من يعاني مـرض اسـتصغار السـيّئات، ويغفـل عمّن يعصي. فيتحوّل هـذا الاسـتصغار للسـيّئات ذنبًـا أكبر من السيّئة نفسها.

» معرفة اللّه أسمى البصائر

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾

***

١ - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾.

من الحديث

* عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ الله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾[1]؟.

فَقَالَ عليه السلام: **هِيَ مَحْبُوكَةٌ إِلَى الْأَرْضِ** -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-.

فَقُلْتُ: كَيْفَ تَكُونُ مَحْبُوكَةً إِلَى الْأَرْضِ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؟[2].

(١) سورة الذاريات، آية: ٧.
(٢) سورة الرعد، آية: ٢.

فَقَالَ عليه السلام: **سُبْحَانَ الله أَلَيْسَ يَقُولُ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾**.

قُلْتُ: بَلَى!.

فَقَالَ عليه السلام: **فَثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا**»[1].

* قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ، خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ..**»[2].

* قال الإمام علي عليه السلام وهو يذكر خلق السماوات: «**جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا، وَلَا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا..**»[3].

تفصيل القول:

بصائر الوحي ذات صورة هرمية، في قمة هرمها معرفة الله عزّ وجلّ. أمّا قاعدتها فتغور في كلّ المعارف والعلوم، لأن كل شيء موجود آيةٌ لله سبحانه وتعالى.

وأمّا ما بين قمّة الهرم والقاعدة؛ فهناك السنن الإلهيّة والأحكام الشرعيّة والقيم المثلى وغيرها. ولذلك؛ فإنه كلّما ازداد ابن آدم معرفة بربّه ويقيناً بأسمائه الحسنى، ازدادت معرفته بكلّ الحقائق الشرعية وبكل البصائر القرآنية.

ومن هذه الزاوية نجد القرآن المجيد كلّما حدّثنا عن حقيقة -أنّى كانت، فيما يتصل بالدنيا، أو بالآخرة، أو بالأحكام الشرعية، أو

(١) تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٨.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٨٢.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١.

بسنن وسيرة الأمم السابقة، أو بأي جانب من جوانب الحياة- نجده لا يلبث أن يُذكِّرنا بالله سبحانه وتعالى، لأن معرفته مع كلّ معرفة، وتزيدها جميعًا عمقًا واتساعًا، فضلًا عن كونها أساس كلّ معرفة.

وفي الآيات التي سبق وأن تأمّلنا في بعض أبعادها، رأينا أن الله تعالى قد حدّثنا عن نمطين من الناس:

- نمط هم الذين يشترون لهو الحديث، فلهؤلاء عذاب أليم ومهين.
- ونمط هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ولهؤلاء نعيم مقيم وخالد.

شبهات شيطانية

ولعلّ شبهات شيطانية تثار في البين مفادها: كيف يعيد الله الإنسان؟ وكيف يبعث هذه الأشلاء المتناثرة؟ وكيف يعيد لها الحياة وقد ذرتها الرياح في كلّ صقع وبقعة؟.

هنا يُذكِّر الله عزّ اسمه بقدرته وعزّته وحكمته. ومن عزّته؛ القدرة على إعادة الناس، وهو القائل في سورة يس المباركة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

فالله الجبار الذي لا من شيء أوجده، إذ خلقه من نطفة ثم حوّلها عبر أطوار إلى إنسان سوي، هل يمكن أن يُسأل عن كيفيّة إحيائه، للعظام وهي رميم!!.

(١) سورة يس، آية: ٧٨-٧٩.

كلا؛ إن كل الحقائـق تؤكّـد أن قدرة الله تعالى غـير متناهية، وأنـه كلما تجلَّـت هذه الحقيقـة للبـشر ازداد يقينًا بالآخـرة، وازداد اطمئنانًا بأنه سيُبعث لا محالة.

فـالله بعزّتـه -التي هـي مظهر قوّتـه المطلقة- يعيـد الناس، وبحكمتـه يجازيهـم؛ فمن عمل خيرًا دخل الجنّـة، ووجد فيها نعيمًا مقيمًا. ومن عمل سيّئًا جزي بعذاب مهين أليم.

وحيـث تُذكر أسـماء الله الحسـنى في القرآن، فإنـه يليها آياته سـبحانه وتعالى في خلقـه، كتذكير بضرورة التفكر فيها سـعيًا وراء اليقين بتلك الأسماء.

وفي الآيـة التاسـعة من سـورة لقـمان نقـرأ قوله عـزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ليليـه قولـه سـبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

وبمجـرّد أن تنظر إلى السـماوات وما فيها مـن آيات القدرة، وهـذه الكـرات التـي تسـبح كلّ واحـدة منهـا في فلـك ومنظومة معلومة بمسـافات دقيقة فيما بينها؛ تجد نفسك تتساءل عمّن سيّرها وحفظها، بلا عمد كما تبدو للعيان.

قدرةُ الربّ وتدبير الخلائق

وقد ورد عن الإمام علي بن موسـى الرضا عليه السلام في تفسـير هذه الآية، قال: **فَثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا**»[1].

واليـوم؛ اكتشـف العلـم الحديـث حقيقـة الجاذبيـة التي لو

(١) تفسير القمي ،ج٢، ص٣٢٨.

تعمّق الإنسـان فيها، وعرف كيف أن الله سبحانه ربط بين الأجرام بواسـطتها وضبط مواقعها واتجاهات حركتهـا؛ لحار في آفاق قدرة الله وعزّته.

وهنا يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولا يقول: السـماء، لوجود أكثر من سـماء؛ فهي إمّا سماوات محيطة بأرضنا، أو هي سماوات سـبع باعتبار الأقاليم السبع في كوكبنا والتي تحيط بها سماواتنا، حيث إن لكلّ إقليم سماءه.

وأمّا السماوات المترامية في الفضاء، فمنها سماؤنا المطبقة على المجرات في كوننا المعروف، ولا ريب في أن هناك سماوات وطبقات أخرى. وهذه العظمة في الخلقة إشارة إلى منع السائل أن يسأل عن مـكان الجنّة أو مـكان النار؛ لأن قدرة الله أكبر من أن يُعجزها خلق كرات جديدة، بل كرات مستحدثة.

وعلى أية حال، هناك سـماوات سـبع. ثم إنه سبحانه يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي أن الأعمـدة موجـودة، ولكـن الإنسـان خُلـق عاجـزًا عن رؤيتها. وهـذه الأعمدة لها من القوّة ما تسـتطيع بـه المحافظـة عـلى حركـة ومواقع النجـوم، رغـم ثقلهـا. حتى إن شمسـنا -كواحدة من الشـموس الكثيرة جدًّا- تشـبه حبّة رمل في صحـراء مترامية، ولا يحافظ عليها خلال حركتها إلَّا قدرة الله التي أحاطت بكلّ شيء، وقد يكون مصداق هذه القدرة أعمدة الجاذبيّة وقوانينها، أو أعمدة أخرى لم يكتشفها البشر بعد.

وحيـث إن هذه السـماوات عبـارة عن موجـودات مخلوقة، فهـي بحاجة إلى ركن وثيق تعتمد عليه لضمان بقائها، وليس الركن الوثيـق هذا سـوى قدرة الله تعـالى. مما يعني بالتأكيـد أن الله الخالق

غني عن الحاجة لغيره، فهو قائم بحد ذاته عزّ وجلّ.

والـربّ المطلـق القـدرة والعـزّة والجـبروت وجّـه أنظارنـا وعقولنا إلى ميزة من ميزات السماوات، ثم إلى الجبال، ثم إلى الأرض المنبسطة، وعليها الدواب المبثوثة –من قِبله– في كلّ ناحية. ثم لفت انتباهنا إلى ما في الأرض من نباتات.

» إن الله حدّثنـا عن نمطين من الناس: نمط يشترون لهو الحديث، فلهـؤلاء عـذاب أليم.ونمـط يعملـون الصالحـات، ولهؤلاء نعيم مقيم وخالد..

مدارج الرؤية

وهـذا التنسـيق في رسـم الصـورة أمـام عقـل الإنسـان وإدراكه الحسّي، إشارة واضحة إلى أن الإنسان ينظـر –وهكذا ينبغـي أن يكون– إلى السـماء، باعتبارها رمـزًا للسـموّ والتسـامي، وهـي المحيطـة به، ثـم ينتقل بنظـره إلى أضخـم شيء يصادفـه، وهـو الجبـال، ومـن ثـم إلى الأرض مـن تحته. وحينـما ينظـر إلى الأرض، لا يثير اهتمامه –بالدرجة الأولى– التراب، لأن الإنسان عادةً لا ينظر إلى ما تحته حينـما ينظر بحالة أفقيّة، وإنما يرى أمـام عينيه الموجودات المتحرّكة الحيّة، ونقصد به الحيوانات ومن ثم النباتات. وهكذا يبيّن لنا في آية واحـدة الصورة المتكاملة بكافة أبعادها: السـماء والجبال والأرض وما فيها من حيوان ونبات.

ممـا يعنـي ضرورة أن يهتـم المـرء بتحويـل فـترة وجـوده في الأرض إلى مدرسـة مفيـدة. ينظر ويفكّر فيها ويتدبّـر حقائقها أينما ذهـب واتجـه؛ لأن العبرة تتأتى بالفكرة، لا سـيّما وأن الله سـبحانه وتعـالى قـد أضفى من جمالـه وجلاله على هذه الموجـودات التي لا يجد المرء مناصًا من النظر إليها ومواجهتها في كلّ لحظة من لحظات حياته. وهذا الجمال والجلال من شأنهما أن يزيدا المرء هيامًا وتعلّقًا،

لأنها من إبداعات الربّ العزيز الحكيم.

وعلى هذا الأساس، يذكّرنا الله تعالى آمرًا بأن لا نعبد الشمس أو القمر وغيرهما من المخلوقات، وأن نعبد الله الخالق لكلّ الأشياء. كما أنه عزّ اسمه يُذكّرنا بلزوم أن تكون نظرتنا لهذه المخلوقات -القائمة به بكل وجودها- نظرة عبوديّة؛ أي أن نستعين بنظرتنا إلى الأشياء للاهتداء ثم للإيمان واليقين بعظمة خالق هذا العالم ومدبّره وإلهه.

فإذا فعلنا ذلك، فإننا نظل في تكامل علمي وروحي، باعتبار التواصل مع الرب تعالى يزيد الإنسان تكاملًا على جميع الأصعدة؛ روحًا وعلمًا وإرادةً. فلا يقتصر تكامله على الجانب العلمي فقط، على عكس أولئك العلماء الذين هم أشبه ما يكونون بالجهال، لأن علمهم لا يؤثر فيهم، وإنما المقصود بالعلم، هو علم الحق وعلم العرفان، علم معرفة الله سبحانه وتعالى. علم يتحوّل إلى عمل صالح وموقف صائب وحكمة بالغة وتزكية للنفس وتحمل مسؤولية.

٢- ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾.

تُرى ماذا تعني كلمة الإلقاء هنا؟.

ومن أين ألقاها الله؟.

وأين كانت الجبال حتى يلقيها الربّ المتعال؟.

ترى هل كانت الأرض بمثابة بحر، وكانت فيها أمواج عاتية، فتجمّدت وأصبحت جبالًا؟. أم أن الأرض وضعت فيها الجبال منذ أن انفصلت عن الشمس؟. أم أن الله تعالى جعل فيها

الجبال منذ أن خلقها كيانًا مستقلًّا؟.

هنا نحتاج إلى تأمّل..

فالجبال وصفها الخالق بأنها راسيات، فمع كونها شامخات، إلَّا أنها راسيات؛ أي أنها كما المرساة التي يستخدمها أصحاب السفن لإيقاف سفنهم في عرض البحر أو عند المرافئ.

وصفة الرسو هنا جاءت، لأن الحديث عن استقرار الأرض، ولا يحصل الاستقرار إلَّا بوجود مشدٍّ ومرساة.

ونحن حين نرى الجبال بما فيها من شموخ وارتفاع، إلَّا أن شموخها هو القسم الظاهر من حقيقتها، لأن هذه الجبال متصلة أساسًا بصخور متشابكة فيما بينها، لتحافظ على تماسك الأرض.

وهذه الأرض يفترض لها أن تكون قويّة الأسس، لأنها خُلقت لنعيش عليها، وهي التربة الممهدة لحياتنا. ولو كانت الأرض راخية مثل الرمال المتحرّكة، لما استقرّ الإنسان عليها. ولو كانت عكس ذلك؛ أي كانت جُرمًا صخريًّا صلدًا، كما الحال في بعض الكرات السماويّة، أو كما الجبال الصم الصياخيد، لاستحالت الحياة عليها أيضًا. وإنما الأرض جمعت كلّ هذه الأحوال؛ فهي تربة في ظاهرها، ومن ثم صخور راسية عليها، وهي قويّة جدًّا في العمق. وهذا خلق الله في كلّ شيء، بما في ذلك جسم الإنسان، حيث العظام القويّة في عمقه، في حين أن البشرة اللينة في سطحه، ثم طبقه اللحم التي توازن بين القوّة والليونة، فيستطيع الإنسان مواصلة العيش.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ لماذا؟ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لكيلا

تتحرّك وتهتز بشدة فلا يتسنّى للبشر العيش عليها. ولكن لا يعني ذلك أنها لا تتحرك أصلًا، وإنما تتحرك بانسيابية. قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

وهكذا جُعلت حركتها ضمن توازن دقيق، بل هو الغاية في الدقّة، سواء حركتها حول نفسها، أو حول الشمس، أو ضمن مسار المجرة. ولهذا أصبحت كما المهد للطفل، حتى أن القدماء كانوا يتصوّرون أن الشمس هي التي تتحرّك حول الأرض، لما وجدوا في هذه الأخيرة من استقرار وتوازن. وهذا عين الرحمة الإلهية وحبّه لخلقه، مما يفرض على الإنسان مضاعفة اهتمامه بالتأمل والتفكّر في فعل خالقه، وما ينبغي أن يُبدي هو من عبودية لخالقه المتعال.

نعم، إنّ الإنسان محجوب بجهله وغفلته، وقد يكون محجوبًا بأفعاله القبيحة. ومن مسؤوليته أن يبحث عن سبل إزاحة الحجب عن نفسه.

دور البشر في الهداية

انظروا إلى قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٢).

فهنا تكرّر ضمير ﴿هُمْ﴾ بالإضافة إلى تعبير آخر نجده في كلمة ﴿يُوقِنُونَ﴾ مع مجيء كلمة اليقين في هيئة الفعل، فكأنه فعل الإنسان، بما يدل على أن مسؤولية الهدى واليقين والعرفان

(١) سورة النمل، آية: ٨٨.
(٢) سورة لقمان، آية: ٤.

والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، هي مسؤولية الإنسان لنفسه بعد أن يتفضّل عليه ربّه بخلق الأشياء وباعطائه موهبة العقل، وبما أرسل إليه من الأنبياء ونصب له من الأئمة صلوات الله عليهم، وهذا هو الابتلاء. حقًّا حيث يجب على البشر اختراق الحجب والوصول إلى نور الهداية: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

فهم وهم وحدهم من يوقنون بالآخرة لينقذوا أنفسهم من الجهل والعذاب المهين والأليم.

وهذا يدعونا إلى ضرورة تحمّل الأمانة التي عُرضت على سائر المخلوقات، فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقنَ منها، وقبلناها من قبلُ، وتعهَّدنا بحملها. هكذا علينا أن نرتفع إلى مستوى الشهامة في أداء مسؤوليتنا، حتى نصل إلى العرفان الحقيقي.

أمّا ما في الدنيا، فإنما هو في الحقيقة متاع زائل، فلا يكن أمرنا علينا غُمَّة، فنطغى بما توصّلنا إليه من توافه الأمور. وإنما علينا أن نجعل منتهى غاياتنا معرفة الله سبحانه وتعالى، ومن ثم إطاعته إطاعة مخلصة، ثم اكتشاف أنظمة الحياة وسنن الله فيها للاستفادة منها في حياتنا حسبما رسمها الخالق.

٣- ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾.

﴿بَثَّ﴾ بمعنى نشر، حيث كانت مجتمعة في مكان ما، فنشرها في الأرض، بما فيها المواقع التي لا نتخيّل وجود كائنات حيّة. حتى التربة التي ندوسها بأقدامنا، فيها من المواد الحيّة والحيويّة التي لولاها لكانت تربة ميتة غير قابلة للزرع.

وعبارة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾؛ أي كلّ ما يمكن تصوّره، حتى

قيل في علم الأحياء: إن هناك ثلاثين مليون نوع من الكائنات الحيّة تعيش على الأرض وفيها، وليس الإنسان إلَّا نوعًا واحدًا منها.

فترانا نقصد البحار فنمتلئ دهشة من عديد الحيوانات المتنوّعة والغريبة. ونقصد الأرض وغاباتها وصحاريها وجبالها، لنرى أنها مكتظّة بأنواع الحيوانات والدواب والزواحف والطيور، وهي -الأنواع- حلقات يتصل بعضها ببعض بإحكام متين لتُكمل دورة البقاء.

٤- ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

» إنّ الإنسان محجوب بجهله وغفلته، وقد يكون محجوبًا بأفعاله القبيحة. ومن مسؤوليته أن يبحث عن سبل إزاحة الحجب عن نفسه.

اختلف التعبير هنا، تبعًا لقواعد الأدب والإبداع الأدبي الخاص بالقرآن المجيد، طردًا للملل، وزيادة في التشويق، وجذبًا للمتابعة، ثم زيادة في الوعي؛ بأن هذه النباتات التي تخرج من الأرض، تُسقى من السماء، حيث يسوق الله سبحانه وتعالى بعض الخلائق إلى بعضها ويُسخِّرها جميعًا لنبات الأرض.

فأشعّة الشمس لها دور، ومياه البحر تتبخّر، والرياح تنقل الأبخرة لتتكثّف في السماء، والجاذبية تهبط بالمياه إلى الأرض، حتى تُوصلها إلى مواقع معيّنة، لعلّها تبعد عن مصادر المياه مسافات شاسعة لتُسقى بمياه الأمطار.

وبعض هذه المياه الهاطلة تتجمّد فوق الجبال، لتذوب في فصل الربيع أو الصيف. مما يشير إلى الحكمة الربّانية في سقي الأرض والنظم العجيب في الإرواء.

وأصبح التعبير هنا جامعًا بكلمة ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ إشارة إلى قدرة

الله الهائلة في تسخير الأنظمة الكثيرة لتيسير هذه العملية الحكيمة. إضافة إلى احتمال أن الحديث سيكون عن الحالة الزوجية في النباتات ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي: شيئين متكاملين، سواء كانا حيوانين أو نباتين. كيف؟.

لأنّ الأرض تتكامل مع السماء، والرياح تتكامل مع المياه، والأرض تتكامل مع الماء، وبالتالي هناك نوع باهر من التنسيق بين شيئين يسخرهما الله تعالى لتحقيق هدف واحد.

حديث الكرامة

٥- ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾.

يقول القرآن المجيد: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾ كما يقول: ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾. بمعنى أن في كلّ دابّة زوجين، والبشر زوجان، وهكذا النبات. ولزوجية الأحياء والنباتات دلالات عديدة، منها أن حاجة الزوج إلى الزوج الآخر دليل على أن هذا الزوج -المفرد- ليس غنيًّا بذاته، بل هو محتاج. وهو دليل من الأدلّة الكثيرة على أن الله سبحانه وتعالى -الخالق- غني، لأنه لا يحتاج إلى آخر، وليس له كفء، في حين أن كلّ شيء في الحياة له زوج يتبادل الحاجة معه، نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا.

وفي البين ملاحظة هامّة أخرى في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، وهي أن معنى الكرامة هنا على درجة قصوى من الأهمية، إذ لو كان أحد الزوجين محتاجًا للآخر، دون حاجة الآخر إليه، أو كان أحدهما يميل إلى الآخر، دون أن يميل الآخر إليه، لكانت الإهانة تحل بالطرف الأوّل، لحاجته إلى الثاني، لكن الله

سبحانه وتعالى خلق في الذكر رغبة باتجاه الأنثى، كما خلق فيها رغبة فيه، فكانا معًا، زوجًا كريمًا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلّ شيء في هذه الأرض، إذ هناك حاجة متبادلة، وهي التي تحافظ على كرامة الأطراف كلّها، باعتبار أن كلّ طرف لا يحتاج إلى الآخر إلّا بنسبة حاجة الآخر إليه، وهنا يحتفظ بالكرامة.

والحديث عن الكرامة حديث غريب في القرآن الحكيم؛ لأن القرآن يرشدنا إلى أن مع الخلقة كانت الكرامة من الله الذي جعل الأشياء في مستوًى من العيش ومن النعم، وفي مستوى من العطاء الذي يستشعرون فيه الكرامة، وهذه في الواقع لفتة قرآنية فذّة.

ولك أن تتصوّر شجرة في بيتك، ولك أن تفكّر لدى مشاهدتك لها في عديد نعم الله سبحانه وتعالى التي أسبغها على هذه الشجرة، ولتكن شجرة تفاح مثلًا، بجمالها وأناقتها وقوّتها وعطائها وإعطائها رزقها من مواد الأرض وأشعّة الشمس وماء السماء وعشرات الحاجات الأخرى.

وإنك قد تشاهد شجرة يانعة على مرتفع شاهق في جبل، فتجهل كلّ أسباب وجودها، لمعرفتك أنها قد نبتت وأينعت دون تدخل إنسان، وهي صامدة رغم ما تصادف من حرٍّ وبرد وجفاف وغير ذلك. وقد يتأتّى لك أن تكتشف أن طائرًا ما قد حمل في منقاره ذات مرّة بذرة فسقطت من فيه، حتى مرّ عليها زمن فأنبتت وأينعت شجرة، بعد أن رعتها سنن الرب في الطبيعة بإذنه تعالى.

إذن؛ فربّنا سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق كلّهم، من إنسان إلى حيوان وإلى نبات، وإلى أرض وقمر وشمس.. تفضل عليها من النعم وأسباب الوجود، ما جعلها به غنيَّةً، وهذه هي

الكرامة ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾.

ثم إنّ الله سبحانه وتعالى قد أراد لكرامة الإنسان أن تحفظ، وما أروع أن تحفظ هذه الكرامة ويكون للإنسان -المؤمن خصوصًا- دور فيها. وهكذا نفهم أن الله تعالى ينصر عباده المؤمنين حينما ينصرونه، وأنه لا يغيّر ما بقوم -يعيدهم إلى حيث الكرامة- حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

» بعض المياه الهاطلة تتجمّد فوق الجبال، لتذوب في فصل الربيع أو الصيف. مما يشير إلى الحكمة الربّانية في سقي الأرض والنظم العجيب في الإرواء.

ونكتة مهمة أخرى بهذا الصدد، تتمثّل في أن الحديث القرآني عادة ما يبدأ بصيغة الغائب، ثم ينتقل إلى الحاضر.

فمثلًا، يقول القرآن: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1]. فهو كلام عن غائب وهو حاضر. ولكن حينما نتحدّث عنه سبحانه فنتذكره، فكأنا حضرنا عنده في الواقع، فنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[2].

وفي هذه السورة، كان الحديث بمفردات الغائب: ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿بَثَّ﴾.. ثم قال: ﴿كُلِّ﴾ وهي مفردة تعبّر في الواقع عن الحضور، الحضور معك، والحديث معك. فقد يصادف أن يغفل المؤمن عن ذكر الله في البداية، أو يشوب فكره نوع اهتمام بغيره، ولكنّه حينما يذكر ربّه، فإنه يحضر عنده، ويكون جليسه.

وهذه الحقيقة تذكّرنا بقوله سبحانه وتعالى بخصوص النبيّ موسى عليه السلام: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[3].

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٢-٤.
(٢) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٣) سورة مريم، آية: ٥٢.

فهو كان بعيدًا، ولكنّه بلطف الله وكرامته اقترب واقترب حتى أصبح نجيًّا.

فالحكاية في البدء كانت مناداة ثم أصبحت مناجاة. والمناجاة إنما تكون بين اثنين قريبين من بعضهما، في حين أن المناداة بالعكس. وهذا في الواقع من الروح الأدبيّة الرفيعة للقرآن وعظمة آياته البليغة جدًّا.

ونحن إزاء هذه البلاغة السامية نتشرّف أن نبقى تلاميذ صغارًا للقرآن الكريم حتى نهاية أعمارنا. فكلما ازدادت معرفتنا بالقرآن، عرفنا المزيد عن إعجاز أدبه، ومدى عمق أغواره. مما يحملنا إلى البحث عمن يدلنا إلى معاني الذكر، فلا نجد إلا النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، الذين أُمرنا الله بالرجوع إليهم.

فلا ينبغي بحال من الأحوال الركون إلى الهوى ورأي الذات، والتفسير المتسرّع، وإبداء الآراء الجاهلة بحقيقة الآيات القرآنية المباركة.

» نفهم أن الله تعالى ينصر عباده المؤمنين حينما ينصرونه، وأنه لا يغيّر ما بقوم -يعيدهم إلى حيث الكرامة- حتى يغيّروا ما بأنفسهم...

» بصائر وأحكام

١- النظام المعرفي الإسلامي يُقَدَّم على قاعدة التوحيد، ويتوسع عبر فقه السنن الإلهية ومن ثم الأخلاق والأحكام والآداب، وهكذا يسمو المؤمن إلى درجة اليقين بالآخرة عبر معرفته بالله وأسمائه الحسنى ومنها الحكمة والعزة. وإنما بتحويل الحياة إلى مدرسة للعرفان، وبالنظر الأعمق إلى آيات الرب فيها؛ يشع نور معرفته على أفئدتنا بإذنه سبحانه.

٢- وهكذا كلما تجلت للإنسان من خلال النظر في آيات الله في خلقه قدرته الواسعة ازداد عرفانًا بالآخرة وأنه سبحانه بعزته يعيد الخلائق وبحكمته يجازيهم، فإما يثيبهم برحمته أو يعذبهم بعدله.

٣- الإنسان منهي عن اتِّباع هواه، وعليه اختراق حجب الضلال وتحمل أمانة العقل وتحدي ما يعترض سبيل هداه، ومعايشة آيات الرب في الخلائق.

» سبيل معرفة اللّٰه

﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

***

بعد ما اختصر القرآن الكريم في هذه السورة المباركة الكثير من آيات الله تعالى في آية واحدة؛ من السماء المبنيّة، إلى الأرض المدحوَّة، إلى الجبال الراسيات، والدواب المبثوثة، وحتى النباتات المختلفة، التي تعد كل واحدة منها دليلاً يهدي إلى خالقها ومدبرها. بعد ذلك، يُبين ربّنا عبر آية أخرى ما نستوحي منها من المعرفة الإلهية.

وليكن بالحسبان أن معرفة الله تعالى تختلف عن معرفة خلقه، وأن المنهج الذي يهدينا إلى آيات الله، يختلف المنهج الذي يهدينا إلى معرفة خلق الله عزّ اسمه؛ وهذا ما نُذكِّر به إن شاء الله.

بين خلق اللّٰه وصناعة البشر

يذكرنا ربّنا المتعال بأن خلق الله يختلف جذريًّا عن مصنوعات عباده، فهو أحسن الخالقين. أمّا ابن آدم؛ فإنه حينما يصنع شيئًا، فإنه

محتاج لمادّة أوّلية لصناعته، إضافة إلى أن صنعه صنعٌ ناقص. وأكبر دليل على ذلك حاجة صناعته إلى التطوير المستمر. لكن الله تبارك وتعالى حينما خلق الخلق، قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وخلقه خلقاً حسناً لا يعتوره نقصان، لأنه العالم المطلق بكلّ شيء. فلا يجد الناظر -الخبير- خللًا في مخلوقات الله ومنظوماتها وأنظمتها.

» إن معرفة الله تختلف عن معرفة خلقه، وأن المنهج الذي يهدينا إلى آيات الله، يختلف المنهج الذي يهدينا إلى معرفة خلق الله؛ وهذا ما نُذكّر به إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

ولعلّ بعض أشباه العلماء، حاولوا البحث عن ثغرات معيّنة في الخلقة، فحلا لهم أن يسمّوا هذا الجزء أو ذاك بالزائد، ولكنّهم ما إن تطوّروا بعلمهم شيئًا ما، حتى بان لهم خطأ رأيهم.

ومن ذلك، أنهم كانوا يظنّون خطلًا أن بعض العروق في صدر الإنسان كانت زائدة ولا وظيفة لها، فقالوا بأنها قد تكون من بقايا خلق الإنسان الأوّل الذي تطوّر بمرور الزمن. ولكن حينما اشتهرت جراحة القلب استفادوا من هذه العروق وعرفوا لكلّ منها وظيفته الخطيرة. وكأن الله تبارك وتعالى قد جعل بعض هذه العروق بمثابة قطع الغيار للاستفادة منها في بعض عمليات جراحة القلب.

إنّ خلقة الله تمتاز بالتوازن الفذ والدقّة المتناهية، حتى أنه عزّ اسمه قد وضع الجبال في مواضعها. ولو افترضنا أن الحضارة البشريّة توصّلت في وقت ما إلى القدرة على نقل الجبال، فنقلتها من

(١) سورة الملك، آية: ٣ - ٤.

مواضعها إلى أماكن أخرى، فلا ريب في أن الأرض ستتعرّض لما لا تحمد عقباه من الزلازل والقواصف والعواصف وغير ذلك. والدليل على ذلك، (ظاهرة أنينو) الراهنة، حيث عمدت البشريّة إلى الاستفادة بحدود اللّامعقول من غازات معيّنة، فتسبّبت خرقًا في الغلاف الواقي للأرض، فزادت الفيضانات والأعاصير، وحتى ارتفعت درجات حرارة الأرض، ولعلّ ذلك مما تسبّب بحدوث بعض الزلازل هنا وهناك.

بل إن حيوانًا من الحيوانات إذا انقرض أو تناقص عدده، فلا ريب في أنه سيؤدّي إلى فقدان حلقة من حلقات البقاء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى النباتات.

المنهج الصائب لمعرفة الرب

ولكن مع ذلك كلّه، حيث الآيات الربّانية مبثوثة في كلّ الوجود، وكلٌّ منها تدل على وحدانيته، ترانا بعيدين عن الله، وهو الأقرب إلينا من حبل الوريد. إنه قريب منّا أشد القرب، فيسمعنا، ويسمع تحاورنا ونجوانا، ولكننا لا نعرفه، أو لا نعير للتعرّف إليه أهميّة.

فكيف نتعرّف إليه؟. وكيف نقترب منه؟.

نستفيد من هذه الآية وآيات مباركات أخرى أن المنهج الذي نود الوصول عبره إلى معرفة ربّنا سبحانه وتعالى يختلف جذريًا عن أي منهج معرفي آخر.

إن عقد البشر العملية تتمثل في أنه يريد معرفة الرب بالتصوّر أو التشبيه؛ أي يريد التعرّف إليه كما يتعرف إلى بعض المخلوقات.

لا يمكن تصوّر ذات الرب، ولا شبيه لـه في خلقه حتى يُعرف به. وإنـما خلقـه يُعرفون به. ولو كان الله يُشـبه خلقه لما كانت بنا حاجة إليه، حيث نكتفي بشبيهه عنه، ولما كنّا نحتاج إلى التعرّف إليه، لأن لدينا ما يشبهه.

إنّ الأمـر ليـس كـما يحلـو لبعـض الجهلـة مـن الملحديـن والمشركـين والمتهرّبين من معرفة ربهم، وإنـما معرفتنا بالخلائق وما فيهـا من حاجـة ومحدوديّة ونقاط ضعف، جعلتنـا نبحث عن ربّ كان السبب في وجود هذه المخلوقات.

فلكـي نعـرف الله سـبحانه وتعالى، لابـدّ أن نعرفـه بطريقة مختلفة عن معرفة الخليقة. فإذا رأينا في الخلق نقصًا، لزمنا أن نقول: سـبحان الله؛ فهـو وحده الـذي لا نقص فيـه. وإذا أدركنـا أن لهذا المخلوق أو ذاك أجلًا، عرفنا أن ربّنا لا أجل له. وإذا كانت الخليقة مؤطرة بحدود الزمان والمكان، فإن الله سـبحانه لا حدّ له، لأنه هو الخالق لكلّ حدّ.

ونقـرأ لأمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصبـاح هذه المقطوعة الرائعة، حيث جاء فيها: «**يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَجَلَّ عَنْ مُلَاءَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ، يَا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ، وَبَعُدَ عَنْ لَحَظَاتِ الْعُيُونِ، وَعَلِمَ بِمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ**»[1].

كثـيرًا مـا نقرأ مثـل هذه الكلـمات الرائعـة عن أهـل البيت عليهم السلام، وهي تشـير بمجموعهـا إلى أن الله تعالى ليس كخلقه، وهو الـذي ليـس كمثلـه شيء؛ إذ كلّ شيء يُرى، وهو سـبحانه لا يُرى، فلا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهـو اللطيف الخبير، ولا

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

تدركـه حتى أوهـام القلوب، ولو كان يُدرَك بذاته لما عاد ربًّا، تعالى الله عمّا يصفون.

وحينما يقول القائل: «**سُبْحانَ الله**».. فذاك يعني أنه تباركت أسماؤه ليس كخلقه، وهو منزّه عن أن يكون له ندٌّ أو شبيه. وبالتالي يتوجّـب عـلى القائل والمعتقـد بذلك أن يُبعد عن قلبـه هذا الحاجز النفسي، وبالتالي يُبعد عن تفكيره الأسـلوب الخاطئ في معرفة الله؛ أي أسلوب تشبيه الله بخلقه.

» **إذا أدركنـا أن لهذا المخلوق أجلًا، عرفنا أن ربّنـا لا أجـل له. وإذا كانـت الخليقـة مؤطـرة بحدود الزمان والمـكان، فـإن الله لا حدّ له، لأنه هو الخالق لكلّ حدّ.**

وبالضبـط في اللحظة التي يخـترق القلب حاجز التشـبيه، ويعرف أن ربنا ليس كخلقه، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه سبوح قدوس، في تلك اللحظة يشرع القلب بمعرفة الرب عبر آياته.

وإن كلمـة «**اللهُ أَكْبَرُ**» تعني -أصل ما تعني- أنه أكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يجارى، وأكبر من أن يمكن تحدّيه، وليس أكبر من خلقه من حيث الحجم، إذ الله لا يُقـاس بطـول أو عرض. ومتى تم قياسـه حتى يمكن معرفة حجمه؟.

إنّ المنهـج القرآني في معرفة الله، هو المنهج الذي اسـتقى منه أهل البيت عليهم السلام أسـلوب عرضهم للناس كيفيّة معرفة الله. وهذا المنهج له كلماته المضيئة التي تسـمّى آيات، سـواء آيات الكتاب، أو آيات الخلق. وَرُوِيَ أَنَّهُ سُـئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَـيْنِ عليهما السلام عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْـزَلَ اللهُ تَعَـالَى:** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، **وَالآيَـاتِ مِـنْ سُـورَةِ**

(١) سورة الإخلاص، آية: ١.

الحَدِيدِ إِلَى قَوْلِـهِ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فَمَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»[١].

فـلا تحاول أيهـا الموحّد أن تعـرف الله بالطريقـة التي تعرف بها خلقه، لأن خلقه يُعرف بالحدوث وبالتجزُّؤ والتشـبيه والولادة والتوالـد، في حين لا يعرف الرب الا بالتقديس والتنزيه والتسبيح.

» إنّ المنهـج القرآني في معرفـة الله، هـو الذي اسـتقى منه أهل البيت أسلوب عرضهم للناس كيفيّة معرفته. له كلماته المضيئة تسـمّى آيات، سـواء آيات الكتاب أو آيات الخلق.

فـإذا رفع ابن آدم حاجز الجهل بالقرآن ومنهجه، ورفع حاجز التكبّر على جبروت الله، ولم يحاول التعرّف إلى ربّه بالأسـلوب ذاته الـذي يتعرّف به على الخلق.. في هذه الحالة يجد الله سـبحانه وتعـالى قريبًا منه، متجليًا في آيـات الخلقية؛ وقد شـهده قلبـه، وأضحى عقلـه وعاءً لحقائق الإيمان به.

ولـذا، نجـد المؤمن الصادق يتقـرّب إلى الله تعالى بالتسـبيح والتقديـس. وذلـك مصداق ما ورد عن الإمـام محمد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ حيـث قـال: «**إِنَّ اللهَ خِلْـوٌ مِـنْ خَلْقِـهِ، وَخَلْقُهُ خِلْـوٌ مِنْـهُ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْـمُ شَيْءٍ مَـا خَلَا الله تَعَالَى فَهُوَ مَخْلُـوقٌ، وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**»[٢].

وهذا هـو التمايز بين الخالق والمخلوق، حيـث انعدام الندية والتشابه.

أمّا الفلسـفة اليونانيّة القديمة التي تسـللت ثم تطوّرت عند بعض المسـلمين إلى علم الكلام، فهي قد حاولت تشـبيه الله بخلقه

(١) الأصول من الكافي، ج١، ص٩١.
(٢) الأصول من الكافي، ج١، ص٨٣.

سعيًا لاكتشـاف أبعاده. وهي قد وقعت في أخطاء كبيرة وقاتلة، إذ جهدت لإيجاد تسلسل بين الربّ والمربوب، لتصوّر الخلق كالخالق بمرتبة أنزل.

حتى أن من شـطحات بعض الفلسفات القديمة، تلك التي أشـارت إلى وجود مادة (عفنة) قديمة بقدم الله، فخلق منها الخلق. هـذا الخطـل ليس سـوى وليـد الابتعاد عـن منهـج الأنبياء عليهم السلام ووحـي السـماء في معرفة الرب. إذ لا يعـدو أن يكون خرافة عفنة، منها خرجت عبادة النور والظلمة.

أمّا منهج الوحي فقد جاء ليُزيل مثل هذه الخرافات، ويؤكد للمخلـوق بأنـه غـير الله، ويسـتحيل أن يرقى المخلـوق فيصل إلى مستوى الربّ، وإن من الخرافة تنزيل الربّ إلى حيث عَجْزُ المربوب وضعفُه وفناؤه.

وليكـن واضحًا أن من صميم الدين ووحي السـماء، القول بـأن مـا يقوم به ابـن آدم من خير، فهو مـن الله، لأنه هو الـذي علّمـه وأيّده وسـدّده وأعطـاه، فيما ابـن آدم كلّه ضعـف وعجز ومحدوديّة؛ ومن الضعـف والعجز -إذا ما أصرّ عليه- يتولّد الجهل وخبث السريرة، فتتولّد عنه المعصية والشرك والخرافة.

» لا تحاول أن تعرف الله بالطريقة التي نعرف بها خلقه، لأن خلقه يُعرف بالحـدوث وبالتجـزُّؤ والتشـبيه والولادة، في حـين لا يعـرف الرب الا بالتقديـس والتنزيه والتسبيح.

فتعالوا نتعرّف إلى أنفسنا على واقعها وإمكاناتها. وحيث نعرف حقيقة أنفسـنا، نعرف ربّنا، فنحس بعمق الحاجة إلى تأييده وعطائه.

» بصائر وأحكام

١- أنَّى كانت متانـة صناعة البشر فإنها بحاجة إلى التطوير، في حين أن خلق الله متكامل لا يُرى فيه تفاوت، فهذا خلق الله فماذا صنع الآخرون!.

٢- عندما نرفع عن بصائر أفئدتنا حجاب تشبيه الرب بخلقه نشرع في الاهتداء إليه عبر آياته، فأول معرفته سـبحانه تقديسه عن مجانسة خلقه.

» آفاق الحكمة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

***

١ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

من الحديث

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «**حَقًّا أَقُولُ لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْداً كَثِيرَ التَّفَكُّرِ، حَسَنَ الْيَقِينِ، أَحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ، وَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ..**»[1].

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْقَصِيرِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؟.

قَالَ عليه السلام: **أُوتِيَ مَعْرِفَةَ إِمَامِ زَمَانِهِ**»[2].

(١) بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٢٤.
(٢) بحار الأنوار، ج٢٤، ص٨٦.

تفصيل القول

لعلّ هذه الآية هي الآية المحور في سياق سورة لقمان، باعتبار أن لقمان كان متّسمًا بالحكمة، وقد سُمّيت هذه السورة المباركة باسمه، إضافة إلى ابتدائها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

ما هي الحكمة؟

فما هي الحكمة؟ وما هي العلاقة بينها وبين الشكر؟ وما هي آفاق الحكمة في حياتنا؟ هذه أسئلة تثار حينما نتدبّر في الآية الثانية عشر، حيث يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

وقبل البدء في تفصيل الموضوع، لا بدّ من تقديم ملاحظتين:

الأولى: أن الحكمة هي مستوى رفيع في تكامل الإنسان، تمامًا كما يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]. ولكي يصل الإنسان إلى ذلك المستوى الأسمى من حركته التكاملية، لا بدّ له من طي مسافات واسعة.

وهكذا؛ نجد السياق القرآني لهذه السورة المباركة حملنا من مرحلة إلى أخرى قبل بيان الحكمة. فمن مرحلة الإيمان إلى مرحلة الهدى، وإلى مرحلة الرحمة، وإلى مرحلة اليقين. وهكذا كأنه يأمرنا أن نطوي هذه المراحل حتى نبلغ الحكمة، ونتجاوز عقبات الشك

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

ولهو الحديث والاستهزاء، وغيرها.

الثانية: فهي تتصل باستنطاق القرآن المجيد، كما أمرنا أهل البيت عليهم السلام بذلك.

ويعني ذلك إثارة الأسئلة وتركيز الفكر سعيًا للوصول إلى الإجابة عنها؛ تمامًا كما طرحنا الأسئلة عن حقيقة الحكمة أو علاقتها بالشكر، أو كيف نستطيع جعل الحكمة معيارًا لحياتنا أو صبغةً لها. فلابدّ أن نطرح مثل هذه الأسئلة على القرآن، ونسعى جاهدين إلى الحصول على الأجوبة الشافية عبر التدبّر العميق في آيات الكتاب المجيد.

السؤال الأوّل: ما هي الحكمة؟.

يمكن القول: إنها ما يحكم به الإنسان في القضايا ويحدّد به موقفه من الحوادث. وبتعبير آخر: الأساس الذي يُبنى عليه الحكم الصائب والموقف السليم. فهي -بتعبير أدق- معيار الحكم.

فإذا أراد الإنسان أن يحكم، أو يختار رأيًا من بين الآراء، أو مذهبًا من بين المذاهب، على أن تكون أرضاها عند الله، وآمنها وأعدلها؛ فلابدّ له من توفير ميزان ومعيار يستند إليه، والحكمة هو ذلك الميزان والمعيار.

حقائق الحكمة

ولكن علينا -إذا اتضح ذلك- أن نعرف مصاديق هذه الحكمة ومفرداتها.

ألف: فيما يتصل بالعقائد؛ أي بما يتعلّق بالنظرة الشمولية

للكـون، هناك أسـئلة كثـيرة بخصـوص جوهرنا ومصيرنـا، عادةً مـا يطرحها الإنسـان في مرحلـة نضجـه وبلوغه أشـدّه، والإجابة الصحيحة والشافية لها نسمّيها بالعقائد، حيث النظرة الشمولية إلى الكون والحياة وإلى ذات الإنسان.

وفيما يتصل بهذه الأسـئلة، فإن الحكمة هي الكفيلة بالإجابة عنهـا، حيـث هي المنطق السـليم، وهي العقل والوجـدان والحجة البعيـدة عن العاطفـة والتقليد والضغوط الخارجيّـة، والبعيدة عن كلّ المؤثرات السـلبية، وهي في نهايـة المطاف تفكير ابن آدم بصورة مستقلّة وجدية لاكتشاف الحقائق.

باء: وفيما يرتبط بالصراعات الاجتماعية، فإنّ الحكمة تقضي إلى أن يعلو المرء على سلبيات المجتمع، فلا يتأثر بضغوطه وخلفياته، ليتسنى له أن يحكم بالعدل؛ لنفسه ولغيره.

والحكمـة في حياة الإنسـان نفسـه؛ فينظـر إلى مصالحه نظرة شـفافة، فـلا يفضلهـا عـلى مصالـح الآخريـن، وذلك عـبر نظرته الشمولية الواعية ليختار -فيما بعد- الطريق الأمثل لتحكيم الرأي الأمثـل والأفضل. فهـو لا يفضل مصلحته عـلى مصالح الآخرين ليـأكل أموالهـم بالباطل، مثـلًا، وإنما يختار الخير؛ أي ما ينفع نفسـه وينفـع الآخرين، وهـو على يقين بأنـه -لدى تحكيـم الحكمة- لن يتناقض بمصلحته ومصلحة غيره، العاجلة منها أو الآجلة.

غـير أن مـن لا يعي الحكمة في شيء، تـراه يتعجّل ويتكالب للحصـول عـلى أكثر وأكبر قدر ممكن من النفـع الذاتي، أو أنه يختار مصلحتـه العاجلة، ويفضلها على مصلحتـه الآجلة، التي تتمثّل في سلامة العاقبة، والتي يسمّيها الإمام عليّ عليه السلام في حديثه المعروف:

«كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلَاتٍ»[(١)].

جيم: والحكمة -كما هو واضح- تقف بالضد من الشهوات الباطلة والحرام، لأن هذه الأخيرة لا تمكّن الإنسان من أن يُقوّم ما يواجهه من أفكار وآراء ومواقف. فيما الحكمة تبلغ به إلى حيث يجد منهجًا سليمًا ليتخذ الموقف السليم من كلّ ما يواجهه في الحياة.

إنّ العقل -وهو وعاء الحكمة- بمثابة سكّان الإنسان والإرادة مثل الكوابح، وهو ينطلق بسرعة جهنميّة من دونها. ونقول: سرعة جهنّمية، لأن هذه السرعة توصله إلى حيث الجحيم والخسارة الأبديّة إن لم تكن هناك حكمة بالغة، وإن كثيرًا من الناس يهلكون لعدم استثمارهم عقولهم.

إذن؛ فالحكمة هي المعيار الصحيح للتقييم، وهذا المعيار متوفّر لدى الإنسان، وهو بمسيس الحاجة لبلورته وتفعيله والاعتماد عليه، في ظل تجنّب الشهوات والضغوط الخارجيّة، واللجوء إلى خالق هذه الحكمة ومؤتيها أهلها، وهو الله تبارك وتعالى.

» إذا أراد الإنسان أن يحكم، أو يختار رأيًا، أو مذهبًا من بين المذاهب، على أن تكون أرضاها عند الله، وآمنها وأعدلها؛ فلابدّ له من توفير ميزان ومعيار يستند إليه، والحكمة هو ذلك الميزان والمعيار.

بلى؛ إنّ الحكمة مستوى سام، وللإنسان أن يصل إليه ويرقاه بعد الإيمان واليقين وتجاوز العقبات الفكرية والاجتماعية. والله تعالى قد وفّر لابن آدم هذه الفرصة، كما تُحدّثنا الآية القرآنية عن لقمان الذي أُوتي الحكمة فصار حكيمًا.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ١٧١.

علاقة الحكمة والشكر

وأمّا العلاقة بين الحكمة والشكر، فنذكّر بقول الله عزّ اسمه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾. وتتوضّح هذه العلاقة بعد تمهيدين نقدّمهما. الأوّل في معنى الشكر، والثاني في معنى لفظته.

» إنّ الحكمة مستوى سام، وللإنسان أن يصل إليهً ويرقاه بعد الإيمان واليقين وتجاوز العقبات الفكرية والاجتماعية. والله تعالى قد وفّر لابن آدم هذه الفرصة.

أمّا بالنسبة إلى معنى الشكر، فالقرآن الكريم يقول في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]. ثم يقول سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾[2]. ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[3].

إذن؛ هناك نمطان من البشر:

- شكور وكفور.
- شاكر وكافر.

فمن هو الشاكر يا ترى؟ ومن هو الكفور؟.

إنّ الكفور هو من يواصل كفرانه بنعم الله واحدة تلو الأخرى، حتى يصل به الأمر إلى مسوى الكفر بالله عزّ وجلّ، وإذ ذاك يُعاقب بالسلاسل والأغلال والسعير.

(١) سورة الإنسان، آية: ١-٣.
(٢) سورة الإنسان، آية: ٤.
(٣) سورة الإنسان، آية: ٥.

في حين أن الشكور، من يشكر الله على نعمه -ضمن معرفته التفصيلة بالنعم، وحسب مستواه الإيماني والعقائدي- حتى يصل إلى مستوى البر، وإذ ذاك يجزيه الله تعالى بأعذب الشراب، الذي هو عنوان دخوله وبقائه وخلوده في الجنّة.

ونفهم من هذه العلاقة -باختصار شديد نعمد إلى تفصيله فيما يلي من البحث- أن الشكر يعتمد على ثلاث مفردات:

المفردة الأولى: الاعتراف بالنعمة وفهمها. علمًا بأن الكثير مِمَّنْ يقع في براثن الشرك يفتقرون في الحقيقة إلى معرفة النعم، وأبعادها على الأقل.

المفردة الثانية: معرفة المنعم، أو معرفة أن ما لدينا من النعم لم تكن، ثم كانت.

المفردة الثالثة: احتمال زوال النعمة. مما يوضح أهميّة السعي إلى المحافظة عليها بإبداء الشكر، وبالقيام بما تلزم من مسؤوليات؛ مثل عدم الإسراف فيها، ومثل تزكيتها وإخراج حق المحتاج منها.

وشكر النعمة يتأتى أيضًا بالإبقاء على عواملها، كأن يشكر المرء من يساهم في المحافظة على صحّته وأمنه وتجارته، ليكون باعثًا لهم على أداء واجباتهم بهذا الصدد.

والشكر قد يأخذ في أغلب الأحيان صبغة عملية، ومصداق ذلك، قول الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[1]، ولم يقل لهم: اشكروا يا آل داود. وخوطب آل داود بهذه الصيغة، لأنهم كانوا يحكمون البلاد والعباد. والحكم واقع عملي، وعملهم الخالص

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

لوجـه الله توفير حاجات الناس نوع شـكر مطلوب. أي أن شـكر الحاكم لا ينبغي أن يكون شـكرًا لفظيًّا فحسـب، فإذا قصّر الحاكم ومـن يعملـون تحت امرتـه ونفـوذه في أداء مسـؤولياتهم، فإنهم في الحقيقـة يقعـون في فخ كفـران النعم، وإن وردت مفردات الشـكر على ألسنتهم.

أمّـا المعنـى الأقـرب -كما يبـدو- للكلمـة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيشير إلى أن الحكمة هي الشكر لله، وتتجسّد فيه وتنبثق منه. فكان الشكر الذي يمارسه لقمان، هو منطلق الحكمة التي حظي بها.

فمن لا يملك فضيلة الشـكر، لا يعرف معنى الحكمة. وكما أن الشكر درجات، فإن الحكمة درجات أيضًا. أمّا لقمان، فقد أُوتي الحكمـة بإطلاقهـا وعمومهـا، نظرًا لـورود مفـردة الحكمة بصيغة التعريف، ودرجات الحكمة في معرفة الله، ومعرفة الكون، ومعرفة المنطق السـليم، ومعرفـة المجتمع، واختيـار التيـار الأفضل، وفيما يتصل بحياة الإنسان الفرديّة.

والمفردة العملية للشـكر، أن كلّ نعمة لها شـكرها، والشكر عـلى نعمـة المـال بإنفاقـه وبصحّـة التصرّف فيـه، وشـكر العلم في نـشره وتعليمـه، وفي الجـاه بذلـه، وفي القوّة اسـتخدامها في الطرق والأساليب الصالحة. وهكذا لكلّ نعمة شكرها الخاص بها.

هكذا تتولّد الحكمة

مـن الآفـاق السـامية للحكمة أن بهـا يكون منطـق المؤمنين منطقًا سليمًا، ويكون تفكيرهم تفكيرًا منهجيًّا، به يغورون في أعماق الحياة، ويعون سنن الله فيها.

ولعلّ السبب الذي يربط بين الشكر ونعمة الحكمة والهدى، أن الحكمة تعني المعرفة العميقة للحقائق والتكيّف معها بصورة مطّردة.

إن هذه الحكمة وليدة عدّة عوامل، منها:

أولًا: السكينة:

إذ النفس المضطربة تعجز عن الاستقرار على فهم، وكلّما كانت نفس المرء أكثر طمأنينة وسكينة، كانت أقرب إلى فهم الحقيقة والإيمان بها؛ ولذلك، نقرأ في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتاً، فَادْنُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ..**»[1].

فهي تتصل بالصمت الناتج عن الاستقرار الروحي والنفسي، وتتصل بالتفكير العميق. وليس التفكير المنهجي إلّا وليدًا لتمتّع الفرد بنفس هادئة.

وواضح أن اطمئنان النفس وعدم توترها واضطرابها، أنه ميراث الشكر، لأن الشكور ينظر إلى نعم الله تعالى فيطمئن قلبه بها، ويعترف بها، وتُشغل نفسه بها عن غيرها مما يفتقدها.

«شكر النعمة يتأتى بالإبقاء على عواملها، كأن يشكر المرء من يساهم في المحافظة على صحّته وأمنه وتجارته، ليكون باعثًا لهم على أداء واجباتهم..

فإذا دعونا الله تبارك وتعالى وسألناه العافية، لا نلبث أن ندعوه بعد ذلك أن يرزقنا الشكر على هذه العافية المطلوبة. فإذا كنّا نعتقد بأن العافية هي سلامة الجسد وصحّته، فإن الشكر على العافية، هو سلامة النفس وصحّة الروح.

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٥٤.

والعلاقة بين الاطمئنان النفسي والقدرة على التفكير المنهجي، علاقة معروفة وواضحة، ولا حاجة لكثير من الشرح.

ثانيًا: معرفة المنعم:

الشكر ينتهي بالشاكر إلى معرفة المنعم الحق، لأن التأمل في النعمة وأسبابها يجعلنا نهتدي إلى من أنعم وهو الله عزّ وجلّ. ولذلك، فإنّ الفلاسفة حينما أرادوا شرح معنى العبادة، قالوا: إنّ شكر المنعم واجب عقلًا، والشكر تجسيد لما يطرأ على ضمير الإنسان.

وأهم نوع من أنواع الشكر وأجلاها، أن نعرف خالقنا هو المنعم الأوّل. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**فِيمَا أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى عليه السلام يَا مُوسَى: اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي.**

فَقَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟.

قَالَ: يَا مُوسَى؛ الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي»[1].

ومعرفة المنعم تؤدّي إلى عدم الاغترار بها، في حين أن الجهل بالمنعم من ناحية، وتواتر النعم من ناحية أخرى، يؤدّيان في كثير من الأحيان إلى الغفلة عن شكر المنعم.

بلى؛ إن تواتر النعم بحاجة ماسّة إلى مضاعفة المعرفة بالله المنعم، ليتم التوازن ويحصل الشكر المطلوب والمناسب من قبل

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٨.

الإنسـان المُنعَم عليه. وقد ورد في الدعاء عن الإمام السجّاد عليه السلام قوله: «إِلٰهِي؛ أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ..»[1].

وهذه هي حالة الإنسان الجاهل التي حذّر منها إمامنا علي بن الحسين السجاد عليه السلام، إذ يصاب غير العارف بموجة من الذهول وتيار من الغفلة، عندما تتواتر عليه النعم، فإذا به ينشـغل بها عَمَّنْ أنعمها عليه. والعياذ بالله.

ثالثًا: معرفة الوسائط:

ثـم إنّ الإنسـان حينما يعرف المنعم، فإنـه يهتدي بإذن الله إلى معرفة وسائط النعم، إذ إن العلم الحق هو العلم بالله.

ثـم لا يلبـث هـذا العلـم أن يتوسّـع، حتى يعـرف المرء من جعلهـم الله تعـالى وسـيلة إلى إيصـال النعمـة إليه؛ مثـل الأبوين، والزوجـة والزوج، والعلماء والأصدقـاء، وأولي الأمر الصالحين. ومعرفتهم تدعو إلى مزيد من الهداية.

ذلك أن الإنسـان حينما يتحلّى بفضيلة الشـكر، ويكون على استعداد دائم لإبدائها، يبحث عمّن أنعم عليه.

تجد ذلك في شخصية لقمان، حيث قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام حينما سـأله حماد: عن لقمان وحكمته، قال: «**وَلَمْ يَسْـمَعْ قَوْلًا قَطُّ مِنْ أَحَدٍ اسْتَحْسَنَهُ إِلَّا سَأَلَ عَنْ تَفْسِيرِهِ وَعَمَّنْ أَخَذَهُ..**»[2].

رابعًا: معرفة الأسباب:

إن شـكر النعمـة يدعو الشـاكر إلى أن يتعرّف عـلى العوامل

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكرين.
(٢) تفسير القمي، ج٢، ص١٦١.

المساعدة على بقاء النعمة، فيحاول المحافظة عليها بشكل عملي. إذ النعـم عادةً ما لا تبقى، مـا لم يحافظ الفرد عليها. والصحّة مثلٌ على ذلك، حيث لا يمكن أن نتصوّر فردًا يشـكر ربّه على نعمة الصحّة، وهـو يفرّط بها ولا يهتم لصونها. وكذلك نعمة الأمن والمال والجاه والعلم وغير ذلك.

» من الآفاق السـامية للحكمـة أن بهـا يكـون منطـق المؤمنين منطقًا سـليمًا، ويكون تفكيرهـم تفكـيرًا منهجيًّا، به يغورون في أعماق الحيـاة، ويعون سنن الله فيها.

والمؤمـن يتفطّن مـن خلال الشـكر، ومن خلال اهتمامه بعوامل وجـود النعمة وبقائها، إلى حقائق الحياة وسننها العميقة. هذه السـنن الثابتة التي لا تعرف الهزو واللعـب. ولذلـك، أضحـى الشـكور فطنًا ذكيًّـا، ينظر إلى الأمـور نظـرةً عميقة، ومن خلال نظرتـه وبحثه عن عوامـل النعمة، يتعرّف شـيئًا فشـيئًا إلى حقائـق الكون والحياة الاجتماعية والسياسيّة والثقافية والاقتصادية.

ولعـلّي قد خلصت إلى هذه الحقيقة من خلال قراءتي للآيتين (١٢٠-١٢١) مـن سـورة النحـل المباركـة، حيـث قـال الله عـزّ اسـمه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وهـذا الاجتباء وهذه الهداية قد تأتّيا كميراثٍ لشـكره. وإذا كنـت أكثـر دقّة، وجـدت العلاقة قريبـة من قوله تعـالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾، لأن الشـكر يقـف في النقطة المقابلة للشرك.

فالشـكر هـو التوجّـه إلى الله المنعـم، في حـين أن الشرك هو التوجّـه إلى غـير الله المنعم، وإشراك غير الله في النعمة، وحيث يظن المرء أن مـا به من النعـم قد جاءته من غـير الله، فإنـه لا يُعير أهميّة

لضرورة شكر الله وإبداء الطاعة له، وهذا هو الشرك بعينه.

وبهذا الصدد، قيل: إنّ رجلًا أُخذ إلى الحجاج بتهمة باطلة، فأمر الحجاج بضرب عنقه، فطلب منه أن يُؤجّل قتله إلى صباح الغد، ليذهب إلى أهله ويودّعهم ويسوّي ما عليه من ديون. فلم يقبل منه الحجاج ذلك، إلَّا أن يأتيه بكفيل. فنظر المتهم في وجوه من كانوا حاضرين في قاعة القصر، فلم يعرف منهم أحدًا، إلَّا أنه طلب من أحدهم أن يكفله، فقبل على أن يأتيه في صباح الغد. فتعهّد له المتهم.

أمّا الرجل الكافل فقد بات ليلته أَرِقًا خائفًا من القتل إذا لم يأته الرجل المتهم.

وحينما أصبح الصباح أسرع إلى مكان الموعد الذي حدده مع الرجل، فرآه يسرع إليه، فقال له: ما الذي جاء بك وأنت تعرف إصرار الحجاج على قتلك؟.

فأجابه: جاء بي وعدي لك.

» معرفة المنعم تؤدّي إلى عدم الاغترار بها، في حين أن الجهل بالمنعم من ناحية، وتواتر النعم من ناحية أخرى، يؤدّيان في كثير من الأحيان إلى الغفلة عن شكر المنعم.

فانطلقا إلى الحجاج الظالم الذي سأله عن تهمته، فأجابه: لا أدري ما تُهمتي. وحينما تحقق الحجاج لم يره إلَّا بريئًا، فأطلق سراحه، فغادر الرجل مسرعًا لئلّا يندم الحجاج على إطلاق سراحه.

أمّا الكفيل؛ فقد تساءل في نفسه عن سبب مغادرة الرجل دون أن يتوجّه إليه بكلمة شكر واحدة، وهو الذي تكفّله وأنقذ حياته.

وفي اليوم التالي جاءه الرجل، فجلس عنده وسلّم عليه وقال

له: إن لك عليَّ حقًّا كبيرًا، وقد كنت سببًا في إنقاذ حياتي.

فسـأله قائلًا: ولكنّك سرعان ما ذهبت ولم تشكرني بالأمس وقد كنت تستطيع ذلك.

فأجابه الرجل: لقد أسرعت بالأمس وقضيت ليلتي أشـكر الله، لأنه هو الذي أنقذني، ثم جئتك اليوم أشكرك ليتم شكري لله. فأعجب الرجل بقوله هذا واستحسنه.

بلى؛ إن من الجيّد أن يتوجّه المرء بالشـكر إلى طبيبه أو معلّمه أو أبيه أو أُمّه، ولكنّه ملزم في الوقت ذاته أن يتوجّه بأصل الشـكر؛ قبل ذلك وبعده إلى الله سـبحانه وتعالى، لأنه هو مهيئ الأسـباب، وهو أسبغ النعمة عليه.

وليكن واضحًا لكلّ إنسـان أن نعمتَـي الصحّة والأمان هما أعظـم نعمتين ظاهرتـين عليه، فينبغي له أن يتوجّه بالشـكر إلى الله سـبحانه وتعـالى عـلى أنه يحفظـه مـن آلاف الأنواع مـن الأمراض المكتشـفة حتـى الآن وغـير المكتشـفة، وعلى أنـه يحفظ لـه أمنه من أعدائـه من أنـواع المجرمـين والسـفهاء، فضلًا عن الحـوادث غير المتوقّعة.

وهنـاك نعـم أخرى أعمـق من هاتـين النعمتـين، مثل نعمة الهـدى والعقـل والإيـمان والسـلوك القويـم، ونعمة غنـى النفس والقناعة ومحبّة الآخرين المتوجهة إليه، وغير ذلك.

وهنـاك نعم ربّانية على الإنسـان، لها طابع خفـي، مثلما يدرأُ تعـالى عنه وهو في سـكينة النوم، وقد يتعرّف المـرء عليها، ومنها ما يبقـى مجهولًا حتى يغادر هـذه الدنيا؛ مما يجدر بالإنسـان أن يتوجّه

بالشكر إلى الله تبارك وتعالى على ما يدفع عنه من الأخطار المكشوفة وغير المكشوفة، فضلًا عن النعم التي يلمسها ويشهدها.

الإمام الصادق عليه السلام يتحدّث عن لقمان

مما روي بشأن لقمان الحكيم وأسباب بلوغه إلى ما بلغه من المكانة السامية، قول مولانا وإمامنا جعفر الصادق عليه السلام، حيث جاء فيه: «**أَمَا وَالله مَا أُوتِيَ لُقْمَانُ الْحِكْمَةَ بِحَسَبٍ وَلَا مَالٍ وَلَا أَهْلٍ وَلَا بَسْطٍ فِي جِسْمٍ وَلَا جَمَالٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا قَوِيًّا فِي أَمْرِ الله، مُتَوَرِّعاً فِي الله، سَاكِتاً سَكِيناً، عَمِيقَ النَّظَرِ، طَوِيلَ الْفِكْرِ، حَدِيدَ النَّظَرِ، مُسْتَغْنٍ بِالْعِبَرِ. لَمْ يَنَمْ نَهَاراً قَطُّ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى بَوْلٍ وَلَا غَائِطٍ وَلَا اغْتِسَالٍ لِشِدَّةِ تَسَتُّرِهِ، وَعُمُوقِ نَظَرِهِ، وَتَحَفُّظِهِ فِي أَمْرِهِ. وَلَمْ يَضْحَكْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ مَخَافَةَ الْإِثْمِ، وَلَمْ يَغْضَبْ قَطُّ، وَلَمْ يُمَازِحْ إِنْسَاناً قَطُّ، وَلَمْ يَفْرَحْ لِشَيْءٍ إِنْ أَتَاهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَا حَزِنَ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ قَطُّ.**

وَقَدْ نَكَحَ مِنَ النِّسَاءِ وَوُلِدَ لَهُ الْأَوْلَادُ الْكَثِيرَةُ، وَقَدَّمَ أَكْثَرَهُمْ إِفْرَاطاً، فَمَا بَكَى عَلَى مَوْتِ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

وَلَمْ يَمُرَّ بِرَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ أَوْ يَقْتَتِلَانِ إِلَّا أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ يَمْضِ عَنْهُمَا حَتَّى تَحَاجَزَا، وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلًا قَطُّ مِنْ أَحَدٍ اسْتَحْسَنَهُ إِلَّا سَأَلَ عَنْ تَفْسِيرِهِ وَعَمَّنْ أَخَذَهُ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ الْفُقَهَاءِ وَالْحُكَمَاءِ.

وَكَانَ يَغْشَى الْقُضَاةَ وَالْمُلُوكَ وَالسَّلَاطِينَ، فَيَرْثِي لِلْقُضَاةِ مِمَّا ابْتُلُوا بِهِ، وَيَرْحَمُ الْمُلُوكَ وَالسَّلَاطِينَ لِغِرَّتِهِمْ بِالله وَطُمَأْنِينَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَيَعْتَبِرُ وَيَتَعَلَّمُ مَا يَغْلِبُ بِهِ نَفْسَهُ وَيُجَاهِدُ بِهِ هَوَاهُ وَيَحْتَرِزُ بِهِ

مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَكَانَ يُدَاوِي قَلْبَهُ بِالتَّفَكُّرِ، وَيُدَارِي نَفْسَهُ بِالْعِبَرِ، وَكَانَ لَا يَظْعَنُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ، فَبِذَلِكَ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ وَمُنِحَ الْعِصْمَةَ.

وَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ طَوَائِفَ مِنَ المَلَائِكَةِ حِينَ انْتَصَفَ النَّهَارُ وَهَدَأَتِ الْعُيُونُ بِالْقَائِلَةِ؛ فَنَادَوْا لُقْمَانَ حَيْثُ يَسْمَعُ وَلَا يَرَاهُمْ فَقَالُوا: يَا لُقْمَانُ! هَلْ لَكَ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ تَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ؟.

فَقَالَ لُقْمَانُ: إِنْ أَمَرَنِي رَبِّي بِذَلِكَ فَالسَّمْعَ وَالطَّاعَةَ؛ لِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ بِي ذَلِكَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، وَعَلَّمَنِي وَعَصَمَنِي، وَإِنْ هُوَ خَيَّرَنِي قَبِلْتُ الْعَافِيَةَ.

فَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: يَا لُقْمَانُ! لِمَ قَالَ؟.

-قَالَ لُقْمَانُ-: لِأَنَّ الحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ بِأَشَدِّ المَنَازِلِ مِنَ الدِّينِ، وَأَكْثَرُ فِتَنًا وَبَلَاءً مَا يُخْذَلُ وَلَا يُعَانُ وَيَغْشَاهُ الظُّلَمُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَصَاحِبُهُ مِنْهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِنْ أَصَابَ فِيهِ الحَقَّ فَبِالحَرِيِّ أَنْ يَسْلَمَ، وَإِنْ أَخْطَأَ أَخْطَأَ طَرِيقَ الجَنَّةِ. وَمَنْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا ذَلِيلًا وَضَعِيفًا كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ فِي المَعَادِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ حَكَمًا سَرِيًّا شَرِيفًا. وَمَنِ اخْتَارَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ يَخْسَرْهُمَا كِلْتَيْهِمَا تَزُولُ هَذِهِ وَلَا تُدْرَكُ تِلْكَ..»(1).

ومما يدل على أنه من الممكن لشخص يتبع المنهجيّة الصحيحة، وأعني بها منهجيّة الشكر، ومنهجيّة النظر العميق، ومنهجيّة الحياء، أن يُلقّى الحكمة، فلا يتعامل مع قواعد الحياة ومجرياتها باستخفاف وبعبثيّة، وإنما يبحث من خلالها، وباستمرار

(1) تفسير القمي، ج٢، ص١٦٢ - ١٦٣.

عـمّا ينفعـه وينهض بمسـتواه، ويبتعد به عن مواقـع الخطأ والزلل، لينتهي إلى حيث يهيمن على هواه ويزيد من علمه وعقله.

الحكمة بين الصبر والشكر

ومـن عظيـم الحكمـة وعنوانها الشـكر أنهـا تنفع الإنسـان في أحلـك الظروف التـي يمرّ بهـا، أو تمرّ به خلال حياتـه، فيواجه بحكمته وبشـكره ساعات الحرج بكل وعي وشـجاعة وأمل بِمَنْ خلقه وأنعم عليه، دون أولئك الذين ينهزمون عند أبسـط المواقف والامتحانات، لافتقارهم إلى الحكمة ونضج الشخصيّة.

ولذلـك، تجـد في الآيـات والروايات حديثًا عـن الصلة بين الصبر والشكر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(١).

وقـول الإمام علي عليه السلام: «**الْمُؤْمِنِ شَـاكِرٌ فِيْ السَّرَّاءِ صَابِرٌ فِيْ الْبَلَاءِ خَائِفٌ فِيْ الرَّخَاءِ**»(٢). صبرًا وشكرًا واحتسابًا.

والعلاقة بين الصبر والشكر تتمثّل في أن الإنسان الشـكور ينظر إلى الإيجابيّات، وهي نعـم الله تعالى، فإذا فقـد نعمـة واحدة منها لا يجزع ولا يهلع، وإنما يسـتغني ويتقـوّى بغيرها مـن النعم. حتى أن مَـنْ يتصف بهاتين الصفتـين الرائعتـين تراه دائـم الانـشراح، وإن اقتربت روحه من مغادرة بدنه، لأنه يرى مقام السـعادة المُعدّ له عند الله تعالى قبـل أن يُفارق الحياة، هذا فضلًا عن مجرّد

» الشـكر هو التوجّه لله المنعم، في حين أن الشرك هو التوجّه لغيره، وإشراك غـيره في النعمة، وحيث يظـن المرء أن مـا به من النعم قـد جاءته من غير الله، فإنـه لا يُعـير أهميّة لضرورة شكر الله.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٥.
(٢) غرر الحكم، حكمة رقم: ١٥٢٥.

افتقاده لنعمة من النعم.

بـل إنّ كثـيرًا من العلـماء يتجلّى علمهم ويُعـبّرون عمّا لديهم من وعي وإلهام في خضم الظروف الصعبة والقاسية، فهم لا تتجلّى شـخصيّاتهم على حقيقتهما كما هي تتجلّى في ساعات المحنة والفتنة، فيظهـرون كأسـمى الأشـخاص وأروعهـم؛ لأنهـم لا يعرفـون التضجّر والتـبرّم والانزعـاج، أو لنقل: هكذا ربّتهـم الحكمـة وعلّمهم الشـكر وقادهم الصـبر، إزاء توافر وتواتر النعم، أو افتقادها.

» العلاقـة بـين الصـبر والشـكر تتمثّـل في أن الإنسـان الشـكور ينظر إلى الإيجابيّات، وهي نعم الله تعـالى، فإذا فقد نعمة واحدة لا يجزع ولا يهلع، وإنمـا يسـتغني ويتقـوّى بغيرها من النعم.

ثقافة الشكر تصنع الحضارة

انطلقت الحضارات البشرية من الشـكر، ولكنّها انتهت وتلاشت عند نقطة الكفر بالله أو بأنعمه. وحينما نـدرس تاريخ الحضارات، نجد هذا الخـط البياني كيف تتصاعد به الحضارة الإنسـانية مع الشكر، وكيف تتوقّف دون الشكر، وكيف تصل إلى أدنى الهبوط عند الكفر بالله أو بنعمائه وآلائه.

والشـكر -كـما بيَّنَّا سـابقًا- هو وعـي النعم ومعرفـة المنعم والمحافظـة على عوامل النعمة، حيث يعي ابن آدم طاقاته والأرض المحيطـة بـه والوقت الذي يعيشـه. هـذا الثلاثي؛ أي: (الإنسـان، والطبيعة، والزمان) إذا وعى الفرد حقائقه الثلاث، تبتدئ الحضارة وينطلق في التقدّم.

عقبى الكفر بالنعم

وقـد سـبق منّـا القـول -منطلقين مـن القـرآن المجيد- عن آفاق الحكمة والشـكر، فتعالوا نتحدّث عن القسـم الثاني من الآية

الثانية عشرة من سورة لقمان، حيث جاء فيه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

فنقول: إننا لا نستطيع أن نعرف الشكر بواقعه العميق، ما لم نعرّف الكفر، باعتباره الصفة المضادّة للشكر.

أنواع الكفر

الكفر بالنعم أو الكفر بالمنعم، وهو أعظم الكفر، يعني أحد أمور:

ألف: الجهل بالنعمة:

إمّا عدم وعي النعمة، كمن يملك أرضًا وماءً ثم يفتقر، لعدم وعيه بأنه من الممكن أن تُحرث هذه الأرض ثم تسقى ماءً، لتنبت ما ينفع الناس. وهذا مثل ابن آدم لا يعي قيمة دماغه وفكره، فيما إذا عرف ذلك، حصل على الكثير من النعم.

باء: الجهل بالانتفاع:

أو أن يجهل كيفيّة المحافظة على النعمة، مع معرفته بالنعمة، فتراه يبطر بها، حيث لا يعير لها أهميّة تذكر، مما يعرضه للضرر بدل الاستثمار. كالشاب المغرور الذي يبتاع له والده سيّارة، فيقودها بتهوّر حتى يصطدم بها. وإنما انتهى إلى ذلك بسبب جهله سبيل الاستفادة من هذه النعمة.

وكذلك ابن آدم حين يأكل أكثر مما يحتاج جسمه، أو يتناول ما يضرّه، فهو إنما يمارس نوعًا من البطر؛ إذ لا يعرف ماذا يصنع بما لديه.

جيم: الجهل بهدف النعمة:

أو أن الإنسان يستفيد من النعمة ويتعامل معها، ولكن دون أن يضع لهذه الاستفادة أهدافًا صحيحة. كأن يستثمر النعمة في إطار التكبّر على الآخرين أو تحطيمهم أو ابتزازهم، مما يكشف حقيقة أن بعض الأفراد لا يصلحهم إلَّا الفقر، فإذا أوتوا مالًا تكبّروا به وتجبّروا وفقدوا أصدقائهم، فهم لا يضعون لاستفادتهم من النعم أهدافًا صحيحة.

وهذه الحقائق تظهر وتتجلّى عندما نلاحظها في المجتمعات والأمم، لأنها تكبر على الصعيد الجمعي، ويبدو خطّه البياني متصاعداً حينما تتحلّى الأمّة بفضيلة الشكر، أو متنازلاً حينما يستولي عليها الكفر.

ففرعون -مثلًا- لم يمارس الظلم، ولم يستضعف بني إسرائيل، ولم يرفض دعوة موسى وهارون عليهما السلام، ولم يغتر بما لديه من وسائل وطاقات، ولم يدّعِ الربوبيّة.. إلَّا في خضم جهله بسبل استثمار ما لديه من النعم، حيث وضع لها أهدافًا غير صالحة.

وكذلك قوم عاد الذين استطاعوا أن يُشيِّدوا حضارة في جنوب الجزيرة العربيّة، ولكنّهم بطروا واستكبروا واغترّوا بالنعم التي أُسبغت عليهم، فراحوا يبطشون جبّارين، فأُهلكوا بعذاب العواصف والأعاصير.

ولا يذكر لنا القرآن المجيد أمثال الأقوام والحضارات السالفة لكي نتسلّى بها، وإنما لكي نعتبر بقصصهم وأحوالهم.

قال الله سبحانه: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

ولقد انحرف بعض الأقوام بسبب بطرهم واغترارهم وعدم استفادتهم الاستفادة الصحيحة بما أُسبغ عليهم من النعم، كقوم لوط الذي قضى الفساد الخلقي والشذوذ الجنسي عليهم، وكأصحاب الأيكة -قوم شعيب- الذين قضى عليهم الفساد الاقتصادي.

وهكذا نجد كلّ أمّة وكلّ حضارة، حينما تقدّمت؛ فسدت بأخلاقها وأفكارها ونظريّاتها، بعد أن ضيّعت النعم، فانتهت.

ودعونا نذكر ما ضربه القرآن من الأمثلة مما يرتبط بحياتنا اليوميّة.

فقد كانت سبأ في بلاد اليمن جنوب الجزيرة العربيّة، قد أسّست حضارة كبيرة، وأخذت لها اسم سورة قرآنية، جاء فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾(٢) أي علامة وعبرة، وقد أمرهم الرب بما يلي:

- ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ولكن لا يكفي لهم أن يأكلوا، إذ الأكل ليس هدفًا نهائيًّا.

- ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ إذ الرزق تتبعه حقوق ربّانية تعود بالنفع في نهاية الأمر إلى الناس أنفسهم.

- ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ فالبلدة فيها النعيم والجنان المزدهرة، والربّ الغفور يعفو عمّن يسير في خط الهدى، وقد

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.
(٢) سورة سبأ، آية: ١٥.

تصدر عنه بعض الأخطاء والزلّات.

أمّا إذا انحرف الفرد خلال مسيرته بعيدًا عن هدى الرب ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ عن الشكر؛ فكان جزاؤهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

هنالك قال ربّنا: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾، وهنا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ فلعلّ الكفر هنا هو الكفر بالنعمة، ولعلّ هذا النوع بالكفر يؤدّي إلى الكفر بالمنعم شيئًا فشيئًا.

« نجد كلّ أمّة وكلّ حضارة، حينما تقدّمت؛ فسدت بأخلاقها وأفكارها ونظريّاتها، بعد أن ضيّعت النعم، فانتهت.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[1]، لأنّ الله تعالى أعظم جودًا وكرمًا وأوسع فضلًا على الإنسان من أن يرزقه نعمة ثم يسلبه إياها بلا سبب. بلى؛ إنه يسلبها بسبب حصول تغيّر في ذات الإنسان وسلوكه.

وفي هذا السياق الحكيم، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

وهذا ديدن كلّ مجتمع لا يعي حقيقة النعمة، ولا يعطيها حقّها. وها نحن نلاحظ في حقبتنا الراهنة كيف أنّ الله سبحانه وتعالى يُجري هذه السُّنة الثابتة –سُنّة التغيير– على بعض الشعوب المسلمة التي يبدو أن نسبة مميّزة من أفرادها فضّلوا التهالك على المال والغنى، متناسين ضرورة التعامل معه على أساس الشكر وما يتبعه من تفاصيل، وإننا لنجد الأمراض والأوبئة والاضطراب الأمني على أشدّه.

(١) سورة سبأ، آية: ١٦–١٧.
(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

هـذا بالإضافـة إلى أن بقـاء النعمة رهين باشـتراك الآخرين فيهـا، بينما العديـد من البلدان تعـاني فقرًا مدقعًا، فيـما دول أخرى تعيـش التخمـة إلى أبعد مدياتها. مما يشـير إلى أن التقـدّم الحضاري والمـدني يتحـوّل تدريجيًّا إلى نقمـة، مـا لم تضبـط حركتـه، ولم تتـم الاستفادة منه بصورة صحيحة.

ويخاطب ربّنا سـبحانه وتعالى في القـرآن الكريم ثلاثة نماذج مـن البـشر، وهم: قوم موسـى عليه السلام، وقوم عيسـى عليه السلام، وقوم خاتـم الأنبيـاء والمرسـلين محمـد صلى الله عليه وآله وسلم، ويذكرهم بسـننه الكونيّة الثابتـة، وما تفرّع عنها من الخلاص مـن الظلم والعذاب إلى حيث العدالة والسعادة. وإن سريان هذه السنن بمثابة الآيات والعلامات والتنبيهات لكلّ صبّار شكور.

فالقتـل العظيم الذي كان بنو إسرائيـل يتعرّضون له على يد فرعـون، وما تـلاه من نجاتهم على يد موسـى عليه السلام، كان يفترض أن يتبعه شـكر لله عزّ وجـلّ منهم، ليزدادوا نعمـة، والعكس يتبعه عذاب شـديد. وهو الذي تعرّض له قوم موسـى بعد أن كفروا ولم يُطيعوا نبيّهم كليم الله سبحانه وتعالى.

نقرأ ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، آية: ٦-٨.

والأمر نفسه انساق إلى من اعتبروا أنفسهم أنصارًا لعيسى بن مريم عليه السلام، إذ أضحوا عرضة للخلاف والكراهيّة فيما بينهم إلى يوم القيامة، وذلك بعد أن أعرضوا عمّا أخذه الله تعالى منهم الميثاق وتناسوا الالتزام به. كما يقول القرآن المجيد في آية كريمة: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[1].

فهم لم يأبهوا بثقافة الشكر في أنفسهم، فانتكست حضارتهم، حيث لم يصلوا إلى الغاية التي رسمها القرآن لهم، إن هم كانوا يلتزمون بما أمرهم الله تعالى به؛ من صلاة وجهاد وزكاة وإحسان. وأهمها التفافهم حول قيادتهم الشرعيّة التي عيّنها الله لهم.

إنّ ذكر النعمة هو شكرها، وهو أفق من آفاقها، أمّا تناسي النعمة والبطر بها، فهو أذان بزوالها والحرمان منها.

وبالنسبة إلى الأمة الإسلامية ذكَّرهم الرب سبحانه كيف عاشوا قبل الإسلام وكيف أنقذهم الله بالإسلام فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥.

والفرق بين هذه المجموعات الثلاث، وبين سائر الأقوام السالفة غيرها، حيث قضى الله عليها واستأصلها، فلأن المجموعات الثلاث -اليهود والمسيحيّين والمسلمين- بقيت فيها آثار النبوّة، وكما تشير الروايات الصحيحة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، أن الله تعالى قضى ببقاء هذه المجموعات الثلاث إلى حين ظهور المصلح العالمي في آخر الزمان، أعني الإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ولكن بما نقضت أجيال هذه المجاميع الثلاث ميثاقها مع الله، ولم تُبدِ من نفسها الشكر على ما أُوتيت من النِّعم والنعيم، رُفعت عنها البركة، وأُشربت حبّ الدنيا، وانقطعت عنها حضارة السماء التي لأجلها خُلق البشر أساسًا.

والقرآن الكريم في هذه الآية من سورة لقمان المباركة يذكّرنا بأهميّة هذه القضيّة -الشكر وعدم الكفر- حينما يقول: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ إذ ليس كلّ من أُوتي نعمةً يقابلها بالشكر، وإنما البعض من الناس يكفرون، فإذا كفروا، فإنّ الله لا يضرّه كفرهم لنعمة، وإنما الناس هم الذين يتضرّرون، كما أن: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي أنه هو المنتفع الأوّل والأخير.

» إنّ ذكر النعمة هو شكرها، وهو أفق من آفاقها. أمّا تناسي النعمة والبطر بها، فهو أذان بزوالها والحرمان منها.

ومن هنا، فإننا نرى في مفهوم الشكر وقيمته، مفتاحًا لسائر النعم الإلهيّة، باعتباره التجسيد الأجلّ والأكثر قدسيّة ووعيًا لحقيقة الإيمان واليقين. كما أنه -الشكر- واقع أخلاقي لا يُضاهى سموًا ورفعةً، وهو التعبير الأصدق عن النيّة الطيّبة في ممارسة فضائل الأخلاق.

وهذه النعمة الكبرى ينبغي أن تعمّم وتنشر في الأوساط الاجتماعية لدى المؤمنين. أمّا إذا انعكس الأمر، وتحوّل الشكر

إلى كفر بالله المنعم أو كفر بالنعم؛ فإنّ الحضارة ستُصاب بانتكاسة مروعة.

فإذا فكّر الإنسان بأن النعمة قد وصلته من نفسه، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾(١)، كما قال قارون؛ أو فكّر أن النعمة وصلته من عمرو أو زيد، فعبده أو أطاعه، فقد عصى ربّه، وتسبّب بزوال النعمة. حتى إن عملية إزالة النعمة بمثابة الظلم الذي يمارسه الفرد بحقّ نفسه، بل هو ظلم عظيم وقبيح في الوقت ذاته.

ويتصف هذا الظلم بهذه الصفة، لأنه جاء بدلًا من أن يشكر الفرد فيزداد نعمةً.. والله هو المنعم المعطي بلا حساب. ثم هو عدم وفاء بحقّ الله سبحانه وتعالى عليه، إذ بدلًا من أن يشكره، يشكر غيره ويطيعه.

أمّا بعد النعمة، فينبغي أن يُشكر أولو النعمة، ولكن ينبغي أن يكون شكرهم امتدادًا لشكر الله. علمًا أن وجود أُولي النعمة، كالأبوين، هو نعمة بحد ذاته. فهو إذن، شكر امتدادي طولي، وليس في عرض شكر الرب أو متوازنًا معه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى شكر الوالدين على لسانه دون لسان لقمان، كما هي الكلمات السابقات، باعتبار عدم مناسبة قول لقمان لابنه أن يشكره.

وهكذا نعرف من السياق القرآني أهميّة شكر الوالدين؛ باعتباره امتدادًا لشكر الله تعالى، وأن الطاعة للوالدين ليست طاعة مستقلّة و بمنأىً عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة القصص، آية: ٧٨.

» بصائر وأحكام

١- لعل الحكمة هي أسمى مرحلة يبلغها المؤمن بعد طي مراحل، منها الإيمان والهدى والرحمة واليقين، وهي ميزان الحكم في مختلف القضايا.

٢- الفطرة النقية والمنطق السليم، والحجة البالغة والبعيدة عن العاطفة، والتقليد والتسليم للضغوط؛ هي ميزان الحكم في العقائد، والعدل والتقوى وتجنب الهوى هي الحكمة في القضايا الاجتماعية.

٣- حينما نعترف بالنعمة ونخشى زوالها نعمل على إبقاء عواملها وبهذا تكون حياتنا حكيمة، وهكذا الحكمة تغور في عمق الفطرة.

٤- وإذا كانت الحكمة ميراث المعرفة التامة فإن سكينة النفس ومعرفة المنعم والولائج والأسباب، تعتبر وسائل تلك المعرفة.

٥- والحكمة زاد المرء في مسيرته الطويلة التي يواجه بها التحديات، فتجعله كالجبل صابرًا مستقيمًا؛ لأنه ينظر إلى النعم التي عليه بروح الشكر فيتحلى بالصبر.

٦- والحكمة وثقافة الشكر منطلق الحضارة البشرية لأنهما تُفعِّلان ما يملكه الشعب من أسباب القوة بمعرفتها والانتفاع منها.

٧- لقد ذكَّر القرآن الأمم التي تبنت منهج التوحيد، وهم اليهود والنصارى والمسلمون، بأن شكرهم نعمة الرسالة وسيلة بقاء حضارتهم.

» الشرك ظلم عظيم

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

من الحديث

عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قَالَ: «**الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ؛ ظُلْـمٌ يَغْفِرُهُ الله، وَظُلْمٌ لا يَغْفِـرُهُ الله، وَظُلْمٌ لَا يَدَعُهُ الله. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ فَالشِّرْكُ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ فَظُلْمُ الرَّجُلِ نَفْسَـهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَدَعُهُ فَالْمُدَايَنَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ**»[1].

عن سيد العابدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام قَالَ: «**حَقُّ الله الْأَكْبَرُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْبُدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..**»[2].

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ:

إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَوْصِنِي.

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٣٣٠.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٨.

فَقَالَ: لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً وَإِنْ حُرِّقْتَ بِالنَّارِ، وَعُذِّبْتَ إِلَّا وَقَلْبُكَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ. وَوَالِدَيْكَ فَأَطِعْهُمَا وَبَرَّهُمَا حَيَّيْنِ كَانَا أَوْ مَيِّتَيْنِ، وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ فَافْعَلْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ»[1].

تفصيل القول

من آفاق الحكمة التي أوتي لقمان أنه وعظ ابنه. أَوَلَيس في ذلك دلالة على مدى اهتمامه بحكمته واعتزازه بها، والتي خَصَّ بها أحب الناس إليه وهو ابنه، لمعرفته أنه امتداد له، وأنه يحيا به، وأنه من الباقيات الصالحات؛ كل ذلك دعاه إلى أن يخصَّه بحكمته، وهو إلى ذلك كان يعلم أن الوصية للأبناء هي السبيل لبلوغ الحكمة إلى غيرهم من ذوي القربى ومن ثم للناس، وهكذا نجد أن من سيرة الحكماء نقل تجاربهم إلى أقرب الناس إليهم ليكونوا وسائط نقلها إلى غيرهم.

ووصايا لقمان لابنه كثيرة، وينقل الكتاب لنا خلاصة منها، وفي التفاسير والأحاديث المزيد، إلا أن لقمان بدأ وصاياه بحكمته الأساسية، التي هي قاعدة سائر الحكم، وهي أخلاص العبودية للرب وتجنُّب الشرك به، وحينما تنطلق هذه الوصية من الوالد لولدة تكون لذلك مزية بالغة. لماذا؟.

لأن من عوامل الشرك الأساسية بالله سبحانه طاعة الوالدين أو تقليد الآباء وما سُمِّي اليوم بالسلفية؛ فإنها من أعظم أسباب الشرك في التاريخ، ذلك أن الأمم كانت ترفض -في البدء- دعوة الرسل، ويعتذرون بأنهم على دين آبائهم. وحتى في عالم الذر حينما أخذ ربنا ميثاق التوحيد من ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم، حذَّرهم من هذا العذر الواهي، وأنذرهم بأن تقليد الآباء (والسلفية) ليست عذرًا مقبولًا. لماذا؟.

(١) الأصول من الكافي، ص٢، ص١٥٨.

لأن ديـن الله سـبحانه مغـروز في فطـرة كل إنسـان منذ عالم الميثـاق، وهكذا فإن صلة كل شـخص بالدين صلة مباشرة ولا تمر عبر السلف صالحًا كان أو طالحًا.

قـال الله سـبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[(١)].

مـن هنا فإن موعظـة لقمان لابنـه ابتُدئت بالتحذيـر من الشرك، وكأنـه قال لابنـه: إنَّ كل ما أقوله لك من قول أو عمل أعمله، فتسـعى للاقتـداء بي فيـه فإنه يجب أن يكون في إطار توحيد الله؛ فإذا رأيت شـيئًا منه مخالفًا لطاعة الرب، فلا تُطعني لأنك تصبح بذلك مشركًا.

» وصايـا لقمـان لابنــه كثـيرة. إلا أن لقمـان بـدأ وصاياه بحكمته الأساسية التي هـي قاعـدة سـائر الحكَم، وهي أخلاص العـبوديـة للـرب وتجنُّب الشرك به..

وربـما يظـن البعـض أنـه مـادام كل جيـل مُكلَّف مباشرة من قبل الرب سـبحانه فلا قيمة لموعظة الوالدين، كلا.. هذا نوع من الهروب عن المسـؤولية الملقاة على عاتق الوالدين بتقديم أقصى درجات النصح للأولاد ولكن مع تحذيرهم بعدم اتِّباعهم مطلقًا، وإنما في إطار الدين وتعاليم الرب. وبتعبير آخـر تذكيرهم بأن عليكم اتِّباع الناصحين بعد تمحيص كلامهم، حسب مقاييس الشرع والعقل.

وهذا ما نسـتفيده من آية كريمة إذ يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٢)].

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢ - ١٧٣.
(٢) سورة الأحقاف، آية: ١٧.

إن الوالدين هنا ركّزا ناصحين مع الولد على ضرورة اتِّباع الدين وليس اتِّباعهما. وبينهما فرق كبير. وهكذا لقمان يعظ ابنه انطلاقًا من حبه له، ورجاؤه أن يكون من أهل الجنة، ولعله لذلك ولكي يُبيِّن مدى شفقته له يبدأ كلمته بقوله: ﴿يَبُنَيَّ﴾؛ للتأكيد على أن عامل البنوة يدفعه لنصحه بعدم الشرك، ثم يؤكد: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

» إن من عوامل الشرك الأساسية بالله سبحانه طاعة الوالدين أو تقليد الآباء وما سُمِّي اليوم بالسلفية؛ فإنها من أعظم أسباب الشرك في التاريخ.

والظلم أساسًا هو إنكار الحق قولًا وعملًا، وأي حق أعظم من حق الخالق على المخلوق. وإن من أعظم الحقوق على البشر حق نفسه على نفسه، والشرك اعتداء عليه، بل تجاوز واعتداء على كل الحقوق المفروضة عليه، فمن ظلم نفسه بالشرك لا يدع أحداً إلَّا ويظلمه؛ لأنه يهدم أساس المروة، ويزعزع قاعدة العدالة. إنه يكفر بالله العظيم، فما بالك بالآخرين؟!.

» بصائر وأحكام

١- حكمة لقمان تُلخَّص في كلمة التوحيد ونفي الشرك، والتي وصَّى بها ابنه. ومن الشرك السلفية واتِّباع الآباء بغير علم. وحينما وصَّى لقمان ابنه بتجنب الشرك فكأنه أمره بألَّا يُسلم وجهه له إنما لربه.

٢- ومن حكمة لقمان أنه وعظ ابنه بعبادة الله، كما وصاه بسائر ما آتاه الله من الحكمة. وفي ذلك دلالة على أن تجارب الأمم لابد أن يتوارثها الأجيال ليأخذوا بأحسنها وأنفعها لهم.

» ضوابط العلاقة بالوالدين

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

***

من الحديث

عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ بِثَلَاثَةٍ مَقْرُونٍ بِهَا ثَلَاثَةٌ أُخْرَى: أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ صَلَاتُهُ. وَأَمَرَ بِالشُّكْرِ لَهُ وَلِلْوَالِدَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَأَمَرَ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ، فَمَنْ لَمْ يَصِلْ رَحِمَهُ لَمْ يَتَّقِ اللهَ**»[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ مِنَ

(١) وسائل الشيعة، ج٩، ص٢٥.

الْكَبَائِرِ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَأْسَ مِنْ رَوْحِ الله، وَالْأَمْنَ لِمَكْرِ الله..»[1].

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ أُمِّكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ أَحَداً، وَأَعْطَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا مَا لَا يُعْطِي أَحَدٌ أَحَداً، وَوَقَتْكَ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهَا وَلَمْ تُبَالِ أَنْ تَجُوعَ وَتُطْعِمَكَ، وَتَعْطَشَ وَتَسْقِيَكَ، وَتَعْرَى وَتَكْسُوَكَ، وَتَضْحَى وَتُظِلَّكَ، وَتَهْجُرَ النَّوْمَ لِأَجْلِكَ، وَوَقَتْكَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِتَكُونَ لَهَا، وَأَنَّكَ لَا تُطِيقُ شُكْرَهَا إِلَّا بِعَوْنِ الله وَتَوْفِيقِهِ.**

وَأَمَّا حَقُّ أَبِيكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَصْلُكَ، فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْمَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا يُعْجِبُكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ، فَاحْمَدِ اللهَ وَاشْكُرْهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله»[2].

عَنْ مُعَمَّرِ بْنِ خَلَّادٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام: أَدْعُو لِوَالِدَيَّ إِذَا كَانَا لَا يَعْرِفَانِ الْحَقَّ؟.

قَالَ عليه السلام: **ادْعُ لَهُمَا وَتَصَدَّقْ عَنْهُمَا، وَإِنْ كَانَا حَيَّيْنِ لَا يَعْرِفَانِ الْحَقَّ فَدَارِهِمَا؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بِالرَّحْمَةِ لَا بِالْعُقُوقِ**»[3].

عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ أَبَرُّ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أُمَّكَ**.

قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟.

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٢٧٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٧٥.
(٣) الأصول من الكافي، ص٢، ص١٥٩.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أُمَّكَ.**

قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أُمَّكَ.**

قَالَ ثُمَّ مَنْ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَبَاكَ**»[1].

عَـنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ قَالَ: قَـالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «**مَا يَمْنَعُ الرَّجُـلَ مِنْكُمْ أَنْ يَبَرَّ وَالِدَيْـهِ حَيَّيْنِ وَمَيِّتَيْنِ، يُصَـلِّيَ عَنْهُمَا، وَيَتَصَدَّقَ عَنْهُمَا، وَيَحُجَّ عَنْهُمَا، وَيَصُومَ عَنْهُمَا؛ فَيَكُونَ الَّذِي صَنَعَ لَهُمَا وَلَهُ مِثْلُ ذَلِكَ، فَيَزِيدَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبِرِّهِ وَصِلَتِهِ خَيْراً كَثِيراً**»[2].

عَـنْ مُعَـلَّى بْنِ خُنَيْسٍ عَنْ أَبِي عَبْـدِ الله عليه السلام قَالَ: «**جَاءَ رَجُلٌ وَسَأَلَ النَّبِيَّ** صلى الله عليه وآله وسلم **عَنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ فَقَالَ** صلى الله عليه وآله وسلم: **ابْرَرْ أُمَّكَ، ابْرَرْ أُمَّكَ، ابْرَرْ أُمَّكَ. ابْرَرْ أَبَاكَ، ابْرَرْ أَبَاكَ، ابْرَرْ أَبَاكَ. وَبَدَأَ بِالْأُمِّ قَبْلَ الْأَبِ**»[3].

عَـنْ عُمَرَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «سَـمِعْتُ أَبَا عَبْـدِ الله عليه السلام يَقُولُ: **شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ أَنْ تَحْمَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا**»[4].

عَـنْ أَبِي بَصِـيرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: هَلْ لِلشُّـكْرِ حَدٌّ إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ شَاكِراً؟.

قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ.**

قُلْتُ: مَا هُوَ؟.

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص١٥٩.
(٢) الأصول من الكافي، ج٢، ص١٥٩.
(٣) الأصول من الكافي، ج٢، ص١٦٢.
(٤) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٥.

قَالَ عليه السلام: **يَحْمَدُ اللهَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلٍ وَمَالٍ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقٌّ أَدَّاهُ..**»[1].

عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: **مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَعَرَفَهَا بِقَلْبِهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا**»[2].

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**فِيمَا أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى** عليه السلام **يَا مُوسَى! اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي.**

فَقَالَ عليه السلام: **يَا رَبِّ! وَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟!.**

قَالَ: يَا مُوسَى؛ الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي»[3].

عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ أَنَّهُ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فَقَالَ عليه السلام: «**الْوَالِدَانِ اللَّذَانِ أَوْجَبَ اللهُ لَهُمَا الشُّكْرَ هُمَا اللَّذَانِ وَلَدَا الْعِلْمَ وَوَرِثَا الْحُكْمَ وَأُمِرَ النَّاسُ بِطَاعَتِهِمَا. ثُمَّ قَالَ اللهُ:** ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ **فَمَصِيرُ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْوَالِدَانِ. ثُمَّ عَطَفَ الْقَوْلَ عَلَى ابْنِ حَنْتَمَةَ وَصَاحِبِهِ فَقَالَ -فِي الْخَاصِّ وَالْعَامِّ-:** ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾، **يَقُولُ فِي الْوَصِيَّةِ: وَتَعْدِلُ عَمَّنْ أُمِرْتَ بِطَاعَتِهِ فَلَا تُطِعْهُمَا وَلَا تَسْمَعْ قَوْلَهُمَا.**

ثُمَّ عَطَفَ الْقَوْلَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ **يَقُولُ: عَرِّفِ النَّاسَ فَضْلَهُمَا وَادْعُ إِلَى سَبِيلِهِمَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:**

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٥.
(٢) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٦.
(٣) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٨.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فقال: **إِلَى الله ثُمَّ إِلَيْنَا فَاتَّقُوا الله وَلَا تَعْصُوا الْوَالِدَيْنِ فَإِنَّ رِضَاهُمَا رِضَا الله وَسَخَطَهُمَا سَخَطُ الله**»[١].

عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شَاذَانَ عَنِ الرِّضَا عليه السلام فِي كِتَابِهِ إِلَى الْمَأْمُونِ قَالَ: «**وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَاجِبٌ، وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ، وَلَا طَاعَةَ لَهُمَا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ وَلَا لِغَيْرِهِمَا، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[٢].

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ: «سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: -وذكر كلامًا طويلًا وفي أثنائه- **لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ حُبُّهُ لِمَعْصِيَةِ الله، فَلَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَتِهِ وَلَا طَاعَةَ لِمَنْ عَصَى الله..**»[٣].

قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «.. **أَطِيعُوا آبَاءَكُمْ فِيمَا أَمَرُوكُمْ، وَلَا تُطِيعُوهُمْ فِي مَعَاصِي الله**»[٤].

فِي رِوَايَةِ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: «﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يَقُولُ: **اتَّبِعْ سَبِيلَ مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله وسلم»[٥].

تفصيل القول:

١- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾

(١) الأصول من الكافي، ج١، ص٤٢٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٥٥.
(٣) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٢٩.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٢٨١.
(٥) بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠٩.

الشكر وضدّه الشرك، وبينهما الإحسان؛ هذه ثلاث مفردات نجدها في الآيات القرآنية الشريفة أعلاه. ورغم أن مفردة الإحسان لم ترد بصراحة، إلّا أنها جاءت في سياقات قرآنيّة مماثلة.

فحينما يكون الشكر لله سبحانه وتعالى، فلابدّ أن يتحوّل إلى عبادة؛ إذ شكر الله عبادته، بل أرقى ألوان العبادة. ولابد أن يتمثل في طاعة مطلقة للرب؛ لأن لله الحاكميّة التامّة على الإنسان، فهو الله، الخالق، بيده الأمر، وإليه المصير.

ولكن حياة الإنسان لا تتحمّل عبادتين، ولا يجتمع حبّان متناقضان في قلب ابن آدم. وبالتالي، لا يمكن للقلب أن يتسع لإلهين، وإنما هو إله واحد، لا إله إلّا هو الأحد، الفرد الصمد، لا شريك له.

وهكذا؛ فإن علاقة الإنسان بغير الله تعالى، إذا كانت في امتداد العلاقة بالله، فهي علاقة سليمة. ومثال ذلك: أننا نحب المؤمنين ونطيع أولياء الله. فنتيجة هذا الحب والطاعة، هي حب الله وطاعته.

أمّا إذا كانت العلاقة علاقة ندية، وخاليةً من العلاقة بالله؛ فهي علاقة شركية، لا يمكن القبول بها أبدًا.

ضوابط العلاقات

ومن أجل بلورة هذه الرؤية -وهي رؤية دقيقة وحاسمة في حياة الإنسان المخلوق- لابدّ من القول:

إنّ أقرب الناس إلى الإنسان وأحقّهم بالإحسان منه، هم الوالدان، وبالذات أُمّه. إذ هي التي تبدأ بها علاقته بغيره، باعتبارها

التـي ولدته، ثـم هي التي ترعاه وتحتضنه وترضعه، ومن ثم تتسـع هـذه العلاقة لتعود إلى الأب الذي أخرج الإنسـان من صلبه بادئ بدء، ومن ثم إلى الآخرين؛ حسب مواقعهم وأدوارهم المتنوّعة.

فكان حريًّا بالإنسان أن يرسم علاقته بغيره، ابتداءً من ترسيم علاقته بالله سبحانه، فينظمها ويجعل لها ضوابط محدّدة. وهذا الترسيم قد كفانا الرب عناءَه، حيث أكَّد على ضرورة أن تكون علاقةالإنسان بأُمّه علاقة شكر، لأنها حملته وهنًا على وهن واحتضنته وسهرت عليه وأتعبت نفسـها من أجله ووهبته من عصارة حياتها. وكلّ هذا العناء قـد بذلته الأُم لينمـو ابنها الصغير ويترعرع، مع أمنياتها له بالسـعادة والسرور، ودفاعها عنه دفاع المستميت.

لا شكر مع شرك

ولكن الشـكر -مـع كلّ ذلك- ينبغـي أَلَّا يتحوّل إلى طيف من أطياف الشرك؛ أي إلى الطاعة المطلقة، وإلى العبوديّة. وقد تقدّم القول، بأن الطاعة والعبوديّة لا تكون إلَّا لله سـبحانه وتعالى. وإذا كان الله قد أمر بطاعة الوالدين، فإنما نُطيعهما طاعةً له عزّ اسمه.

أمّا إذا اختلفت الحالة، فأمر أحد الأبوين بما يخالف أمر ربّ العالمـين؛ أي بالقيام بعمل لا يرضاه الله ويتنافى مع طاعته.. إذ ذاك يكـون الإنسـان أمام مفترق طـرق؛ فإمّا أن يعبـد الله أو يعبد أباه.. فإذا عبد أباه، خرج عن طاعة الله، وتورّط في رذيلة الشرك. علمًا أن للشرك درجات ومستويات؛ منها شرك الركوع والسجود، ومنها شرك الطاعـة التـي لا تصب في طاعـة الله تعالى.. فيـما الله قد حرّم على الإنسـان أن يرسـم لنفسـه خارطة الطاعة، ولم يُجز له أن يُشرّع لذاتـه قانونًا يخـرج به عن قانونه هو عزّ وجلّ، وهو القائل في محكم

كتابه المجيد: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[1]، فيما التشريع، وتحديد نوع الطاعة -التي هي عبادة في حقيقتها- خاص بالله وحده، لا شريك له.

يقول ربّنا المتعال في الآية الخامسة عشرة من سورة لقمان: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾.

فأي شرك هذا؟ وهل هناك والدان يأمران ولدهما بأن يسجد أو يركع لهما أو لصنم؟.

» حياة الإنسان لا تتحمّل عبادتين، ولا يجتمع حبّان متناقضان في قلب ابن آدم. وبالتالي، لا يمكن للقلب أن يتسع لإلهين، وإنما هو إله واحد.

أقول: إن الآباء ليس من طبعهم عادة أن يأمروا أولادهم بمثل هذا، وإنما يطلبون منهم شرك الطاعة؛ أي يأمرونهم بما يخالف تعاليم الدين ويتعارض مع الشريعة.

وهنا أمرنا الله عزّ وجلّ بأن نتخذ موقف المواجهة. نواجه الوالدين ونواجه الشعور بضرورة إطاعة الوالدين وإبداء الشكر لهما. فإذا تحدّى الولد الوالدين، حدثت تجاههما حركة احتكاكيّة وتحادُد، وهي التي نسمّيها بالمجاهدة. ولذلك يعبّر القرآن بقوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾؛ أي حاولا إخضاعك بشتّى الوسائل وأنواع الضغوط لحملك على طاعتهما؛ خلافًا لما فيه طاعة الله تعالى.

والواقع أن الوالدين هما القناة الأولى للارتباط بالمجتمع، وعادةً يتعرض الفرد لتيار الضغط الاجتماعي من خلالهما، ويعتبر مجاهدتهما الخطوة الأولى في سبيل الاستقلال وتجنُّب التسليم للمجتمع الفاسد.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢١.

فإذا قلنا بأن الشرك هنا هو شرك طاعة وليس شرك عبادة، فالآية نهت عن إطاعتهما، وأمرت بالشكر لهما: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾.

الإحسان شكرٌ

ولكن كيف يكون الشكر لهما؟.

لا ريب في أن الشكر لهما لا ينحصر بالألفاظ فقط، وإنّما الآية التالية تصوّر لنا هذا الشكر المطلوب، إذ قال عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾[1].

والإحسان هو التقدّم لهما بما هو مستطاع من الخدمة، وهو يدل على مفهوم أوسع من مفهوم العدل، الذي هو الردّ بالمثل. أمّا الإحسان؛ فهو العطاء عن طيب قلب، بلا مقابل، أو أعلى من المقابل، بلا خضوع أو استسلام. وهذا هو الخط الفاصل بين الطاعة والشكر. إذ الشكر أمر ضروري، فيما الطاعة العمياء، والطاعة المنفلتة عن طاعة الله، أمر مرفوض وواقع مذموم ومنهي عنه.

والله سبحانه وتعالى قد وضع بهذه المنهجيّة الرصينة والواعية حصنًا دون انحراف الأجيال، باعتبار أن الطاعة العمياء من جانب الأولاد لآبائهم وأُمهاتهم تؤدّي إلى تصاعد احتمال الانحراف في أنفسهم وسلوكيّاتهم؛ هذا الانحراف الذي لابدّ أن يكون له مردوداته السلبيّة على أولاد هؤلاء الأولاد فيما يلي من الزمن.

ومثل ذلك، مثل الأمر الصادر عن الله تعالى في إطاعة أولي الأمر، ولكن ليس كلّ ذي أمر، وإنما هم أولو الأمر الذين يختارهم

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

ويُعيِّنُهـم هو دون غيرهم، لأنهم هم الذين يعكسـون بدقّة وصفاء الخط الذي رسمه الله عزّ وجلّ للناس.

قـال الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾(1).

فإطاعـة الرسـول تصـب في نفـس الاتجـاه لطاعـة الله، لأنّ الرسول يبلغ الناس شرع الله، فيزكّيهم ويطهّرهم ويتلو عليهم آياته ويعلّمهـم. وأولـو الأمر لا يمكـن تصوّرهـم إلَّا إذا كانوا يضعون أقدامهم على آثار أقدام الرسـول، ويستلّون شرعيّتهم من شرعيّته، التي هي من أمر الله تعالى.

شرك الطاعة

وهنا؛ لابدّ من وقفة تأمّل أساسيّة فيما نرى اليوم من ثقافات شـيطانيّة خطرة منتشرة؛ تدّعي أن زيارة قبور الأولياء والاستشفاع بهم إلى الله سبحانه وتعالى نوع من الشرك، ويستحلّ أصحاب هذه الثقافـات والمروّجون لهـا دماء الناس وحرماتهـم. والحال نجدهم في الوقت ذاته يمارسـون شرك الطاعـة ويخضعون للحكّام والملوك والأمـراء وذوي الثروة خضوعًا تامًّا، حتى ولو أن هؤلاء المطاعين كانوا الأكثر فسـقًا وإجرامًا وانحرافًا عن شريعة السماء. كما نشاهد اليوم في كثير من بلاد العالم جرائم الإرهابيين من أتباع هذا المذهب الهـدام، حيث يُقتل الأبريـاء ويُذبح الأطفال بداعـي الطاعة لأمير الجماعـة، إن هذه الطاعـة العمياء هي الشرك بذاتـه، أما زيارة قبور أوليـاء الله فإنهـا إذا كانت أقامة لشـعائر الدين، وإظهـارًا للاهتمام بالديـن، فإنهـا من صلـب التوحيد، وقـد قال الله سـبحانه: ﴿وَلَوۡ

(1) سورة النساء، آية: 59.

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1].

والرّسول ﷺ قال -برواية جميع المسلمين-: «**حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ**»[2]. كما قال أيضًا: «**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ إِمَامَانِ، قَامَا أَوْ قَعَدَا..**»[3].

» إن الوالدين هما القناة الأولى للارتباط بالمجتمع، وعادةً يتعرض الفرد لتيار الضغط الاجتماعي من خلالهما، ويعتبر مجاهدتهما الخطوة الأولى في سبيل الاستقلال وتجنُّب التسليم للمجتمع الفاسد.

ترى أعداء أهل البيت عليهم السلام والناصبين بالبغضاء لمحبّيهم يرمونهم بتهمة ممارسة الشرك، ولكن هؤلاء الأعداء النواصب أنفسهم يشركون -من حيث يشعرون في غالب الأحيان، أو لا يشعرون- بإطاعة شخص لا هو رسول ولا إمام ولا عالم يمكن الاقتداء به، بل هو إنسان أقل من بسيط في علمه وورعه، مخالفًا في ذلك ربّه ورسوله وقرآنه، بل ويخالف الشرائع كلّها.

والحقيقة الواضحة هي أن الزائر حينما يقصد قبر النبي أو الإمام أو قبر أحد من ذريّتهم الصالحة، فيدعو الله تعالى، فيستشفع؛ أي يتخذ منه شفيعًا إلى ربّه، إنما يطبق قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾[4]، إذ الرسول ومن يُمثّل الرسول من بعده يدعو للزائر العارف بحقّه ويُؤَمِّنُ على دعائه، ويشفع له عند الله ليقبل دعاءه.

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٢) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، للحافظ محب الدين الطبري، ص١٣٣. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٦١.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٩١.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٤.

ولذلك، فقد ورد عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ «أَنَّهُ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فَقَالَ: **الْوَالِدَانِ اللَّذَانِ أَوْجَبَ اللهُ لَهُمَا الشُّكْرَ هُمَا اللَّذَانِ وَلَدَا الْعِلْمَ وَوَرِثَا الْحُكْمَ وَأُمِرَ النَّاسُ بِطَاعَتِهِمَا**»[1].

والمقصود بهما: النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّةِ**..»[2]، أي أن لهما الحقّ الأكبر في رقاب المسلمين إلى يوم القيامة. وهذا هو التفسير الشرعي الصحيح والدقيق لحقيقة الآية الشريفة. مع الإيمان التام بشمول ظاهر مفرداتها للأبوين السببيين.

إذن، فالثقافة الخاطئة التي تنتهي إلى طاعة المخلوق على حساب طاعة الخالق، ينبغي أن تُهجر كلّيًّا؛ سواء كان هذا المخلوق فردًا عاديًّا أو أحد الوالدين، أو كان سلطانًا أو أميرًا لجماعة؛ لأن هذه الثقافة من وساوس الشيطان، الداعية إلى التغرير بالإنسان، خصوصًا إذا كان هذا الإنسان متشدّدًا بجهله وتعصّبه الأعمى وضميره الميّت، فتراه ينجر إلى رغبات الشيطان، ويزداد تطرّفًا، حتى يكفّر الآخرين ويُريق دماءهم، ضمن أفكار منحرفة عن الدين والوجدان والعقل.

» طاعة الرسول نصب في نفس الاتجاه لطاعة الله، لأنّه يبلغ الناس شرع الله، فيزكّيهم ويطهّرهم ويتلو عليهم آياته. وأولو الأمر لا يمكن تصوّرهم إلا إذا كانوا يضعون أقدامهم على آثار أقدام الرسول.

والأدهى من الممارسة الإجراميّة، عمليّة التنظير والفتوى التي تقف وراءها، وهي الصادرة عن أُناس لا علم لهم ولا بصر ولا بصيرة، ويردّدون بعض المقولات التي لا أساس لها من الصحّة، هذا بغض النظر عن

(١) الأصول من الكافي، ج١، ص٤٢٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٣٦، ص١١.

علاقاتهم المشبوهة بأعداء الإسلام.

والدليل على ذلك، نوع خطاباتهم وأفكارهم وطبيعة ممارساتهم التي لا ولن تصب في صالح الإسلام والمسلمين، شأنهم في ذلك شأن وعّاظ السلاطين الذين كانوا يلعقون موائد بني أميّة، ويقبضون ثمن تشويههم لمفاهيم الإسلام، وتوزيع الاتهامات لمن قام الإسلام على أكتافهم؛ مثل أبي طالب والد أمير المؤمنين عليه السلام، وهو العدوّ اللدود لبني أميّة وثقافتهم الشيطانيّة، فاتهموا أبا طالب بالشرك انتقامًا من أمير المؤمنين عليه السلام، وتغطيةً على شخصيّة أبي سفيان الذي قضى عمرًا طويلًا في محاربة الرسالة المحمّدية حتى مات دون أن يؤمن بالله طرفة عين.

بل إن من المطيعين لغير الله طاعةً عمياءَ مَن تجده يمجّد شخص أبي سفيان ويجعل له حظًّا وفيرًا من العاقبة الحسنى، ودافعه في ذلك التزلّف لحكّام بني أميّة ومن هو سائر على خطّهم إلى يومنا هذا.

ومن تَشدُّد هؤلاء وتعصّبهم الأعمى، تقليدهم لمن يعتبرونهم علماء ومفتين، ممن يُكفِّر من يقول بكرويّة الأرض. ومثل هؤلاء من يعمل على تشويه صورة الدين الإسلامي في عيون غير المسلمين، خصوصًا مع انهيار العالم الماركسي وفشل النظريّة الرأسمالية في إدارة العالم، مما يتيح للمسلمين ودينهم الحنيف المزيد من الانتشار.

ولكن الجهل المركّب لدى البعض، والتقليد الأعمى من قبل آخرين، وإفراطهم المتعمّد لاستخدام العنف -مع بطلانه أساسًا- ضد من لا يوافقهم الرأي، وتبعيتهم لأئمة الكفر.. كلّ ذلك أدّى إلى ابتعاد البشريّة -إلى حدّ ملموس- عن أصالة الإسلام

وحقائقه النورانيّة.

وعوداً على بدء، نجد أن الله تبارك وتعالى يوصّي الإنسان بوالديه، ويؤكّد مكانة الأُم باعتبارها الجهة التي تبذل مزيدًا من الجهد، من ناحية، وكذلك لأنها تعاني واقعًا مزريًا لأنها الحلقة الأضعف.

ولذلك، كان من الحري بكلّ إنسان أن يولي الأُم مكانتها اللّازمة، وذلك عبر الإحسان (إليها) الذي قد يسد مقدارًا مما عانته خلال أدائها مسؤوليتها تجاه وليدها.

مراحل الشكر

ثم إن الشكر ينبغي أن يكون لله أوّلًا، ويليه الوالدان، لأنّ الله هو خالقهما، وهو الذي ألقى بحبّ الأطفال في قلبيهما، ولولاه ما كان الآباء والأُمهات ينجذبون إلى صغارهم أبدًا.

وهذا الشكر الخاص بالوالدين ينبغي أيضًا أن يكون لوجه الله تعالى، بسبب أن المصير النهائي إلى الله تعالى، فلا حاجة تبقى إلى إحداث الفصل بين الشكر لله والشكر للوالدين.

هذا بالإضافة إلى بطلان تفكير من يجد ضرورة في الذوبان في أفكار وتوجّهات الوالدين، كطريقة لإثبات المحبّة والتعلّق بهما. وإنما المفترض القول بأنّ لكلّ جيل أسلوبه في الحياة، مع المحافظة على الثوابت الدينية والأخلاقية، لأن التجديد ضرورة إنسانية لأننا نسعى من أجل تكامل البشر وتصاعد الأجيال، حيث يجب على كلّ جيل أن يسعى لبناء حياةٍ أفضل وأرقى مما بناه الجيل السابق له. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾.

وقد توقّفنا -فيما سلف من البحث- عند كلمة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ في الآية السادسة، حيث قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ وقلنا هناك: إن هذه الكلمة توحي بجعل العلم محورًا للدين؛ أي ألَّا نتبع شيئًا من الدين إلَّا بما نعلم.

فإذا نسب شخص ما رأيًا إلى الدين، طالبناه بالحجّة والبرهان، أي: طالبناه بآية محكمة، أو سنّة متواترة، وإمّا عقل يتفق العقلاء على رشده.

» الثقافة الخاطئة التي تنتهي إلى طاعة المخلوق على حساب طاعة الخالق، ينبغي أن نُهجر كلّيًا؛ سواء كان هذا المخلوق فردًا عاديًا أو أحد الوالدين، أو كان سلطانًا أو أميرًا لجماعة.

والأزمة المشكلة تكمن في كثير من الأحيان أن الآباء أو أفراد الجيل السابق وما لديهم من آليات ضغط، يحاولون الهيمنة على الجيل اللَّاحق، مستفيدين حتى من الدين.

ولكن؛ أين هو الدين؟ ومن هم ذوو الصلاحية في التحدّث باسم الدين؟.

إنه في كتاب الله تعالى، وفي سنّة الرسول ﷺ، وفي منهج أهل البيت عليهم السلام، المنهج الذي نعرف سلفًا أنه مستقى من المصدرين الأوّلين، وفي الإجماع الذي يعكس الكتاب والسنّة، وفي العقل الصريح الذي يتمتّع به من جَمَعَ في نفسه المؤهّلات التي طالما تحدّثت عنها المصادر الدينية، ونقصد به الفقيه والمرجع الكريم.

أمّا دون ذلك، فمن تحدّث عن الدين، فله أن يتحدّث مليًّا، ولكن عليه أن يأتي بالدليل القاطع والحجّة الواضحة.

مساحة طاعة الوالدين

وإضافة للآية السادسة في سورة لقمان، يقول ربّنا المتعال هنا: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾ أي:

لا تطع إلَّا من علمت أنه يعبّر عن إرادة الله وحكمه في المحتوى والأداء.

وبناءً على ما تقدّم، يفترض بالعلاقة بين الإنسان ووالديه، وبينه وبين المعلّم، أو المصادر الأخرى مثل الكتب والصحف والإذاعة والقناة الفضائيّة ومواقع الأنترنت وغير ذلك، أن تكون علاقة واعية؛ ذلك لأنّ الله عزّ وجلّ قد قال في محكم كتابه الكريم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

وهكذا وصف عباده الصالحين بأنهم لا يتبعون كلّ قول، ولا يميلون مع كلّ ريح، وإنما هم يتبعون الأحسن؛ أي يبحثون عن الأفضل ليبنوا الواقع الأسمى.

وهنا يقول: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: أن المقياس في الطاعة -وإن تعاظمت ضغوط الوالدين على الولد- هو إرادة الله وحكمه.

» طاعة الرسول تصب في نفس الاتجاه لطاعة الله، لأنه يبلغ الناس شرع الله، فيزكّيهم ويطهّرهم ويتلو عليهم آياته. وأولو الأمر لا يمكن تصوّرهم إلا إذا كانوا يضعون أقدامهم على آثار أقدام الرسول.

وحيث إن مشيئة الله تعالى هي السلام، وغايتها إرساء أواصر المحبّة والعدل بين أفراد الأسرة، فإنّ القرآن الكريم يبيّن ما يخفف الحدّة المتوقّع حصولها جرّاء مجاهدة الآباء أولادهم لحملهم على الطاعة، وجرّاء تمرّد الأولاد على أوامر الآباء فيما لا يُرضي الله تعالى، فيقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ إذ لابدّ من برّ الوالدين، مؤمنين كانا أو فاجرين، مادامت العلاقة هي العلاقة؛ أي علاقة الأبوّة والبنوة؛ سواء كانا مؤمنين أو فاجرين.

(١) سورة الزمر، آية: ١٧ - ١٨.

وكلمة: ﴿مَعۡرُوفٗا﴾ الواردة هنا، تفسّرها كلمة قرآنيّة ترد بعدها، وهي: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ بمعنى إسداء المعروف الذي رسمته الشريعة في التعامل بين الطرفين.

هذا ما قاله الدين، إلّا أن من الأولاد المؤمنين المتمرّدين على أوامر الوالدين غير الشرعيّة.. من يواجه ردود أفعال شديدة من قبل الوالدين، قد تنتهي إلى الطرد من إطار الأسرة، والتبرؤ من الانتساب إليهما بداعي الخلافات الدينيّة والفكريّة.

غير أن الله تعالى -إزاء هذا الواقع الصعب- يُعطي للولد خير سبيل وحل، فيقول: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ﴾.

أي: ابحث عن النماذج الطيّبة في المجتمع، واقْفُ أثر الصالحين، وهم المنيبون إلى الله تعالى، الذين سرعان ما يتوبون إلى ربّهم إذا ما صدر عنهم الخطأ. أي: الذين لديهم المعيار الأصيل في حياتهم؛ المعيار المتمثّل بمعرفتهم حكم الله عزّ اسمه.

٢- ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

فالمرجع الحقّ هو الله -في الدنيا والآخرة- وهو الذي يرسم منهج الحياة، وهو المالك ليوم المعاد. وحتى إن نفع الأبوان ولدهما في الدنيا، فهو نفع مؤقّت ولفترة معيّنة، إلّا أن النفع الأكبر هو عند الله سبحانه وتعالى، إذ عنده الجزاء الأوفى لمن يشكره ويطيعه ولا يطيع الأنداد من دونه عزّ وجلّ.

واقعيّة الدين

ومما نستنتجه من خاتمة هذه الآية المباركة، أن على الفرد المؤمن ألّا يُذهب نفسه على الآخرين حسرات لغرض إقناعهم بأفكاره،

لا سيّما وأن وجود الخلافات في دار الدنيا أمر ثابت. ومادامت الدنيا دار فتنة وابتلاء، فهي دار غموض وغرور، ويعتريها الكثير من أوجه اللبس. ولذلك، فإن كثيرًا من قضاياها -وخصوصًا العقائديّة منها- مُحالة إلى يوم القيامة، حيث تُكشف الحقائق وتُبلى السرائر، فيتضح الحقّ للجميع، ويُعرف آنذاك لماذا آمن هذا، في حين أشرك ذاك.

أمّا في الدنيا، فسيبقى أُناس يعتقدون بفكرة، وآخرون يؤمنون بغيرها، وطائفة تستميت عنادًا وعتوًّا. ولا يمكن ضبط العقائد؛ لأنها من أعقد ما اختلف عليه الناس، ولأن الدنيا دار امتحان، وليست دار جزاء.

هدف العلاقة

وانطلاقًا من الإقرار بمقولة: إن رضا الناس غاية لا تدرك، فإن من الضروري للإنسان المؤمن، أن يجعل لنفسه نوعَ هدفٍ مميّز من خلال رأيه بالآخرين وبمقولاتهم. وهذا ما يستدعي أن تكون لديه قدرة فائقة على الإقناع، وعلى معرفة العدل في التعامل مع الآخرين، لكيلا يُبتلى -في خضم الاختلاف- إلى طرد هذا أو تقريب ذاك.

» المشكلة تكمن في كثير من الأحيان أن الآباء أو أفراد الجيل السابق وما لديهم من آليات ضغط، يحاولون الهيمنة على الجيل اللاحق، مستفيدين حتى من الدين.

فالولد مطالب بالتعامل بالحسنى مع من أُمر بالتعامل الطيّب معه. وفيما يتصل بالعلاقة مع الوالدين، إنه مطالب بالتذلل لهما فيما يتعلّق بالشؤون الماديّة البحتة، وعليه أن يستجيب لهما فيما لا يخالف أوامر الله سبحانه وتعالى.

وأما الوالدان فإنهما ملزمان بألّا يتعاملا مع الولد -ذكرًا كان

أو أنثى- حينما يشب ويكبر على أنه ما يزال طفلًا صغيرًا، كما عليهما أن يعيا بأن لكل فترة زمنيّة شروطها وأوضاعها، وأيضًا جيلها الخاص بها، وأن لكلّ جيل أعرافه وخصوصيّاته. وهذا الوعي هو الذي يساهم في المحافظة على التوازن الاجتماعي، ويدرأ احتمال حدوث الخلل، بما يسمى اليوم بصراع الأجيال.

» إن الله وصف عباده الصالحين بأنهم لايتبعون كلّ قول، ولا يميلون مع كلّ ريح، وإنما هم يتبعون الأحسن؛ أي يبحثون عن الأفضل ليبنوا الواقع الأسمى.

فالاحترام والشفقة أمران مطلوبان، كما أن إتاحة الفرصة للتقدّم مطلب ضروري. وهذا ما يشير إلى أهميّة إيلاء جانب الثقة مساحته المطلوبة. فكما أن الآباء والأُمهات كانوا صغارًا ثم شبّوا وأصبح لهم أُسر وخَلَف، كذلك الأولاد هم في طور النمو، ولهم كامل الحقّ في أن تكون لهم شخصيّاتهم المستقلّة، خصوصًا فيما لا يمس مكانة واحترام الأبوين.

وحيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]، فيعني الاحترام والاهتمام وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه والتفضّل عليهم حسب الظروف والإمكانات المتاحة.

أمّا بخصوص ولاية الآباء، فهي خاصّة بالصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولكنّه إذا شبَّ عن الطوق، انتهت ولاية الأب على الصغير. وهنا يأتي دور المعروف والإحسان ومزيد من الاحترام. وقد بيّن الفقهاء حدود هذه الولاية تجاه الابن والبنت، ويبقى أن للآباء حقّ الاهتمام بالأولاد من خلال نصحهم وتوجيههم بسبب ما أودع الله تعالى في قلوبهم من الحنان والعطف تجاه الأولاد. وقد وجدنا في لقمان نموذجًا رائعًا في تطبيق هذه المقولة. والصحيح

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

في الأمر -بشكل عام- أن يعمد الوالدان إلى اختصار تجاربهم، وتحويلها إلى حكم، ونقلها إلى أولادهم.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن العصر الحاضر هو عصر تعدّد مصادر الثقافة والتوجيه، ولا سيّما مصدر الشاشة الصغيرة ذات التأثير البالغ، مما يدعو الوالدين إلى مضاعفة جهودهم في وضع سبل الوقاية والعلاج من الدور السلبي للفضائيات ومواقع الأنترنت. تبعًا لمردود آليات التأثير التي تستخدمها هذه المصادر، وتبعًا لمدى انفتاح ذهنيّة الأولاد كما لم تكن عليه في الفترات السابقة.

» بصائر وأحكام

١- لابد أن ينظم الإنسان علاقته بالآخرين في إطار علاقته بربه والتي هي الأساس، فالعبادة لله والإحسان إلى الخلق، وكلاهما شكر، وهكذا تحتمل حياة البشر عبادتين فمن عبد الخلق لم يعبد الرب.

٢- ولأن الوالدين يشكلان الحلقة الاجتماعية الأولى فإن رفض الشرك قد يدعو إلى مجاهدتهما إذا أمراه بما حرَّم الله أو نهياه عما أمر الله.

» المسؤولية تجلي الحكمة

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾

***

من الحديث

رَوَى الْعَيَّاشِيُّ عَنِ ابْنِ مُسْكَانَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا طَالِباً. لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: أُذْنِبُ وَأَسْتَغْفِرُ الله تَعَالَى إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ:** ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ ...﴾ الْآيَةَ..»[(١)].

تفصيل القول

لا نزال نسير في رحاب هذه السورة المباركة التي يبدو أنها تمنحنا الحكمة لدى التدبّر فيها. الحكمة التي هي ميراث الشكر، والتي هي ضالّة المؤمن، ووسيلة التكامل الإنساني، وآلية السعادة والفلاح.

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص٢٠.

العطاء والتعامل الحكيم

والآيات الكريمة هنا تبين لنا جوانب من هذه الحكمة الإلهية وأبعادهـا. ومن أهم هذه الجوانب؛ التوازن في المعاملة، لأن تعاون الإنسـان مع المحيط الذي يعيش فيـه، أمر لابد منه. والحلقة الأولى في هـذا المحيـط، تتمثل في نطـاق الأسرة، ومن خـلال التعامل مع الأسرة تنمـو عند الإنسـان الحكمة العملية التـي تمكّنه من التعرّف إلى الأسلوب الأنسب والأمثل للتعامل.

والعلاقات الحسـنة (المطلوبة) هـي العلاقات الفاضلة التي يتولّد عنها العطاء؛ أي أن الإنسـان في خضم هذا النوع من العلاقة التـي يعطـي فيها للآخرين أكثـر مما يريد أن يأخـذ، وإذا أخذ منهم شيئًا يشكرهم، وشكره هذا دليل على أنه -في نهاية المطاف- يسعى إلى إعادة حقوقهم والوفاء بها، ولو إعادةً معنويّة؛ أي أنه طاردٌ منذ البدء من نفسـه نيّة الاسـتغلال لهم، فتراه يُسـدي إليهم ما يستطيع من خدمة في مقابل ما نال من خدمة.

والوالدان هما أوّل من يُسـديان للإنسان الخدمة الجزيلة من خلال عطفهما وحنانهما وعطائهما وسهرهما على راحته، وبالتالي من خلال رعايتهما وتربيتهما له.

والولـد لابـدّ أن يشـكرهما في إزاء هـذه الخدمـة التـي لا تضاهـى. ولكـن هذا الشـكر لا يفترض بـه أن ينتهـي إلى أن يفقد الإنسان مسؤوليته تجاه الحياة الفاضلة التي يطمح إلى تحقيقها، لأنه مسؤول عنها أيضًا.

فمـن جهة، هو يشـكر الوالدين، ومن جهة يجد نفسـه يقف

وحيدًا في يوم القيامة، كما هو شأن كلّ إنسان في ساحة الحشر، ليحاسب على عمله، ولا يستطيع أن يرمي بالمسؤولية على والديه ليبرر أخطاءه، أو يعتذر عن مساوئ أعماله.

توازن أداء المسؤوليات

إذن؛ فثمّة توازن في البين يجب أن يُراعى ويحمل على سبيل الحدّ. ونجد هذا التوازن في سياق الآيات الشريفة من سورة لقمان.

ففي زاوية نجده سبحانه يؤكّد قائلًا: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾[1]، حيث يأمر الإنسان بالشكر لوالديه والتعامل بالحسنى معهما.

أمّا في آية أخرى نجده يقول: ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾، بما يشير إلى خطير مسؤولية الإنسان تجاه أعماله ولو بمقدار الحبّة والذرّة، أينما كانت.

والطاعة للوالدين وشكرهما والتعامل معهما، لا يمكن أبدًا أن يُصبح تبريرًا لعدم تحمّل المسؤوليات الأخرى؛ سواء على صعيد الأفكار والعقائد، أو على مستوى الأعمال.

مما يجدر بالإنسان أن يستغل جميع لحظات حياته، وجميع النعم والإمكانات المتاحة لديه، ليستفيد منها حكمة تدله على ممارسة الحياة الفاضلة، وتمكّنه من إحراز التكامل الروحي والعقلي والسلوكي. فلا تكون الآيات والروايات التي يقرؤها أو يسمعها، ولا تكون المناسبات الطيبة التي يعيشها، مجرّد لقلقة لسان وتمضية

(١) سورة لقمان، آية: ١٤.

وقت، بل عليه أن يتخذ منها مدعاة للتفكير الجدّي في رسم واقعه ومصيره المنتهي إلى الله عزّ وجلّ.

وربّنا المتعال يبيّن هنا خطّين متوازنين، وينبغي لنا أن نختار من بينهما الطريق الوسط. فهناك من يُشرك بالله تحت ضغوط الوالدين، والله ينهى عن ذلك، كما هو واضح، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وهناك من يتمرّد على الوالدين ولا يعترف بحقّهما، فلا يشكرهما.

وفي سورة الأحقاف المباركة يضرب لنا الله سبحانه وتعالى مثلاً لنمطين من الناس فيما يتعلّق بعلاقتهم بآبائهم وأُمهاتهم، وقد أشرنا إلى ذلك في درس مضى ونعيده بتفصيل:

١ - **النمط الأوّل** ذو علاقة إيجابية.. إذ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ فهو في البدء طلب من الله أن يعطيه القوّة ويمنحه التوفيق لكي يشكره، ثم بعدئذٍ: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[(١)].

فهذا الداعي كانت علاقته الأُولى بالله سبحانه وتعالى، أمّا علاقته بالوالدين فهي علاقة ثانوية ومنبثقة عن العلاقة الأُولى، ومن خلال علاقته الطيّبة بالوالدين تراه يسأل ربّه دائمًا أن يوزعه شكر هذه النعمة، نعمة الله عليه وعلى والديه.

٢ - **أمّا النمط الآخر**، فهو ما تُبيّنه الآية السابعة عشرة من

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

السورة نفسها، حيث صوَّر الله حالة شخص آخر مختلف عن الشخص الأول، إذ يقول لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١).

ومثل هذا ينتسب إلى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾(٢).

» الطاعة للوالدين وشكرهما والتعامل معهما، لا يمكن أبدًا أن يُصبح تبريرًا لعدم تحمّل المسؤوليات الأخرى؛ سواء على صعيد الأفكار والعقائد، أو على مستوى الأعمال.

أمّا الأوّل فينتسب إلى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾(٣).

إذن؛ فنحن أمام نمطين من الناس: نمط يتصل بوالديه، ولكن علاقته بربّه أقوى وأوثق، مستفيدًا منها -العلاقة بالوالدين- لتنمية عقله وتحسين عمله، في حين أن علاقته بالله علاقة الطاعة والعبوديّة.

ونمط آخر؛ هو خاص بالمتمرّدين، هؤلاء الذي يعاني منهم الواقع البشري والحياة الإنسانية كثيرًا، وهم الجيل الطاغي الذي يذهب إلى حيث الانفصال عن التاريخ بحجّة إرادة التجديد.

والحديث -في حقيقة الأمر- ينقسم إلى قسمين بهذا الصدد:

١- واجبات الوالدين تجاه أبنائهم.

٢- ما يتعلّق بآداب تعامل الأولاد مع آبائهم.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٧.
(٢) سورة الأحقاف، آية: ١٨.
(٣) سورة الأحقاف، آية: ١٦.

الأسرة أصل الحياة الإنسانية

ونظرًا إلى أن الأسرة هي الأساس في الوجود الإنساني، وأن الأسرة الفاضلة هي اللبنة الأصلية في حضارة الأمّة، ونظرًا إلى أن نمو الحضارة متعلّق بطبيعة نمو الكيان الأسري.. نظرًا لكلّ ذلك، فإننا ننتهي إلى القول بتقسيماته التالية:

أوّلًا: إنّ الإنسان هو ابن تاريخه؛ أي أنه من جملة الأحياء التي تمتد فترة طفولتها مدّة طويلة، وهي في الواقع فترة التلقي، ويتمكّن إبانها من تلقي الأخلاق والآداب والمعارف من والديه، ولعلّ هذه الفترة تستمر عند البعض إلى آخر حياتهم، تبعًا لطبيعة موقفهم التابع لوالديهم.. وهذه الفترة هي فترة نموذجيّة لبناء ظاهر الإنسان وباطنه، حيث أوّل ما يتلقّى عنهما اللغة التي يعبّر بها عن إرادته ونيّته وتطلّعه وفكره. ومن خلال -وعاء اللغة- يستفيد منها محتوياتها، ومحتوياتها هي ركائز الحضارة، بما فيها المعلومات ومنهجيّة التفكير والآداب والأخلاق والقناعات.

» ربّنا يبيّن هنا لنا خطين متوازنين، وينبغي أن نختار من بينهما الوسط. هناك من يُشرك بالله تحت ضغوط الوالدين، والله ينهى عن ذلك. وهناك من يتمرّد على الوالدين ولا يعترف بحقّهما، فلا يشكرهما..

إذن؛ فالأسرة وعاء حري بانتقال كلّ التجارب التاريخية إلى الجيل الآخر؛ ليس من خلال الجيل المتصل فحسب، وإنما عبر الأجيال القديمة عمومًا؛ أي كلّ الحضارة التاريخيّة، من لدن آدم عليه السلام إلى الوالدين. وهذا كلّه من إنجازات الانتماء إلى الأسرة والعيش ضمن واقع اجتماعي محدّد.

أمّا الإنسان البدائي البعيد عن الحياة الأسرية المعروفة، فمن الممكن أن يقضي كلّ أيام عمره دون أن يتمكّن من تعلّم ما يتعلّمه طفل بصورة طبيعيّة وآلية ضمن نطاق الأسرة.

وهذا يجسّـد نعمةً واحدة من نعم الله على الإنسـان. فما الذي يدعو هذا الإنسان أن يتناسى هذه النعمة الجليلة؟.

هـذا إضافـة إلى أن الأسرة محور انتقال الحنـان والعطف، إذ ليـس الإنسـان كيانًا مادّيًا وجسـديًا فحسـب، حتـى لا يحتاج لغير ما يسـد جوعه ويسـتر بدنه، وإنما له جانب روحي حيث ينبغي أن يُروى عاطفيًا، بل إن حاجة ابن آدم إلى العاطفة أشد من حاجة أي كائن حيّ آخر، حسب معرفتنا.

وليس أقدر وأروع من الجوّ الأسري على تلبية هذه الحاجة؛ حتى إننا نجد في الأيتام -بشـكل عام- أنهم يفقدون جزءًا أساسًـا مـن شـخصيّاتهم، وخصوصًا حينما لا يجدون من يسـد لهم النقص العاطفي الذي يشـعرون به ويعانون منه، وقد تستمر المعاناة لديهم طيلة فترة حياتهم.

أمّـا ما يقـال عن المدنيّـة الغربيّة، وكونها قد حققت لنفسـها السـيطرة بسـبب تمرّدها على الكيان الأسري، فإننا نرى هذا القول مبالغًـا فيه، حيـث إن أحد الركائز المهمة في التطوّر لدى الشـعوب الغربيّـة أنهـا تمـرّدت فقط عـلى مجموعة مـن الخرافـات التي كانت منتشرة في أسرهم ومجتمعاتهم. وهذا شيء لا يمكن إنكاره.

ولكـن حينـما أحـرزوا التقـدّم، اسـتولى عليهـم الغـرور، واسـتولت عليهم النظرة المادّية، حتى أصبح واقع الحضارة الغربية واقعًـا أعـرج يكابـر ويراهـن على مسـيرة غـير مكتملـة الجوانب. ولذلـك فهـي اليوم -جـراء هجرهـا لمتطلّبات الكيـان الأسري- تعـاني أزماتٍ متلاحقـة بعد أن تفكّكـت فيها عرى الديـن والقيم الصحيحة والسـليمة، ومنها قيمـة الأسرة؛ حتى أنها أضحت على

شفى من الانهيار الحضاري المتوقّع، كما انهارت حضارة قوم لوط عليه السلام مثلًا بعد أن تفكّكت لديها عرى الأسرة، فانهارت بسبب الفساد الأخلاقي.

نعم؛ إنّ العاطفة التي يتكفّل بها بيت الأسرة، تؤثر تأثيرًا إيجابيًّا كبيرًا في الإحساس بالكرامة، أمّا الشارع ودار الحضانة، فلا يتكفّلان بصناعة الشخصيّة المحترمة والكريمة لدى الإنسان. وحيث ينعدم الإحساس بالكرامة، ترى الوساوس الشيطانية والانجذاب إلى الأخلاق الرديئة، وإلى المخدّرات والجريمة، تأخذ دورها الفعّال في صياغة شخصيّة الإنسان لتكون شخصيّة منحطّة.

توصية مهمّة للوالدين

ولذا؛ فإنني أتوجّه بالنصيحة المباشرة للوالدين، فأقول لهما: حينما يرزقكم الله تبارك وتعالى ولدًا، بل حينما تكتشفون أنه سبحانه سيرزقكم ولدًا، فإن مسؤولياتكم الاجتماعية والسياسيّة وغيرها تتحوّل إلى مسؤوليات ثانوية، في مقابل مسؤوليتكم تجاه وليدكم القادم. بمعنى أن مهمّة تربية الأولاد أكبر بكثير من مهام الإنسان تجاه وظيفته أو عمله. وإن التهاون في مجال تربية الأولاد، يعني تعمُّد تخريج جيل فاسد والزجّ به في الوسط الاجتماعي. وهذا من أكبر الظلم وأعظمه، تجاه الأولاد والمجتمع، بل هو ظلم كبير يمارسه الوالدان تجاه نفسيهما أيضًا.

ولا يذهب القارئ خطأً؛ فنحن لا نخالف الوالدين في أن يمارسا مهامهما الطبيعية، وإنما نخالف -مخالفة قاطعة وصريحة- ظاهرة التقصير في حق أولادهما، ونخالف التهاون فيما يتعلّق بمسؤوليتهما الجسيمة بحقّ الأولاد. ولا مبرر أبدًا في أن ينهك المرء

نفسه، ويضيع حياته لتوفير لقمة العيش لولده، مع كونه غافلًا عمّا يحتاج هذا الولد من تربية صحيحة وعاطفة لازمة.

فلا ينبغي للآباء أن يتركوا أمر تربية أولادهم -تحت طائلة العمل اليومي، مع أهميّته- للشارع، أو للأفلام التي قد يختزل منتجوها مشروعًا ثقافيًّا تخريبيًّا للنفس الإنسانية، وغير ذلك من الخيارات.

كما لا ينبغي للأُم أن تترك أولادها للخادمة، دون أن تهتم بإشباع عواطفهم من عطفها وحنانها، تحت طائلة العمل اليومي، أو الانهماك في التزيُّن وحضور التجمّعات الدنيويّة وشبه ذلك. لأن الأولاد -والحال هذه- سيكونون مُعرَّضين للانهيار والهزيمة لدى أبسط المواجهات، تبعًا لما يعانونه من أزمات عاطفيّة حادّة وفراغ روحي قاتل. وقد أثبتت التجارب بما لا يُحصى خطأ وفشل إيلاء الأولاد مطلق الحرّية لاختيار الصديق، وأسلوب الحياة. وإنما المفترض أن يكون ذلك ضمن حالة وخطّ منهجيّة معلومة مسبقًا، ومرسومة من قبل المدرسة القرآنية والتعاليم الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام.

ولعلّ أغلب الأولاد -في حقبتنا الراهنة- ممن يُبتلون بالمخدّرات، كان السبب هو في انهزامهم في مواجهة مشاكل معيّنة، سواء مشكلة مالية أو عاطفيّة أو دراسيّة. فإذا انهزموا انهاروا، وبعد الانهيار لا يجدون لهم ملجأً -بعد الانفصال الحادث بينهم وبين آبائهم- إلّا التوجّه إلى هذه التيارات الخطيرة؛ مثل المخدّرات، أو الانخراط ضمن شبكة متطرّفة، أو حتى تأسيسها.

وللأُمهات -خصوصًا- أن يتدبّرن في قوله الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾ مـع ملاحظة أن يوسـف الصدّيق عليه السلام قـد فقد أسرته، وفقـد الحنان والعطف الذي كان يوليه إيّاه أبوه النبي يعقوب عليه السلام، فابتيع كعبد وأصبح متاعـًا في بيـت العزيـز، ولكن الله تعـالى كان قد قضى ليوسـف أن يحظـى بالعطف والحنان والكرامة، فوجد كلّ ذلك في بيت العزيز، حيـث أكرم مثواه. ثم قال العزيز لامرأته أيضًا: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾[1].

ممـا يوحي بأن الولد لا نفع يرجى منه في المسـتقبل ما لم يحظَ بالكرامة من قبل الوسط الذي يعيش ضمنه.

وبفعـل الكرامة والتكريم يتمكّن المرء في الحياة، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾[2]، حتى صارت مقاليـد مـصر إليه، وكانـت تحتضن أكـبر حضارة على وجـه الأرض آنذاك، بعد أن نال الاحترام والتكريم، فأصبح سلطانًا، وأصبح عالمًا، حيث علّمه الله تبارك وتعالى تأويل الأحاديث ومعرفة الوقائع.

وما لم يحظّ الطفل بمقدار كافٍ من العطف والكرامة من قبل الوالديـن، أو مـن له القدرة على تعويضه هذيـن العاملين، فإنه من الصعب التنبؤ له بمسـتقبل طيب، ومن الصعب أيضًا توقّع الفائدة منه حين يكبر ويصبح شـخصًا مسـؤولًا. وكيف له أن يقوم بالمهام المناطة به في هذا المجال، وهو يفتقر إلى الثقة بالنفس وإلى الشجاعة في الإقدام، مما يفقده الدافع الذاتي نحو التقدم، كما ويجهل آلية أداء تلكـم المهـام؟ بل وكيـف له أن يختـزل في ذهنـه ضرورة الانصهار

(١) سورة يوسف، آية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، آية: ٢١.

في الجوّ الاجتماعي، وهو قد ترعرع في أحضان المربية والخادمة الأجنبيّة، ولم يتلقّ -ولو نزرًا يسيرًا- من حنان الأمومة والأبوّة؟.

ولا ريب في أن إحداث الحُجُب بين الطفل وأبويه يؤدّي إلى استشعار الطفل بقسوة من جانبهما تجاهه؛ فتراه ينمو ويكبر والقسوة ماثلة أمام ناظريه، ومتغلغلة في دماغه، حتى تكون هي الأداة المحرّكة له في معظم مجالات حياته.

» إن التهاون في مجال تربية الأولاد، يعني تعمُّد تخريج جيل فاسد والزجّ به في الوسط الاجتماعي. وهذا من أكبر الظلم وأعظمه، تجاه الأولاد والمجتمع.

إنّ من الجدير بالأب والأُم أن يصطحبا الابن والبنت، وحسب المجالات المتاحة إلى المساجد والحسينيات، بل وحتى إلى مراكز الترفيه السليمة والحدائق العامّة، وأن يتحاشيا وقوع نوع من الانفصال مع الأولاد. إضافة إلى ضرورة تخصيص أوقات كافية لملء الفراغ الذي يشعر به الأولاد، مع الاهتمام الفائق بتجنيبهم ما قد يحدث من شجار واختلاف حاد بين الأبوين. ويقابل ذلك، إشراكهم بالأحاديث والأفكار الطيبة والجميلة، والممارسات الدينية؛ مثل الصلوات.. لتكون الأسرة -في نهاية المطاف- وعاءً نقيًّا من الرذائل يمكن أن تُنقل عبره الآداب والأخلاق والمُثُل الحضارية الكريمة.

ولبالغ الأسف، نلاحظ في بعض الأحيان أن العديد من الآباء والأُمهات يجعلون من التربية الصالحة أمرًا صعبًا للغاية، بسبب ما يمارسونه من سلوكيات خاطئة بحق أولادهم، حيث يتفوّهون بكلمات بذيئة ومهينة إزاءهم. وهذا لعمري ظلم مباشر يتعرّض له الأولاد، ينتهي إلى مزيد من العقد في أنفسهم. كلا؛ علينا العودة إلى البرامج العرفانيّة والنورانيّة التي رسمها الإسلام فيما يتعلّق بموضوع واجبات الوالدين تجاه الأولاد، وعدم التأثر بالظروف المعيشيّة الصعبة والانشغال بها عن إدارة الأسرة، لأن

الهدف الأساس من تكوين الأسرة، إيجاد جيل متقدّم على صعيد الدين والدنيا. ومن المفترض لتحقيق هذا الهدف السامي، استخدام وسائل وأساليب متقدّمة وحضارية سامية.

ماذا أراد الإسلام من الولد؟

ويقابل كل هذا، ما ينبغي على الأولاد معرفته في مجال تعاملهم مع الوالدين، حتى وإن كان موقف الوالدين سلبيًّا منهم.

فالإسلام أراد للطرفين معًا -الوالدين والأولاد- أَلَّا تصل بهما العلاقة بحيث يجاهد الأبوان ولدهما لارتكاب المعاصي والشرك بالله، أو أن يتمرّد الأولاد على ما يطلب منهم الوالدان فيما هو مسموح به في إطار الشريعة. أي أن الإسلام تحدّث عن سبل الوقاية بقدر أو أكثر مما تحدّث وحث على سبل العلاج. حتى إنه قد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «.. **النَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ**»[1]، ناهيك عن تفعيل وترجمة الرحمة والشفقة والاحترام إلى واقع ملموس.

» ما لم يحظ الطفل بمقدار كاف من العطف والكرامة من قبل الوالدين، فإنه من الصعب التنبؤ له بمستقبل طيب، ومن الصعب أيضًا توقّع الفائدة منه حين يكبر ويصبح شخصًا مسؤولًا.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[2] بمعنى أن الله تعالى يلحق الأولاد بآبائهم وأُمهاتهم في نعيم الخلد، حتى وإن كانت درجات الوالدين رفيعة وأكثر سموًّا من الأولاد. مما يدفع بالإنسان إلى تقديس علاقته بوالديه، لا سيّما وأن من يُحسن التعامل مع الأقرب إليه، سيحسن التعامل مع مجتمعه. ومن دون إتقان التعامل

(١) الفروع من الكافي، ج٤، ص٢٤٠.
(٢) سورة الطور، آية: ٢١.

الطيب بين الآباء والأبناء، ينبغي توقّع حصول الكوارث الاجتماعية الكبرى في ظل التفكّك الأسري.

وها نحن نشهد بوضوح طبيعة التفكّك الاجتماعي الغربي تحت مظلّة التفكّك العائلي. إذ المقاييس ومعايير التعامل لدى الإنسان والمجتمع الغربي يطغى عليها الجانب المادّي والمصلحي. فالأولاد ترعاهم دور الحضانة، والوالدان في أواخر أعمارهم يُحتجَزون في دور العجزة، حتى أن الكثير منهم يموتون كمدًا لقلّة الاهتمام بهم من قبل أولادهم.

فالغرب إذن، ابتُلي بحضارة مادّية، ويعاني أزمةً اجتماعية خانقة وتتولّد عنها الكثير من الأزمات والمشاكل. وهم بين هذا وذاك يعانون الشقاء المتزايد والمتصاعد في الحدّة.

ونحن من ناحيتنا كموحدين وشرقيين، لا يُعقل أن نستورد عن الغربيين متبلّدي المشاعر والعواطف مشاكلهم وأزماتهم، ونستدبر سبل الوقاية والحلول التي أنزلها الخالق عزّ وجلّ لنا عبر القرآن المجيد ومنهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

ولصناعة الحضارة المتكاملة، لا يبقى مجال للتبرير، لأن: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾(١)؛ أي لا مجال أمام الوالدين في إساءة تعاملهما مع الأولاد بحجّة أنهم عانوا الإساءة من آبائهم وأُمهاتهم من قبل. كذلك لا مجال للأولاد للإساءة لوالديهم بحجّة الردّ بالمثل. وإنما ينبغي العودة والرجوع إلى المقاييس الخُلُقية والاجتماعية التي وضعها الدين الإسلامي الحنيف، وجعلها حكمًا نافذ القول والقضاء، بعد الخروج من قوقعة الذات ودائرة الأنانية والجهل والعواطف البليدة.

(١) سورة القيامة، آية: ١٤ - ١٥.

» بصائر وأحكام

١- من الحكمة العدل في تعامل الإنسان مع محيطه وأساسه نية العطاء للآخر حسب المستطاع، فالمؤمن يحسن إلى والديه وإلى الناس ولا يدع ثوابًا إلا ويسعى إليه حثيثًا.

٢- الأسرة هي أهم صلة رابطة بين تجارب البشرية عبر التاريخ والأجيال الصاعدة، كما أنها توفر العطف الضروري لإحساس الإنسان بكرامته، والتي هي محور سائر الأخلاق الفاضلة.

٣- على الوالدين أن يعرفا أن مسؤوليتهما تجاه أبنائهما أعظم من أية مسؤولية وإنْ قَصَّرَا ظلماهم وظَلَمَا المجتمع، وأيضًا ظلما نفسيهما.

» نحن كموحدين وشرقيين، لا يُعقل أن نستورد عن الغربيين متبلّدي المشاعر والعواطف مشاكلهم وأزماتهم، ونستدبر سبل الوقاية والحلول التي أنزلها الخالق لنا عبر القرآن ومنهج النبي وأهل بيته.

» أخلاقيات المسؤولية الإنسانية

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

من الحديث

عَنْ زَيْدٍ الشَّحَّام عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «سَمِعْتُهُ عليه السلام يَقُولُ: **أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ، وَهِيَ آخِرُ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ..**»(١).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْلِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ**»(٢).

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام

(١) وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج٤، ص٤٣.

قَالَ فِي وَصِيَّتِهِ لِوَلَدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ: «**يَا بُنَيَّ؛ اقْبَلْ مِنَ الْحُكَمَاءِ مَوَاعِظَهُمْ، وَتَدَبَّرْ أَحْكَامَهُمْ، وَكُنْ آخَذَ النَّاسِ بِمَا تَأْمُرُ بِهِ، وَأَكَفَّ النَّاسِ عَمَّا تَنْهَى عَنْهُ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَّ اسْتِتْمَامَ الْأُمُورِ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(1).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَرَفَةَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام يَقُولُ: **لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُسْتَعْمَلَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ**»(2).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللهِ عليهما السلام قَالَ: «**وَيْلٌ لِقَوْمٍ لَا يَدِينُونَ اللهَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(3).

وَبِإِسْنَادِهِ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «**بِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ يَعِيبُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(4).

عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَجَهَنَّمُ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتَهَا وَشَهْوَتَهَا دَخَلَ النَّارَ**»(5).

عَنِ الْعَرْزَمِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُنَالُ الْمُلْكُ فِيهِ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ،**

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٤٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١١٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١١٧.
(٤) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١١٧.
(٥) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٣٠٩.

وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْغَصْبِ وَالْبُخْلِ، وَلَا المَحَبَّةُ إِلَّا بِاسْتِخْرَاجِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الهَوَى، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى، وَصَبَرَ عَلَى الْبِغْضَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى المَحَبَّةِ، وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ؛ آتَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً مِمَّنْ صَدَّقَ بِي»[1].

عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ أَلْفِ شَهِيدٍ**»[2].

عَنْ سَمَاعَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ فَلَمْ يَشْكُرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ وَبَالًا، وَابْتَلَى قَوْماً بِالْمَصَائِبِ فَصَبَرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً**»[3].

عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ فُضَيْلٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الْجَسَدُ، كَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ ذَهَبَ الْإِيمَانُ**»[4].

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الصَّادِقِ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام -فِي حَدِيثِ الْمَنَاهِي- قَالَ: «**وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يَخْتَالَ الرَّجُلُ فِي مَشْيِهِ، وَقَالَ: مَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَاخْتَالَ فِيهِ خَسَفَ اللهُ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ، وَكَانَ قَرِينَ قَارُونَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنِ اخْتَالَ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، وَمَنِ اخْتَالَ فَقَدْ نَازَعَ اللهَ فِي جَبَرُوتِه**»[5].

عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهِ

---
(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩١.
(٢) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٢.
(٣) الأصول من الكافي، ج٢، ص٩٢.
(٤) الأصول من الكافي، ج٢، ص٨٧.
(٥) وسائل الشيعة، ج٥، ص٤٣.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ مَشَى عَلَى الْأَرْضِ اخْتِيَالًا لَعَنَتْهُ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ**»[1].

عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ قَالَ: «قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: **وَيْلٌ لِمَنْ يَخْتَالُ فِي الْأَرْضِ يُعَانِدُ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»[2].

رَوَى أَبُو عَمْرٍو الزُّبَيْرِيُّ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام -فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ- قَالَ: «.. **لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ الْإِيمَانَ عَلَى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ وَقَسَّمَهُ عَلَيْهَا وَفَرَّقَهُ فِيهَا... وَفَرَضَ عَلَى الرِّجْلَيْنِ أَلَّا يَمْشِيَ بِهِمَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي الله، وَفَرَضَ عَلَيْهِمَا الْمَشْيَ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ:** ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[3]. **وَقَالَ:** ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[4]»[5].

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ: «**سُرْعَةُ الْمَشْيِ يَذْهَبُ بِبَهَاءِ الْمُؤْمِنِ**»[6].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْحَضْرَمِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾؟.

قَالَ عليه السلام: **الْعَطْسَةُ الْقَبِيحَةُ**»[7].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٢٣٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٣٨٢.
(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٧.
(٤) سورة لقمان، آية: ١٩.
(٥) الأصول من الكافي، ج٢، ص٣٣ - ٣٦.
(٦) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٠٢
(٧) الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٥٦.

وروِيَ عَـنْ أَبِي عَبْـدِ الله عليه السلام قال: «**هِيَ الْعَطْسَـةُ الْمُرْتَفِعَةُ الْقَبِيْحَـةُ، وَالْرَّجُـلُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالحَدِيْثِ رَفْعًـا قَبِيْحًا، إِلَا أَنْ يَكُوْنَ دَاعِيًا أَوْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**»(1).

تفصيل القول

١ - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾.

مـع السـياق القرآني لهـذه السـورة المباركة تابعنا المسـؤولية الكـبرى التـي ينبغـي للإنسـان -أي إنسـان- أن يتحمّلهـا، وهي التي قد تصل به إلى مستوى المسـؤولية عن مثقال ذرّة، أو حبّة من خـردل. ومـن ثم هذه المسـؤولية طرحت مـن زاويـة معيّنة، وهي زاوية مسؤولية الإنسان عن الآخرين.

فالصـلاة تعمّق وعي المسـؤولية لدى الإنسـان، وتجعل منه كائنًـا مسـؤولًا، ليس فقط عن نفسـه وعن الناس، بـل وحتى عن الطبيعة المحيطة به.

وكذلـك الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر، هما فريضتان تجسّدان الإحساس بالمسؤولية تجاه الحياة والمجتمع.

ومن ثم الصبر على ما قد يتعرّض له الإنسـان من مصائب، جرّاء تحمّل المسؤولية الاجتماعية.

ولكن؛ هل تنتهي المسؤولية الإنسانية عند هذا الحدّ؟.

(1) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٨٨.

كلا؛ إنها لا تنتهي عند هذا الحدّ، إذ إن هناك أمورًا قد تبدو جزئية أو دقيقة، و قد لا ينتبه الإنسان إليها، لكنها تدخل في إطار مسؤولية الإنسان عن الآخرين. ومنها: ضرورة احترامه لبني جنسه، انطلاقًا من الحقوق التي تتمخّض عمّا أولى الله تعالى الإنسان من الكرامة. والمجتمع الفاضل هو المجتمع الذي يرعى الحقوق، حتى أصغرها، ويلتزم بها على صعيد التساوي؛ أي ضرورة أن يكون الالتزام بها التزامًا متبادلًا.

ولأن ابن آدم قد جُبل على الدفاع عن حقوقه والسعي وراء استيفائها بالكامل، فإن الحديث عادة ما يكون عن حقوق الآخرين، وإلّا فإن كلّ إنسان مسؤول عن حقوقه الذاتية؛ أي ضرورة أن يهتم ببلوغ الكرامة الإلهية، وأن يحصل على حقوقه كاملة. ولكن لدى ذلك يسعى إلى نيل ما يعتبره من حقوقه على الآخرين، غامطًا أثناء ذلك حقوقهم، وربما لا يُعير لها أية أهميّة، وهناك تحدث الفتنة الكبرى، وهي التطفيف. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾(1).

» الصلاة تعمّق وعي المسؤولية لدى الإنسان، وتجعل منه كائنًا مسؤولًا، ليس فقط عن نفسه وعن الناس، بل وحتى عن الطبيعة المحيطة به..

أي أنهم يكيلون بمكيالين، إذ يستوفون حقوقهم كاملة، في حين يبخسون الناس أشياءَهم، ولا يفون الآخرين حقوقهم.

والآية أعلاه تفسّر سلبية التطفيف، ولكنّها لا تحدّده في قضيّة واحدة. وعلى هذا الاعتبار، فإن التطفيف هو عدم مراعاة حقوق الآخرين أنّى كانت، وأين كانوا.

وقد سبق أن بيّنّا أننا بحاجة ماسّة إلى الحكمة، ومن الحكمة

(1) سورة المطففين، آية: 1-3.

الشكر، ومن الشكر أن نعرف النعم، ومن النعم علاقة الفرد بغيره. وهذا الغير، قد يكون من الأقربين، كما ضرب الله تعالى بالوالدين لنا مثلًا، أو كان أخًا أو زوجًا، أو كان من الدوائر الاجتماعية المترامية. كلّ هؤلاء وأولئك، ينبغي أن تُرسم للعلاقة معهم والموقف منهم خارطة حكيمة. وهذه الحكمة المرجوّة لابدّ أن تتجلّى في سلوك الإنسان تجاه الآخرين بايفائهم حقوقهم من دون تطفيف.

طرد التكبّر؛ ملتقى الفضائل

وربنا عزّ اسمه قد بيّن لنا في الآيات المباركات أعلاه مجموعة من الصفات. ولكن قبل الخوض في تفاصيلها، لابدّ من القول بأن ما يجمع هذه الصفات هو احترام الآخرين، ومراعاة حقوقهم، وعدم التكبّر، والاستعلاء عليهم.

أي: أن يضع المرء نفسه في مصاف الآخرين، وفي رتبة واحدة؛ إذ الكل مخلوقون، والكل عند الله سواء، وسيقفون أمامه في يوم الجزاء على حد متكافئ وعادل. أمّا الفضائل والآلاء التي يُنعم الله بها على الناس في الدنيا؛ مثل نعمة العقل، ونعمة العلم، ونعمة النسب الرفيع، ونعمة المال، ونعمة الشهرة.. هي في الحقيقة وسائل يجدر أن تُستخدم لبناء حياة طيبة كما أراد الله المنعم، دون الاستفادة منها في إطار التكبّر والغرور. أي لابدّ من أن تكون وسيلة للتواضع والشكر لله من ناحية، وأن تُسخّر لتكون في خدمة تلك المنظومة التي تمت الإشارة إليها.

فكلّ نعم الله تقضي التعامل معها بحكمة، ومن أبرز وجوه الحكمة هو الشكر، والشكر لله يقتضي التواضع له سبحانه وتعالى وعدم البخس بتلك النعم على الآخرين.

إذن؛ فجماع الفضائل يتلخّص في كلمة، هي عدم الاستعلاء على الناس، وأن يُعطى الفرد حقوقه دون أن ينكر شيئًا منها أو يُبخس بعضًا. هذا هو أصل الحكمة في التعامل مع الآخرين، والذي لخَّصه حديث شريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا..**»[1].

ولكننا -مع ذلك- بحاجة إلى البحث عن المصاديق والمفردات التي تتجلّى فيها الحكمة.

وقد أغنانا ربنا سبحانه مهمة البحث عن المصاديق، بل فصّلها، فقال على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

والتصعير حالة مرضيّة تُصيب الإبل في بعض الأحيان تُسبِّب له التواءً في العنق، وهي تُسمّى الصَّعَر. أمّا لدى الإنسان، فهي حالة تشير إلى عدم اهتمامه بالآخرين تكبّرًا عليهم، فيعتبر نفسه أسمى من غيره، ولا يعير لآراء الآخرين أهميّة تُذكر، فلا يتعاون ولا يتشاور ولا يستفيد ولا يفيدهم في فكرة أو شيء آخر. بل من فرط تكبّره على الناس، تراه لا يهتم بما يلحق به من الضرر في انعزاله عنهم. مع أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**مَنْ كَفَّ يَدَهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّمَا يَكُفُّ عَنْهُمْ يَداً وَاحِدَةً، وَيَكُفُّونَ عَنْهُ أَيْدِيَ كَثِيرَةً**»[2].

أمّا التعاون مع الناس والالتفات إليهم، فهو بمثابة الاعتراف بوجودهم والقول بكرامتهم وشخصيّاتهم.

وقد يكون عدم اهتمام الإنسان بمن حوله، بداعي الانطواء، أو التكبّر، أو العداء تجاههم، في وقت كان مفترضًا بمن يصعّر خدّه

(١) نهج البلاغة، رسالة رقم ٣١.
(٢) الأصول من الكافي، ج٢، ص١١٧.

للنـاس ويسـتعلي عليهم أن يسـوق رؤيتـه وموقفه ممـا لديه ضمن جادّة الشـكر، وأن ينطلق من منطلق تزكية ما لديه عبر أداء ما عليه من حقوق؛ فلا يحوّل نعمة العلم –مثلًا– إلى وسـيلة اسـتعلاء على الجهلة، وإنما يسـعى إلى أداء حقّ العلم، فيُعلّم من يحتاج إلى العلم. وهكذا هو شأن سائر النعم التي يتمتّع بها ويحوز عليها. وأداء الحق هـذا يعـادل فضيلة التواضـع، كما يُجنِّـب صاحبه العقد النفسـيّة ورذائـل الأخلاق التي يجد المرء نفسـه متورّطًا في نتائجها.

» جماع الفضائل تتلخّص في كلمـة، هـي عـدم الاسـتعلاء على الناس، وأن يُعطـى الفرد حقوقه دون أن ينكر شـيئًا منها. هذا هـو أصل الحكمة في التعامل مع الآخرين.

إنّ عقدة التكبّر والتصعير مرض شـيطاني، ومن المفترض بالإنسـان أن يقي نفسـه شرّ هذه العقدة، وإن أُصيـب بهـا، فعليـه أن يعالجهـا بالوسـائل الصحيحـة الناجعة.

حتـى أن الشـيطان ليوحي إلى الإنسـان بمجموعـة من القيم الزائفـة التي يجمعها التظاهر الفظ، ثم يؤكّد له خطلًا أن رفعة شـأنه تتحقّـق له إذا ما ارتدى ملابس جميلة جذّابة، أو ملك مالًا طائلًا، أو تمتّع بعلم أو جاه. وينسـى في هـذا الخضم أنه لا يعدو أن يكون مجرّد إنسان، والإنسان مفعهم بالضعف من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه.

ولقـد عـاشرت عـددًا من العلـماء والفقهـاء، فرأيـت فيهم التواضـع، ومنهـم من كان يسـعى حثيثًـا لأن يجعل نفسـه أقل من الآخرين، وقاية من الشـيطان الذي يدفعه لأن يتصوّر السـمو على غـيره. فتراه يتنازل، ضمن سـلوك أخلاقي رفيع، حتى عن حقوقه البسيطة، وعن مستوى الآخرين ليتوازن معهم.

ثم يقول ربّنا المتعال: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾.

قبل الخوض في تفصيل معاني هذا المقطع القرآني المقدّس، أرى من المناسب بمكان أن أشير إلى أن ما قد يُضمره الإنسان في نفسه لابد وأن يظهر في سلوكه، شاء أم أبى. وقد رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي صَلَاتِهِ فَقَالَ ﷺ: **«أَمَا إِنَّهُ لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»**[1].

والقرآن المجيد حين يأمر الإنسان بـأَلَّا يُصعّر خدّه للناس، وأَلَّا يمشي في الأرض مرحًا.. لأن هذه الحالات السلبية تأخذ لنفسها واقعًا خارجيًّا سلبيًّا أيضًا، وظهور هذه الصفات أمر مرفوض ومُدان من قبل الشارع المقدّس.

وما أحرى بابن آدم أن يتعرّف على ذاته ويغور في آفاق حقيقته، وإذ ذاك سيعلم بأنه عاجز عن خرق الأرض، وعاجز أيضًا عن مجاراة الجبال في ارتفاعها، مما يدفعه إلى مزيد من التواضع الواعي وعدم الشعور بالكبر والعظمة والمرح الذي يمثّل منتهى الفرح.

والإنسان جدير به أن يفكّر ويمعن النظر جيّدًا فيما لديه من نعم وإمكانات وميزات، فيتأكّد أن جميعها زائل من بين يديه.

هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، عليه أن يعرف أن هناك الكثير من الإمكانات والميزات لا يزال يفتقر إليها ولا يمتلكها. بمعنى أنه إذا كان التكبّر والمرح بسبب امتلاك ميزات معينة، فإن عدم امتلاك غيرها لابدّ أن يستتبعه التواضع والخشوع.. هذا إضافة إلى أن كلّ نعمة يتمتّع بها المرء تقابلها فريضة إبداء الشكر عليها، وذلك بتحمل مسؤوليتها، فإن لم يفعل فإنها تتحول إلى نقمة. فهل تأكد من قدرته عليها؟ فلماذا الفرح بها والمرح؟.

(١) بحار الأنوار، ج٨١، ص٢٢٨.

وكما ينبغي للمؤمن أَلَّا تهزّه الهزائز، ولا ينهار أمام المشاكل.. كذلك يُتوقّع منه أَلَّا تؤدّي به النعم ووفرتها إلى البطر، لأنه لم يصبح مؤمنًا إلَّا بعد أن بلغ مستوىً رفيعًا واستطال على أمور الدنيا كلها مما أورثه الوقار والبصيرة في متقلبات الحياة الدنيا. فلم يعد كالطفل الذي يمرح بلعبته ويتلاعب به الخيال الخاطئ، وسرعان ما يتأثر إذا ما سُلِبَتْ تلك اللعبة منه، حتى أنه ليظن نهاية الحياة بالنسبة إليه.

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والمختال من هو مفعم بالخيلاء والكبر، حتى يظهرهما بأقواله وأفعاله فيكون فخورًا؛ أي ابتُلي بكبر باطني وظاهري.

ويبدو أن القرآن الكريم هنا قد ضرب مثلًا ثم بيّن قاعدة عامّة. أمّا المثل؛ فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾. وهو علامات ظاهرة، ثم عمّ الفكرة وبيّن القاعدة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. وعلى هذا؛ فإنّ المشكلة الحقيقيّة، هي مشكلة نفسيّة؛ أعني مشكلة الخيلاء والتكبّر والاستعلاء.

أمّا الفخر؛ فهو محاولة التظاهر بالفضل والفضيلة، وبيان أن المتظاهر هذا أفضل من غيره؛ أي محاولة إخضاع الآخرين لذاته.

ولكن هل للإنسان أن يتفاخر بنعمة، وهي محكومة بالزوال، غافلًا بفعل الخيلاء والتفاخر عن أن النعمة إذا أُخضعت لهذا المسار، فإنها تتحوّل إلى نقمة، لها مردوداتها السلبية؟ كما الرجل الشاب الذي يبتاع سيّارة فاخرة، حتى يظن أنها أفضل نعمة في حياته، ويظن أيضًا أن على الناس أن يلووا أعناقهم له بسببها. لكن هذه السيّارة النعمة قد تتحوّل إلى مركب يسير به باتجاه الموت، لا سيّما وأنه ينطلق بها انطلاقًا طائشًا لجذب انتباه الآخرين إليه. وهناك

الكثير من أمثال هذا الشـاب، حيث يجهلون كيف سيسـتفيدون مما لديهم من النعم، فيتفاخرون بها، فإذا بها تتحول إلى نقمة قاضية.

إذن؛ فالافتخار ينبغي أن يكون بما هو باق، وليس شيئًا باقيًا مع الإنسـان سـوى الفكرة الصائبة والعمل الصالـح. وقد ورد في المأثـور عن أمير المؤمنين علي بـن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**وَضَعْ عَنْـكَ فَخْـرَكَ، وَاحْطُطْ كِـبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْـهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِيْنُ تُدَانِ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ**».[1]

إذ يقـف المرء يوم القيامة وفي ساحة الحسـاب أمـام الميزان الحقّ، فلا يحقّ له أن يفرح ويبلغ غاية الفرح إلّا حين صدور الحكم الحـق له بدخوله الجنّة وفوزه الأبدي، ولكن الإنسـان في دار الدنيا يصبح الفرح لديه أمرًا ممجوجًا لا طعم له.

ولا يظننَّ ظانٌّ بأن ما ذهبنا إليه تعبير عن موقف سـلبي تجاه النعم، إذ ما نراه -وحسـب علمنا- تعبير عن موقف إيجابي تام من النعم، إذ النعمة لا تصبح نعمة ولا تسـتمر نعمة إلّا إذا عرفنـا وأتقنّا التعامل معها. أمّا ما يفتخر به المرء، فليس بنعمة أبدًا.

» ما أحرى بابن آدم أن يتعرّف على ذاته ويغور في آفـاق حقيقته، وإذ ذاك سيعلم بأنه عاجز عـن خـرق الأرض، وعاجز أيضًا عن مجاراة الجبال في ارتفاعها.

فالمال -مثـلًا- ينتظر منه أن يجعل صاحبه محبوبًا بـين النـاس؛ أي أنه لا يعدو أن يكون وسـيلة لهدف ما؛ مثـل إحـراز المحبوبيّـة، أو التمتّع بـه، أو تقديم الخدمة للآخريـن. أمّـا الذي يختال ويسـتعلي بالمال في الأرض، فـإن المال يصبح نقمة عليـه، إذ يتخلّى بالمـال المغرور به عن إخوانه وأصدقائه وحتى عن ربّه الذي أعطاه.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٣.

ممارسة الحياة بلا طيش

٣- ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾.

وقد قال عزّ اسمه في سورة الفرقان المباركة: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾(١).

فـماذا تعنـي كلمة القصـد في المشي؟ وماذا يعنـي مشي الهون على الأرض؟.

يبدو لي أن في الحياة طرقًا، ومسـالك وسـبلًا.. ومنها سـبل السلام في كل عمل وموقف وقضيّة، وأن لكل هدف طريقًا يوصل إليه، وهو طريق آمن وسـالم وقريب، فإذا اكتشـفه المرء، مشى عليه ووصل إلى أهدافه بلا مشاكل وبلا مُنَغِّصات.

أمّا الذين يسـلكون الطرق الملتوية، ويستخدمون وسائل العيش بصورة غير سـليمة، فهم إنما يحكمون على أنفسهم بالحياة المعقّدة، حتى أنهم في خضم هذا الشكل من الحياة يعجزون عن بلوغ أهدافهم، إضافة إلى تحميل أنفسـهم عناء الجهـود الضائعة.. وهذا ديدن غالبية الناس مع مـا يحمل من غرابـة، إذ الواحد منهـم إمّا مصاب بداء التطـرّف أو بداء التقصير؛ شـأنه في ذلك، شـأن من ينهمك في الإعداد لسفرة بسيطة قبل أسبوعين، أو شأن من يتهاون للتحضير للسفر حتى لحظات من موعده. وحسب ظنّي، فإنّ الطرفين؛ المتهاون والمتشدّد قد أخطأ في تصوّر الفعل والقصد، ولم يلتزما طريق الاعتدال في الفعل واتخاذ الوسيلة.

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ أي: اعتـدال في المشي واتخذ الأسـلوب الطبيعي. وهذا يصدق أيضًا على كلّ أمور الحياة، بحيث لا يتسبّب

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

هذا المشي والمنحى في إزعاج الآخرين.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ..**»[1]، رفضًا للتهاون، ودرءًا للتطرّف والتشدد. فإذا كانت في نفس الإنسان حالة إقبال، فليعمل المستحبّات ما شاء له أن يعمل، أمّا إذا اعترتها حالة الإدبار، فليكتف بالواجبات.

هذا ما دعانا إليه الإمام علي عليه السلام في قوله: «**إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ**»[2].

فالمطلوب هنا هو الاعتدال المنسجم مع الحكمة.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ الأمر شامل لطريقة الكلام والتعبير؛ فلا يتكلّم الإنسان مع غيره بما يدل على همجيّته، ولا يتكلّم بطريقة تضطر الآخرين إلى عدم الاستجابة له والتفاعل معه. وإعلاء الصوت دليل -في الغالب- على أن المتكلّم يرغب في فرض نفسه على الآخرين بالقوّة. أمّا خفضه إلى حدود الهمس، فدليل -في الغالب أيضًا- على حالة من الانهزاميّة والذل في ذاته تجاه الآخرين. فيما الكلام يجب أن يكون بذاته وبمحتواه صحيحًا، وليس بالصوت المرتفع أو الصوت الذي لا يكاد يُسمع.

٤- ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾.

للعلماء في هذا النص القرآني الشريف أكثر من منحى.

ومهما يكن فإن الحمار مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى،

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٨٦.
(٢) نهج البلاغة، حكمة: ٣١٢.

وحاشا الله أن يخلق شيئًا ثم يُدينه أو يعتب عليه بما جعل فيه. ومن هنا، فإن كلمة ﴿أَنكَرَ﴾ يعني أكثر ما يقع عليه الاستنكار، لا من جانب ذاتية الحيوان، وإنما من حيث تفاجؤ الإنسان السامع إلى هذا الصوت المرتفع. أمّا الأصوات الأكثر إزعاجًا -في الحقيقة- فهي أصوات المكائن وضوضاء المدن التي تؤثر سلبًا في الإنسان وسائر المخلوقات.

» الذين يسلكون الطرق الملتوية، إنما يحكمون على أنفسهم بالحياة المعقّدة، حتى أنهم في خضم هذا الشكل من الحياة يعجزون عن بلوغ أهدافهم.

والحال نفسه ينساق على مكبّرات الصوت التي يستخدمها أصحاب محالّ التسجيلات، إضافة إلى استخدام هذا الجهاز المكبر في بعض المساجد، وخصوصًا عند أذان الفجر. إذ المطلوب أن يرفع الأذان في المساجد، ولكن بطريقة لا تزعج الأسماع، ولا سيّما المرضى والزُّمنى منهم. فهذا إذن بحاجة إلى قصد واعتدال، كأن يُقدَّم على الأذان آيات من القرآن المجيد تقرأ بصوت هادئ ولطيف، أو مقاطع من الأدعية والمناجاة؛ تمهيدًا لطيفًا ليستمع الناس لصوت الأذان ويفهموه. ولهذا يكشف العلم الحديث أن التلوث الصوتي (الضوضاء) أشد خطرًا على الآذان من تلوث الهواء.

والمهم؛ هو إنّ الحيوانات غير مسؤولة عن أصواتها وحركاتها، وإنما النص هذا مثال يضربه القرآن الكريم لنا. بمعنى أن النص لا يستهدف الحمار، بل صوته الذي قد يُحدث صدمة عند البعض، تمامًا كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[(١)].

أو كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[(٢)].

(١) سورة الجمعة، آية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

فهـذا الـكلام لا غضاضـة فيه على الحـمار أو الكلـب، وإنما الغضاضة على الإنسـان الذي قد يتسـافل حتى يصـل به جهله إلى مسـتوى جهـل الحـمار الذي لا يـدري ما يحمـل، وهـو في الحقيقة غيرمسـؤول عـن معرفـة ما يحمـل. كذلك من تتجسّـد فيـه الحالة الكلبية من اللهاث بعد أن يتعمّد عدم ضبط كلامه.

ومـا تنبغي الإشـارة إليه أخـيرًا، هو أن العمليـة التربوية في القـرآن الكريـم، والحديث عن الجزاء الأوفى لمـن يلتزم قواعد هذه التربية وأصولها، وعن العقاب لمن لا يهتم بها ولا يطبقها في سلوكه اليومـي؛ تعبـيرٌ عن قيمة المسـؤولية وثقافتها، وذلك لأن الإنسـان كائن مسـؤول عـمّا أُعطي من الكرامـة الربّانية والعقـل والتعرّض للامتحان والفتنة، دون الحيوانات المجرّدة عن هذه الكرامة.

» بصائر وأحكام

١- من الحكمة مراعاة حقوق الآخرين، ابتداءً من الوالدين وانتهـاء بأي فـرد نعايشـه، وابتداءً مـن حق الاعـتراف بهم وعدم التعالي عليهم وانتهاءً بعدم التبطر.

٢- على الإنسـان أن يختـار لنيل أهوائه أيسر السـبل وآمنها على نفسـه وعلى الآخرين، فيقصد في مشيه، فلا إفراط ولا تفريط، ويقصد في صوته ويرفعه قدر الضرورة.

» الرحمة والشقاء

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

***

من الحديث

عـن ابن عباس قال: «سَـأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَـنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، فَقَالَ ﷺ: **يَا بْنَ عَبَّاسٍ! أَمَّا مَا ظَهَرَ فَالْإِسْلَامُ، وَمَا سِوَىٰ اللهِ مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنَ الرِّزْقِ، وَامَّا مَا بَطَنَ فَسَتَرَ مَسَاوِئَ عَمَلِكَ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ بِهِ**»[1].

قَـالَ الإِمَامُ الْبَاقِرُ عليه السلام -فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾-: «**النِّعْمَـةُ الظَّاهِـرَةُ النَّبِـيُّ ﷺ وَمَـا جَـاءَ بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِـهِ وَتَوْحِيـدِهِ، وَأَمَّا النِّعْمَـةُ الْبَاطِنَةُ فَوَلَايَتُنَا أَهْـلَ الْبَيْتِ وَعَقْدُ مَوَدَّتِنَا**»[2].

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٥٤.

تفصيل القول

لماذا هذا الشقاء العريض؟ ولماذا الفقر والفاقة والمسكنة؟ ولماذا الحروب الطاحنة والأضغان الدائمة والآلام والأمراض؟ ولماذا هذا الخوف الشامل من المستقبل؟ فهل الله خلق عزّ وجلّ الكون لهوًا ولعبًا، أم خلقنا ليعذّبنا؟ وإذا كانت الرحمة هي خلفية وأساس الخلق وهدف الخلقة، إذن فلماذا اختلطت الرحمة بالشقاء.. والله قادر على أن يخلق خلقًا وعالمًا بلا شقاء؟.

هذه أسئلة تُلحّ على أدمغة الكثير من الناس، وخاصّة لدى تعرّضهم للمصاعب؛ مثل تعرضهم للكوارث الطبيعيّة، أو الحروب الطاحنة، أو الاضطهاد الاجتماعي، أو عندما يواجه المرء هزيمة وانكسارًا في تجارته أو دراسته أو حياته الزوجيّة، أو حين يتعرّض لحالة من الكآبة.. فتراه وتراهم يتساءلون عن السبب لما يتعرّضون له.

قبل أن نعمد إلى استنطاق الآيات القرآنية الواردة في هذه السورة الكريمة، وهي -كما قدّمنا- سورة الحكمة.. قبل ذلك، دعونا نستنطق عقولنا وبصائرنا، وتعالوا ننظر إلى الخليقة من حولنا لنتعرّف على ماذا تدلّنا.

الحياة مدرسة الرحمة

فنقول -بكلّ بساطة-: إنّ آيات الله سبحانه وتعالى مبثوثة في هذا الكون الرحب، وهي تدل على أسمائه. ومن أكثر أسماء الله تجلّيًا وظهورًا، وأكثر إلحاحًا على ضمير الإنسان وفطرته، هو اسم الرحمة.

وإن نوعًـا من التأمل في الأفق عند شروق الشـمس وما يبثّه مـن روح في الحيـاة، أو حين تغيب ويظهر الأفـق بلونه الزاهي وما ترسـمه في المغرب من لوحات سـاحرة، أو حينـما تظهر النجوم في صفحة السـماء فتتلألأ بها، حتى أنها لتعطي الناظر رسائل في الجمال وومضـات في الأمل. ثم إمعـان النظر في النعم التـي مَنّ الله تبارك وتعـالى بها علينا، ثـم الاهتمام بمحاولة إحصائهـا؛ كلّ ذلك يُفضي إلى استنتاج الحقيقة الصادحة بأن الحياة عبارة عن مدرسة للرحمة.. رحمة الله التي سـبقت غضبه، والتي وسعت كلّ شيء، والتي تتجلّى في كلّ زمان ومكان.

إذن؛ فقـد كان الأمـر هكـذا ولا يـزال. مما يعني أن للشـقاء أسـبابه وعواملـه، وأن الشـقاء اسـتثناء طـارئ، وأن مـن الممكـن والمفترض السعي إلى القضاء عليه بمنع الأسباب والعوامل الخاصّة بـه. وحتى المريض حينما يقصد الطبيب ويعـرض حالته عليه، فإنّ الطبيـب يبـادره بالقول: إنّ سـبب المرض تلوّث حدث في جسـمه لعـدم الاعتناء بـه ووقايته، ومن دون ذلك لم يكـن يحدث له هكذا مرض.

هـذا مـن الناحيـة العقليـة؛ إن الإنسـان يعرف ربّـه بالعقل والوجـدان والفطـرة، فليسـأل المرء نفسـه عـمّا إذا كان ربّـه رحيمًا وكريـمًا وجوادًا ووهّابًا، حينها سـيتلقّى الإجابة واضحة بأن الربّ له الأسـماء الحسـنى، وإذا كانـت ثمة مشـكلة، فإنما هـي نابعة من الإنسان ذاته، أو بسبب ما حوله، دون الله عزّ وجلّ.

عوامل الشقاء

مـن أولى عوامـل الشـقاء؛ عـدم معرفـة النعـم والعجز عن

الاستفادة الصحيحة منها، فيما القرآن الكريم يوجهنا إلى اتقاء أسباب الشقاء ثم التخلّص منها. وإن من أبرز النعم على الإنسان، نعمة الملك، إذ جعل الله الإنسان ملكًا بين الخلق وسخّر له ما في السماوات والأرض.

وابن آدم يستطيع أن يخترق الجبال ويبني فيها الأكنان والقصور، ويستطيع أن يغوص في البحار ويستخرج ما فيها، وبإمكانه أن يفجر الأرض ينابيع من ماء ونفط وكبريت وغيرها، ويستطيع أن يفلق الذرّة، وله أن يرقى وينفذ إلى أغوار الفضاء.

وهذه قدرات أعطاه الله إياها، ولا يشاركه فيها غيره من الأحياء فوق البسيطة.

» إنّ آيات الله مبثوثة في هذا الكون الرحب، وهي تدل على أسمائه. ومن أكثر أسماء الله تجلّيًا وظهورًا، وأكثر إلحاحًا على ضمير الإنسان وفطرته، هو اسم الرحمة.

فإذا تنبّه المرء إلى حقيقة الملك، وأن الطبيعة مسخّرة له، بدأ باستثمارها.

وخطأً يظن البعض أنهم مسخّرون للطبيعة دون العكس، كما هو الشأن في الإنسان البدائي الذي كان يؤمن أنه ابن الطبيعة ومُقاد لها. ومن هنا؛ كان المصريّون القدماء يقدمون أجمل بناتهم قرابين للطبيعة المزعومة في فصل الربيع، إذ يرمونهن في نهر النيل ليتزوّج بهن، فيهدأ غضبه عليهم ويعطيهم من بركاته!!.

وما يزال البعض من الشرقيين من يدفن الزوجة حيّة مع الزوج المتوفّى!!.

كما أنه ما يزال الكثير من الناس تستولي الغفلة عليهم، حتى لتراهم يفضّلون الانطواء على أنفسهم؛ خوفًا من الطبيعة أو من

بعض ظواهرها مثل الظلام أو الجن أو جسد الميّت.

وهذا الخوف الذي يصل إلى مستوى الرعب، يعود إلى عدم معرفة موقع الإنسان من الطبيعة، وأنه سيدها وليست هي سيدة عليه. وبتعبير آخر؛ إنه ناشئ عن معرفة نعمة الملك التي أسبغها الرب علينا، حيث جعلنا نُسخِّر ما في الأرض. وهكذا نعرف أن المعرفة تؤدّي إلى اكتشاف سبل التعامل مع النعم.

» إنّ إمعان النظر في النعم التي مَنّ الله بها علينا، ثمّ الاهتمام بمحاولة إحصائها؛ كلّ ذلك يُفضي إلى استنتاج الحقيقة الصادحة بأن الحياة عبارة عن مدرسة للرحمة.

واليوم ترى الدول تُعطي الشركات العالمية الكبرى حقوق امتياز التنقيب عن النفط واكتشافه، لأن شعوبها لا تعترف بأهمية هذه النعمة، فتراهم ينامون على بحيرات من النفط والفقر يحتوشهم من كلّ ناحية.

ومعرفة النعم تتمثّل في التأكّد من أن الله تبارك وتعالى قد سخّر الطبيعة لهذا العارف. هذا إضافة إلى أن معرفة النعم ينبغي أن تكون معرفة شمولية؛ لأن من النعم ما هي ظاهريّة، كالنفط في بعض البلاد، ومنها ما هي خفيه، مثل نعمة العقل ونعمة الإرادة وغيرها.

كيف نستفيد من النعم؟

ثم إن من مشاكل الإنسان الأساسيّة، الجهل بكيفيّة الاستفادة من النعم؛ أي عدم امتلاكه المفاتيح المناسبة لاستثمار النعم. ومعلوم أن لا مفتاح أفضل من القرآن والرّسل والأئمة. شأنه -المفتاح- في ذلك شأن المهندس الذي يرسله صاحب المصنع لتشغيل جهاز معقّد اشتراه، وهو يجهل كيفيّة تشغيله والاستفادة منه، فلا يمكن

بحـال من الأحوال لهذا الزبون أن يسـتغني عـن المهندس أو يتكبّر عليه، أو يتجاهل دوره.

كذلك الله سبحانه وتعالى حين خلق الخلق وزوّدهم بالنعم، بعث إليهم أسباب الهداية إلى معرفة النعم وتعليمهم سبل استثمارها. وأسباب الهداية هم الرّسل والأئمة، إلّا أن التاريخ الإنساني شاهد على مدى تكبّر الغالبية من البشر على هذه الحقيقة. والتكبّر هذا قد أخذ أشـكالًا وصورًا متعدّدة؛ مثل الكفر بـالله وبمنهجه، والتعالي على رسل الله سبحانه والهداة من أتباعهم.

تدبّـر -أيها القـارئ العزيز- في هـذه الآيـة الشريفة، حيث قالـت: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ أي: أن هـذا الـشيء وهـذا الأمر -التسخير- قابل للرؤية، ولا تحتاج الرؤية إلّا لفتح العينين -على الأقل- ليعي ابن آدم الحقيقة، وهي أنه حينما يمشي على الأرض أو يحفرها، فإنها تخضع له ضمن نظام التسخير الإلهي.

والغريـب في الأمـر، أن الله عزّ وجلّ لم يتحدّث للبشرية عن تسـخير الأرض وما فيها فحسب، وإنما تحدّث أيضًا عن تسخير ما في السـماوات أيضًا، الأمر الذي يعكس -بوضوح- أن في الإنسان قابليّات عظيمة تؤهّله حال استخدامها إلى استثمار ما في السماوات وما في الفضاءات العلى.

ولو أن البشريّة أسرعت الخطى في اكتشاف الأرض والتعرّف إلى مـا فيها من إمكانات ونعم هائلة، ولـو لم تحل الأفكار والعقائد المتخلّفـة التي تمنع الشـعوب عن التقدّم في مجـالات الحياة، لكانت البشرية قد وصلت الآن إلى مراحل بعيدة جدًّا عمّا هي الآن عليه.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، الإسـباغ يعني الكمال،

ومن كمالها أن الإنسان لا يتحمّلها إلّا لأنها كاملة متواترة، وتتنزّل على ابن آدم بحكمة متناهية.

والإسباغ بالنعم غالبًا ما يتبعه فراغ في ذهنيّة الإنسان، حيث لا يعرف كيف يتعامل معها.

أمّا النعم الظاهرة، فهي التي يعرفها كلّ إنسان؛ مثل نعمة البصر والسمع والطعام والشراب والقدرة على الحركة وغير ذلك.

وأمّا النعم الباطنة، فهي مثل ما أعطى الله الإنسان الحق في التقدّم نحوه والطلب منه، وغير ذلك.

الشقاء ميراث الجدل

ولكن لماذا يشقى ابن آدم وتتعثّر حياته مع كلّ هذه النعم؟.

إنما يشقى لأنه يسيء التصرّف بهذه النعم، جهلًا وظلمًا، وذلك حيث يجادل في الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ أي أنه يريد -بجهله وظلمه وعناده- أن يكون هو المشرّع، متكبّرًا على الله الخالق وربوبيّته وهيمنته المطلقة على الخلق.

فالله تعالى أعطى الإنسان أنواع النعم التي لا يحصى عددها، ثم أرسل له من يعرّفه النعم ويعلّمه كيفيّة التعامل معها، وأعطاه عقلًا يستوعب به تعاليم من اصطفاهم الله لهداية الناس، كما أنه عزّ وجلّ أنزل كتبًا سماويّة تتضمّن مناهج دقيقة ومتكاملة. لكن الإنسان الذي ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ كيف ينتفع بكل هذه النعم؟.

إنه يسـعى بسبب جهله وظلمه وتكبّره سعيًا حثيثًا إلى تجاوز الحقائق والثوابت والسـنن، كمن يقصد مدينةً شماليّة، ولكنّه يتّجه صـوب الجنوب، ويُكابر ويزيـد إصرارًا على صحّة اتِّجاهه رغم من يريد نصحه وإرشاده.

وهـذه الحقائق الثـلاث هي ما يفتقر البـشر إليها؛ أي العقل والعلم والكتاب المنير.

» بصائر وأحكام

١- الرحمـة هـي أعظـم أسـماء الـرب تجليًـا في خلقـه وإنـما للعذاب أسبابه ومن أبرزها الجهل بالنعم أو عدم الانتفاع بالطريقة السليمة.

٢- ولقـد أرسـل الخالق إلينا مـن يعلمنا كيف نسـتفيد من نعمه التي أسبغها علينا، والبعثة هذه مكملة لتلك النعم.

» من أسباب الهداية هم الرّسـل والأئمـة، إلّا أن التاريخ الإنسـاني شاهد على مدى تكبّـر غالبية البشر على هذه الحقيقة. والتكبّـر هـذا قـد أخذ أشكالًا وصورًا متعدّدة؛ مثل الكفر بالله وبمنهجه.

» أسباب الشقاء

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

***

حينما يُسئل البعض عن أسباب إصراره على الانطلاق مجرّدًا عن كلّ البصائر، قال: كان أبي هكذا ولستُ على استعداد لأن أحيد عن مسيرته.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ تهرّبًا من الحقّ، وربما كان ذلك الأب متّجهًا نحو الباطل، أو كان الأب محكومًا بظروف مغايرة دفعت به إلى التوجّه ضمن منحىً خاص؛ فهو يسير ضمن مسيرته الخاطئة. لماذا؟.

لأنه وَجَدَ أباه، ولعلّه على خطأ في وجدانه وفي تصوّره لحقيقة أبيه، مما يدفعه إلى السقوط في مشكلة تحوير التأريخ بعد أن يزداد عنادًا من ناحية، وخضوعًا لوساوس الشيطان من ناحية أخرى.

الشقاء وتحوير التاريخ

ولعلّ كثيرًا من المسلمين لا يعرفون التاريخ الإسلامي ولا يعونه بحقائقه، وإنما يقومون بإسقاط ما في أنفسهم من وساوس وأفكار باطلة وما في واقعهم من فساد وتخلّف على التاريخ؛ أي أنهم يحمّلون ما لديهم من توجّهات وآراء مسيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومسيرة أهل بيته عليهم السلام، شأنهم في ذلك شأن من كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله.

فمن المسلمين من يتصوّرون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام كانوا أشبه بالشخصيّات الصوفيّة، يجلسون في زوايا المساجد حاملين بأيديهم المسبحات الطويلة ويسبّحون بها ليل نهار... وإذا سألتهم عن حروب النبي وغزواته التي قادها خلال حياته الكريمة، قالوا بأنها قد فُرضت عليه فرضًا، ويتجاهلون لدى ذلك، أن مثل هذه الحروب قد تُفرض عليهم أيضًا، ولكنهم يستسلمون للعدو فورًا، دون أن يُكلِّفوا أنفسهم معركة القتال في سبيل الله. وإذا سألتهم عن واجبي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برّروا تهرّبهم منهما باختلاف الأوضاع الراهنة مع فترة النبوّة. أمّا إذا سألتهم عمّا كان يقوم به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من بناء المساجد، أو مساعدة الناس، أو نشر العلم في الوسط الاجتماعي؛ جاؤوا بأنواع الأعذار وتفننوا في التزام ثقافة التبرير واللّامسؤولية.

وحقيقة الأمر تشير إلى أنهم لا يحترمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء ذكره في القرآن الكريم وعرفه التاريخ الحقّ على أنه خاتم المرسلين، وإنما هم صنعوا في أذهانهم صورة عنه تتوافق مع أهوائهم وأفكارهم الباطلة. وبتعبير آخر؛ إن الفرد المؤمن الصادق والمجاهد

والعـارف، يختلف نبيّه الذي يؤمن به عـن نبي هؤلاء المتهرّبين عن أداء مسؤولياتهم القرآنيّة.

الشيطان داعية الشقاء

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فالشيطان لم يترك البشر، إذ هو العدوّ الحقيقي، والخفي والمتلصص الـذي يحيط هو وجنوده بالإنسـان مـن كلّ مكان، وهو مترصّـد أبـدًا عـلى طريـق الحـقّ، ويدفـع إلى ممارسـات أشـكال الرذائل. وبالتالي، فهو قد أقسـم على إفساد ابن آدم وتخريب حياته الدنيويّة والأخرويّة.

» لعلّ كثيرًا من المسلمين لا يعرفـون التاريـخ الإسـلامي ولا يعونـه بحقائقـه، وإنمـا يقومون بإسقاط ما في أنفسهم من وسـاوس وأفكار باطلة وما في واقعهم من فساد وتخلّف على التاريخ.

ومن هنا؛ نكتشف أن سببًا آخر من أسباب الشقاء الإنسـاني هو الشـيطان واتّباعه، هذا العـدوّ اللّدود، ولم يرتضِ لنفسه أن يسقط في نار جهنّم لوحده.

فلماذا يتخذ الإنسـانُ الشـيطان رفيقًا، وهـو يخدعه ويغويه، بينـما الله تعالى قد حذّر بكلّ صراحة من هذه الهاوية، حيث خاطب جميع أفراد البشريّة قائلًا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1].

فـإذا كان أحدهـم غـير متنبّه فيقـول: إنه لم ير الشـيطان ولم يعرفـه، فوقـع في فخّه. فـإن هذه هي الطامّة الكـبرى، إذ كيف له أن يجهـل الشـيطان وهو يجده مُحرِّضًـا له على تـرك كلّ عمل خير يريد القيام به، أو عند كلّ شر يريد الابتعاد عنه؟ وكيف لا يعرف ابن آدم عدوّه التاريخي وهو موجود –بنفثاته– بين حناياه. ثم إنّ الشـيطان لـه أتباعه من الجـن، وكذلك له وكلاؤه من الإنـس الذين يأمرون

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

بـكلّ منكـر وينهون عـن كلّ معروف، وهـم يحبّون إشـاعة الفرقة والبغضاء والفحشاء وكلّ ما لا يرتضيه الله عزّ وجلّ للإنسان.

الحـق الجلي ما قاله الله تعـالى في القرآن المجيد: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[1].

إذ بمسـتطاع الإنسـان أن يميّـز بـين نفثـات الشـيطان وبين نفحـات الوحـي، هذا بالإضافـة إلى أن مـن يتّبع الشـيطان يجد ما يُشـقيه؛ لا محالـة، أي أن الإنسـان له أن يتعرّف عـلى بدايات عمله وطبيعـة انطلاقته من خلال عواقب الأمـور ونهاياتها، وبمجرّد أن يعقد العزم على هجر الشـيطان، وعـلى اتّباع هدى الرحمن، وتحدّي أسباب الشقاء، يجد الله تبارك وتعالى خير ناصر له وخير معين.

وقـد قـال ربّنـا المتعـال: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾. ثـم قـال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾[2].

» من أسـباب الشـقاء الإنسـاني هو الشيطان وأتّباعـه، هـذا العـدوّ اللدود، ولم يرتض لنفسه أن يسـقط في نار جهنّم لوحـده فلمـاذا يتخذ الإنسانُ الشيطان رفيقًا، وهو يخدعه ويغويه..

ونظرة واحدة يلقيها الإنسـان -العازم على البدء بحياتـه- عـلى مصائر أتباع الشـيطان مـن ناحية، وعلى واقـع أولئك الذيـن اتبعوا الرحمن وعبـدوه، إنها تكفيه لأن يكسـب تجربة الحياة لصالحه. مما يعني أنّ كلّ واحد منّا بحاجة ماسّـة إلى وقفات تأمّـل وتفكير جدّي، وأن يـترك اللّامبـالاة واللعـب والهزء بالحياة حين تسـنح له فرصـة تفكير، وبمجـرّد التفكـير الجـدّي والموضوعي

(١) سورة القيامة، آية: ١٤- ١٥.
(٢) سورة يس، آية: ٦٠- ٦٢.

يصل إلى الحقيقة. وإن من يدَّعي أنه قد فكّر ولم يجد الحقيقة، فإنه مخطئ؛ لأن الله تعالى قد أتمّ حجّته على الناس، وكانت له الحجّة البالغة. هكذا يكفي كل إنسان وقفة تأمّل وتفكير ونيّة صادقة مخلصة، ليعرف الحقائق.

بين العذاب الأدنى والعذاب الأكبر

وهنا يشير ربّنا سبحانه وتعالى إلى هذا الأمر، ويقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. وهذا التعبير القرآني يدل على أن الإنسان يعرف الشيطان ويعرف كونه عدوًّا له، ولكنه في الحقيقة غافل أو متغافل عنه ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

يعاني البشر في الدنيا ألوانًا من الشقاء؛ مثل الفقر والمرض والظلم وأمثال ذلك، ولكنّها مع ذلك تعتبر ألوانًا محدّدةً بنسبة محدودة وبوقت معيّن ومكان محسوب، وفي النهاية يغادر الإنسان الدنيا وتنتهي كل تلك المعاناة. لكن المشكلة الكبرى والبلاء الأعظم هو في الآخرة، حيث لا يمكن بحال من الأحوال قياس عذاب الدنيا به. وقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «**إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أَنْ يُطِيقَهَا، وَإِنَّهُ لَيُؤْتَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تُوضَعَ عَلَى النَّارِ فَتَصْرَخَ صَرْخَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَزَعاً مِنْ صَرْخَتِهَا**»(١).

فكيف سيتحمّل الإنسان الضعيف، بجلده الرقيق، وعظامه الهشّة.. تلك النار؟!.

(١) بحار الأنوار، ج٨، ص ٢٨٨.

» بصائر وأحكام

١ - التاريخ منشأ ضلالة الكثير ومن أسباب شقائهم، إما بسبب الجمود عليه، أو عبر إسقاط ما في النفس عليه وتبرير الفساد به بعد تحريفه، أو بسبب تقديس الآباء واتِّباع نهجهم الخاطئ.

٢ - الشيطان يُسوِّل للناس أخطاءهم، ولو عرفه الإنسان وطبيعة عودته إلى السعير لعله لكان يتوقف عن اتِّباعه.

» كيف نتحدى عوامل الشقاء؟

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

***

١ - ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴾.

لكي يتحدّى ابن آدم عوامل الشقاء الذي قد لا يقتصر على الدنيا وما فيها من حياة محدودة، وإنما يمتد ويتواصل -والعياذ بالله- حين يقع الإنسان فيه إلى عالم البرزخ ومن ثم إلى يوم القيامة وربما إلى ما بعده.. لكي يتحدّى هذه العوامل، لابدّ أن يستطيل ويكبر ويصبح إنسانًا حقيقيًّا ويستفيد من إرادته وإنسانيّته، وأن تكون له إرادة حازمة وصارمة.

ولعلّ كثيرًا من الناس من يرغب أن يكون من الصالحين، ولكن رغبته هذه لا تعدو أن تكون مجرّد حلم وأمنية. والصلاح ليس بالتمنّي، وإنما ينبغي أن يكون مؤمنًا، والإيمان لا يدرك بالتمنّي ولا بالترجّي، بل هو وقر في القلب، وعمل بإرادة وعزم،

ثم عمل بالجوارح؛ نظرًا لأن الإيمان هو جوهر الإنسانيّة، وبه يكبر الإنسان وينال العظمة بحقيقتها.

وحيث إن الخاسرين والفاشلين هم من ينتظرون أن تأتيهم المكاسب بلا متاعب، فلابدّ أن يتوفّر لدى ابن آدم الراغب في النجاح، العزم والجدّية ليصبح إنسانًا. والعزم لابدّ أن يكون في نطاق إرادة الجنّة والخلاص من النار. أمّا من يتخبّط ويصاب بداء التردّد، فإنه يخرج من الحياة خالي الوفاض. هذا من ناحية العزم والإرادة.

انطلاقة الإخلاص

أمّا من ناحية النيّة، فينبغي أن تكون خالصة لوجه الله تعالى؛ لأنّ النيّة هي التي تصبغ العمل بصبغتها، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1].

ورغم أن ظاهر الأعمال متشابه، إلَّا أن الفرق شاسع وكبير بين من يعمل لله خالصًا لوجهه الكريم، وبين من يعمل لمصالحه الشخصيّة. إذ الوجهتان متفاوتتان، حيث تنتهي إحداهما إلى السعادة، والأخرى إلى الشقاء والهلاك.

والنيّة تعني أن يُطَهِّرَ المرء قلبه من الوساوس والغايات المغايرة لحبّ الله وطاعته.

إن الهدف الأساس للإنسان ينبغي أن يكون الخلاص من النار، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٤.

ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1].

إن هدف الإنسان الأوّل والأساسي هو الخلاص من النار، مما يعني أن الناس عادة يكونون من أهل النار بسوء أعمالهم، وعليهم أن يجاهدوا من أجل الخلاص منها.

بلى؛ من الممكن أن يستهدف غايات موقّتة أخرى، شريطة أن تتأطر -بدورها- إلى هذا الهدف الكبير، والنجاح فيه هو المقياس لنجاحه في الأهداف الأخرى.

ولهذا نجد القرآن الكريم يؤكّد ضرورة إسلام الوجه إلى الله؛ أي أن تكون بداية العمل بداية إلهيّة، وحركته باتجاه رضا الله تعالى. والله يعني الخير، ويعني الوصول إلى الجنّة، ويعني كل فضيلة. وهو محسن، حيث تُترجم النيّة إلى عمل صالح، والعمل الصالح هو الإحسان، وهو كلّ عمل فاضل يقوم به الإنسان في الاتجاه الصحيح الذي رسمه الربّ المتعال، وبالنيّة الخالصة.

وهذا الإنسان العامل من الطبيعي جدًّا أن تتعرّض حياته لهزّات وعواصف؛ عواصف الشهوة، وعواصف الضغوط الاجتماعية، وعواصف السياسة الملتوية، وغير ذلك. والإنسان الواعي يعرف واقعه بأنه أشبه ما يكون بمن يسكن في المدن والمناطق الواقعة على خط الزلازل، حيث يتوقّع حدوثها في كلّ حين.

ولكن من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، فإنه في منجىً من جميع العواصف والأحداث المفاجئة، لأنه متمسّك بالعروة الوثقى والحبل الإلهي المتين، ولأنه على يقين من الحقيقة الربّانية القائلة

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[1]، إذ في نهاية الرحلة الدنيويّة الشاقّة، تعود الأمور وجميع المصائر إلى الله، فهو المبدئ وهو المعيد؛ بمعنى أن كلّ عمل صالح يقوم به الإنسان مكتوب ومُثبت عند الله الذي لا يضل ولا ينسى، وهو الحكم العدل.

العروة الوثقى

أمّا مصاديق العروة الوثقى؛ فهما اثنان:

الأوّل: كتاب الله.

الثاني: حملة الكتاب، من الأنبياء والرّسل عليهم السلام، ومن ثم الأئمة الطاهرون عليهم السلام.

ومن هنا؛ اعتبرت ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ومن يُمثّل خطّهم حقًّا بمثابة الوعاء للوحي الإلهي.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد وردت كلمة (حبل الله) في سورة آل عمران المباركة حيث قال عزّ اسمه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[2].

وجاءت هذه الكلمة المماثلة لكلمة ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ في سورة البقرة وسور أخرى؛ بتعابير شتى ولكن في سورة آل عمران، وحينما بيّن الله تعالى سياق مسألة حبل الله، وَضَّحَ قبل ذاك مصاديق حبله على الأرض.

جاء السياق القرآني في سورة آل عمران حول قضيّة مهمّة، وهي أن المشركين يريدون إضلال المؤمنين، فقال: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[1] ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾[2].

إذن؛ فحبل الله هو كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

» لعلّ كثيرًا من الناس من يرغب أن يكون من الصالحين، ولكن رغبته لا تعدو أن تكون مجرّد حلم وأمنية. والصلاح ليس بالتمني، وإنما ينبغي أن يكون مؤمنًا، والإيمان هو جوهر الإنسانية.

ونقرأ في نهايات سورة آل عمران الآية التالية ضمن سياق قرآني معيّن: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾[3].

فهناك منادٍ إذن.

وقال الله في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4].

فالقرآن المجيد يبيّن ويؤكّد أن هناك هاديًا ومعلّمًا داعيًا، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعد الرسول عترته الطاهرة، بنص ما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ الله، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[5].

ولذلك؛ فقد جاء في تفسير كلمة العروة الوثقى الواردة في هذه السورة والسور الأخرى، بأنها ولاية أهل البيت عليهم السلام.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠١.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠١ - ١٠٣.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٣.
(٤) سورة الجمعة، آية: ٢.
(٥) الأمالي، للشيخ الصدوق، ص٥٢٢.

قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**سَيَكُونُ بَعْدِي فِتْنَةٌ مُظْلِمَةٌ، النَّاجِي فِيهَا مَنْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ الله الْوُثْقَى.**

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **وَلَايَةُ سَيِّدِ الْوَصِيِّينَ.**

قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! وَمَنْ سَيِّدُ الْوَصِيِّينَ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.**

قِيلَ: وَمَنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **مَوْلَى الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامُهُمْ بَعْدِي.**

قِيلَ: وَمَنَ مَوْلَى الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام**»(١).

« من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، فإنه في منجىً من جميع العواصف والأحداث المفاجئة، لأنه متمسّك بالعروة الوثقى والحبل الإلهي المتين، ولأنه على يقين من الحقيقة الربّانية.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب عليه السلام يوم خيبر: «**أَنْتَ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِيْ لَا انْفِصَامَ لَهَا**»(٢). وقال له: «**أَنْتَ إِمَامُ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَوَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ بَعْدِي**»(٣).

وقال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْأَئِمَّةُ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَنْ أَطَاعَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَاهُمْ فَقَدْ عَصَى الله؛ هُمُ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَهُمُ الْوَسِيلَةُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ**»(٤).

(١) بحار الأنوار، ج٣٧، ص٣٠٧.
(٢) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، السيد ابن طاووس، ص٥٢١.
(٣) بحار الأنوار، ج٢٨، ص٤٥.
(٤) بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٤٤.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا فَلْيَتَمَسَّكْ بِوَلَايَةِ أَخِي وَوَصِيِّي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَنْ أَحَبَّهُ وَتَوَلَّاهُ، وَلَا يَنْجُو مَنْ أَبْغَضَهُ وَعَادَاهُ**»(١).

وهكذا تتبيّن حقيقة الإيمان عبر سلسلة من القرارات والأعمال، حيث الإنسان مأمور بأن يقرّر ويعقد العزم على أن يكون فردًا فاضلًا من أهل الجنّة، وأن ينأى بنفسه عن النار ويتزحزح، ثم يجعل هذا المعيار أساسًا.. فهذه نيّة خالصة.

ثم يُحصِّن نفسه بأعماله الصالحة، ليتمسّك بالعروة الوثقى وولاية الكتاب وولاية حملة الكتاب ودعاة الوحي، وهم الرّسل والأئمة الطاهرون.

الإيمان وحدة متكاملة

ثم إنَّ الإيمان وحدة متكاملة، قاعدته وقر في القلب؛ بمعنى أن له جذر في النفس ينبت عزمًا وعملًا صالحًا واستقامة، على الطريق، لا تميل به الحوادث ذات اليمين أو ذات الشمال.

وأنّى اعترضت المؤمن مشقّة وفرضت عليه قيودٌ وضوابط تمنعه، ومهما هجمت عليه لوابس الشيطان، واعتصرته شهوات الذات، وعصفت به ضغوط الخارج.. فإنه لا يتزلزل؛ لأن وعيه بأن عاقبة الأمور إلى الله عزّ وجلّ، وهو الذي يُعينه على المقاومة والثبات بوجه كلّ تلكم الضغوط، لأن التفكير الواعي والجدّي بأمر الآخرة يوفّر للإنسان كل مقومات الاستقامة والتحدّي

(١) بحار الأنوار، ج٣٨، ص١٢١.

والتنافس على ما فيها من نعيم أبدي، وعلى الهروب مما فيها من عذاب أبدي.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في كلمةٍ وصف فيها فلسفة الحياة في الدنيا والآخرة: «**وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ**»[1].

بمعنى أن الدنيا يجب أن تُتَّخذ ساحةَ سباقٍ وتنافسٍ إلى الجنّة، وليس سباقًا إلى توافه الأمور. كما يجب أن يعي المرء أنه ما لم يعمل ويتنافس للفوز بالجنّة، فإن غايته ستكون النار وبئس المصير.

وهذه الحقيقة لابدّ أن تبقى ماثلة في ذهن الإنسان أبدًا، لتعينه على فهم سرّ وجوده وخلقته، ولتنجيه من الوساوس الشيطانية الباطلة والضغوط الدنيوية التي قد تصرفه عن التمسّك بدينه. وهذه الحقيقة هي التي عبّر الله تعالى عنه ببصيرة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقد يُصادف الإنسانَ امتحانٌ صعبٌ، ولابد من أن يثبت جدارته في إتقانه واجبه، فيفوز بجائزته الكبرى، وهي الجنّة والرضوان.

بلى؛ إنّ الإنسان مُعرَّض في كلّ لحظة إلى الامتحان.. وإلقاءات العدوّ المبين -الشيطان- متواصلة ومتتالية عليه، ولا يجعل من الإنسان فائزًا سوى جوهر الإيمان المبني على أن لله عاقبة الأمور وإليه المصير.

ولذلك، أضحى من الضروري جدًّا بالإنسان أن يعمل على

(١) نهج البلاغة، خطبة: ٢٨.

الارتقاء بمستواه العَقَدِي والسلوكي ليردم ما يصنعه الشيطان من هـوّة بينـه وبين ربّـه المتعال، ليسـتطيع من خلال ذلـك أن يُنمّي في نفسـه البصيرة النافذة والكافية ليكون كمن يرى الجنّة رؤية العين، فيرغب فيها؛ ويكون كمن يرى النار، فيفر منها.

» إنَّ الإيمـان وحـدة متكاملة، قاعدته وقر في القلب؛ بمعنى أن له جذر في النفـس ينبـت عزمًا وعملًا صالحًا واستقامة، على الطريـق، لا تميل به الحوادث ذات اليمين أو ذات الشمال.

ولا يتسنّى له ذلك ما لم ينظر في آيات الله سبحانه وتعـالى، فينظـر إليها من خـلال الآفاق التـي يفتحها له النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام عبر سيرتهم وأحاديثهم وأدعيتهم. ومن الممكن إنجاز المهمة عبر قطع مسافاتها خطوة فخطوة، ليأخذ الله تعالى بيديه ويزيد له في البصيرة والهداية، حتى يصل إلى مرحلة تخرق له الحجب وتتمثّل له العاقبة الحق.

الإسلام يطرد الشقاء

إنّ المراد من الإنسان كمخلوق أن يقبل بما أمره الله بلا جدل واعـتراض، فيسـتمع إلى أيات ربّه بكل طمأنينة وتسـليم، ومن ثم يتخلّص من أسباب الشقاء، بما فيها المتكرّسة في نفسه، سواء بسبب الضعف أو الجهل أو الحسد أو سائر الصفات الرذيلة الأخرى، أو حتـى بسـبب همزات الشـيطان الذي يجري في نفس ابـن آدم مجرى الدم في الجسد، حيث يُثير النزعات الفاحشة في النفس الإنسانيّة.

فإذا أسـلم الإنسـان وجهـه وتوجّهه إلى الله عزّ اسـمه، فإنه لا ريب سـيتخلّص من مشـاكله الذاتية وأزماتـه الداخلية؛ بمعنى أنه سـيجبر ضعفـه ويلغي جهلـه، حيـث ينتهي به (الإسـلام) إلى التوكّل على الله والثقة به والاهتداء بما نزل من لدنه من كتاب وقيم وتعاليم.

هذا بالإضافة إلى أن الله تعالى سيُعينه وينصره، فيطرد عنه كيد الشياطين؛ لأن إسلام الوجه إلى الله يعني اتِّباع منهج الربّ الحكيم، وهـذا الاتِّباع ينتهـي عند نقطة التكامـل واللقاء.. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1].

فمـن جهة، يسـلّم الإنسـان وجهـه إلى ربّه، فيتبـع منهجه؛ ومن جهة يُحسـن إلى الآخرين، ويتخذ من الإحسـان خلقًا.. حتى تكون علاقته بالله علاقة العبوديّة المطلقة، فيما علاقته بالناس علاقة الإحسـان. وقد مهَّـد الله تعالى لاسـتيعاب وتكريس هـذه الحقيقة القرآنيـة بالحضِّ على الإحسـان للوالديـن؛ أي الانطلاق في عملية الإحسان من نطاق الأسرة ومن حدود الأقرب فالأقرب.

ومـن فعل ذلك، وانتهـج هذا النهج القويم فقد استمسـك بالعـروة الوثقـى، التي لها أن تـزوده بالقدرة والقابليـة على مقاومة ومواجهة إغراءات الشيطان وتحدّيات الحياة التي تحيط به، مما يزيد من وعيه بحكمة خلق الله لهذا الوجود.

٢- ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

فإذا سـلّمنا أمرنا إلى الله، وتمسّـكنا بالعـروة الوثقى، فإننا في الحقيقـة نُعرب عـن إيماننا بـأن العاقبـة والنهاية السـعيدة هي عند الله عزّ وجلّ، حيث يسـتضيف المؤمنـين الصالحين على مائدة الجنّة وأفضل أنواع النعم التي كان تبارك وتعالى قد أسبغ نموذجًا مصغرًا منها في الدنيا، ليجعلها خالصة لمن أحب وأراد في الدار الآخرة.

وجـذوة القول هي: أن الله سـبحانه وتعـالى قد بيّن لنا أصل

(١) سورة الانشقاق، آية: ٦.

قضيّـة العبوديّة له سـبحانه، كما أنه قد أشـار بشـكل عـام إلى قيمة الإحسان.

أمّـا العلاقة بين هاتين الحقيقتين، هـي علاقة تحديد الأمور، ورسـم لما ينبغي أن تكون عليه طبيعة الانطلاقة والحركة الإنسـانية في الحيـاة، مع الأخـذ بنظر الاعتبار والإشـارة إلى نقاط القـوّة والضعـف في الـذات الإنسـانيّة؛ إذ أوحت هذه الآيـة (لقـمان، ٢٢) ومـا قبلها، بـأن جانب القـوّة لدى ابـن آدم في قابليّته على ممارسـة الإحسـان. فيـما الجانب الضعيف عنده، له أن يدعمه بالتوكّل على الله والنظر إلى حكمة الوجود والسـعي إلى طرد الشـيطان وعدم اتِّباع همزاته وإلقاءاته.

» إنّ المراد من الإنسـان كمخلوق أن يقبل بما أمره الله بلا جـدل واعتراض، فيسـتمع إلى أيـات ربّه بكل طمأنينة ونسـليم، ومـن ثمّ يتخلّـص مـن أسباب الشـقاء، بما فيها الصفات الرذيلة.

» بصائر وأحكام

١ - الإيـمان جوهـر الإنسـان وروحه العـزم، فالمـتردد يقع في شرك الشـيطان، وإسـلام الوجـه لله بنيـة خالصـة وترجمة ذلك بالإحسـان إلى النـاس، هـو الحبل المتـين الذي يعتصم بـه المؤمنون لمواجهة الضغوط التي تدعوهم إلى الانحراف.

٢ - والإيـمان وحـدة متكاملـة من عـزم في الفؤاد وممارسـة بالعمـل الصالح، وتحدي الضغوط، وعلى الإنسـان المجاهدة لرفع مستوى إيمانه يومًا بعد يوم.

» عقبى الكفر الخسران المبين

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

***

يتلاشى المرء حين يدخل في متاهات الكفر، ولا حاجة لتتبّع مصيره أو الحزن على واقعه وما سيتعرّض له في مستقبل حياته؛ لأن الإيمان هو سلاح الإنسان، ومن يدخل المعركة بلا سلاح، فهل مصيره إلا الخسران؟.

وقد قيل لأحدهم: إن الجيش الفلاني قد خسر الحرب، فهل لك أن تخبرنا بأسباب الخسارة؟.

فقال: لمئة سبب.

فقالوا له: اذكر لنا مثالًا.

فقال: لأن الجيش لم يمتلك السلاح المناسب والكافي.

فقيل له: يكفينا ذلك، إذ لا حاجة لنا بمعرفة الأسباب الأخرى، فالحرب بحاجة إلى سلاح.

نعم؛ إنّ الإيمان هو السبب الأوّل والأساس للتقدّم والرقي، فإذا أضاع المرء هذا السبب وفرَّط به، فقد حكم على نفسه بالضياع والفناء، وهو إذ ذاك لا يستحق الاهتمام، ولا حاجة لأحد أن يسأل عن سائر الأسباب.

ومهما أمعن هذا الكافر المُعرض عن تعاليم ربّه في حياكة المؤامرات والإفساد في الأرض، يبقى رهينًا لواقع حتمي لا يمكنه الفرار منه أبدًا، وهذا الواقع قد عبّرت عنه الآية الكريمة القائلة: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إذ لا يسعه الفرار من حكومة الله ومملكته، حيث يعجز عن مقاومة الموت مهما تجبّر.

ورغم وجدانيّة التعبير والكلام وفطريّته ووضوحه ومعقوليّته، فإنه كذلك يعكس لنا -نحن الموحّدين- آفاقًا؛ مفادها أن المؤمنين حينما يرون صولة الكافرين وجبروتهم وكلّ وسائلهم التدميريّة، إنْ على صعيد الثقافة أو القوة الاقتصادية والعسكرية أو المكر السياسي، فإنه لا ينبغي لهؤلاء المؤمنين الاغترار بهم؛ لأن الاغترار يبعث على انكفاء المؤمنين على أنفسهم، أو تضييع مسيرتهم الحقّة.

كلا؛ إن مصير هؤلاء الكفّار الانهيار ومن ثم النار. وهذه الحقيقة من شأنها أن تُنتج الثقة وتكرسها في نفوس المؤمنين تجاه الهزيمة الحتمية التي يتعرّض لها الكافرون مهما تعاظمت قواهم وزاد طغيانهم. قال الله سبحانه: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1].

نظرًا لأن الكفر -مهما اتَّسع وتعاظم- يبقى حالة طارئة

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٦.

على واقع الإنسانية، في حين أن الإيمان هو القاعدة التي تتمحور عليها الحياة البشرية، وهو الذي تُقاس به مجريات الأمور وتفاصيل المعيشة.

فالمال والجاه والعمل والزوجة والمشروع الثقافي والسياسي وغير ذلك، مهما ازداد جاذبيّة، وضغطًا نفسيًّا أو اجتماعيًّا؛ يبقى مجهول الهوية، إذ الإيمان هو المعيار للتعامل مع هذه الأمور وطبيعة الموقف منها.

ومع هذه الحقيقة الواضحة، يبقى من الأوضح بالنسبة للمؤمنين، ألَّا يتواكلوا ولا يبرروا الكسل والتهاون، تحت طائلة الفشل الحتمي للكافرين، وإنما عليهم أن يُساهموا في ترجمة هذه الحقيقة المحتومة من خلال مواقفهم الإيمانية المستلّة أساسًا من القيم والتعاليم الإسلامية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[1].

» إنّ الإيمان هو السبب الأوّل والأساس للتقدّم والرقي، فإذا أضاع المرء هذا السبب وفرَّط به، فقد حكم على نفسه بالضياع والفناء.

إنّ ما يملكه الكافرون خواء محكوم بالفشل، في حين أن الذي يمتاز به المؤمنون حقيقة تؤدّي إلى النجاح والفوز. إذ الأهداف الكافرة تُحقّق بوسائل استغلالية وملتوية باطلة، والله المتعال لم يخلق الخلق ولم يخلق البشرية بالذات لأهداف باطلة. ولذلك؛ فإن الحركة الكافرة حركة تتناقض وسنن الله في خلقه، فلابدّ للكافرين من الاصطدام معها عاجلًا أم أجلًا.

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

سؤال هام

يلاحظ أن الآية الثانية والعشرين من هذه السورة المباركة قد تحدّثت بلغة الفرد، إلَّا أن الآية التي تلتها قد تحوّل الحديث فيها إلى لغة الجمع. فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، وهذه لغة الفرد.

» المال والجاه والعمل والزوجة والمشروع الثقافي والسياسي... مهما ازداد جاذبيّة، وضغطا نفسيًّا أو اجتماعيًّا؛ يبقى مجهول الهوية، إذ الإيمان هو المعيار للتعامل مع هذه الأمور وطبيعة الموقف منها.

لكنّه تعالى عقّب بالقول المجيد: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم﴾.. فما هي الحكمة في هذا التحوّل؟.

لعل **الجواب**: أنه حينما يرجع الكفّار إلى الله سبحانه وتعالى، سيجدون عنده المحاسبين، وهم الملائكة، كما سيجدون الأنبياء والأئمة ليشهدوا على الخلق. مما يعني أن رجوع الكافرين ليس إلى الله وحده، وإنما إلى المحاسبين والشهود أيضًا، وهم الملائكة والأولياء.

ولعلّ كلّ من دعا إلى الله تعالى في الدنيا، ولم يستجب له الناس، فإنه يأتي يوم القيامة ليؤدّي شهادته على من لم يستجب له.

والله سينبئ الكافرين بأعمالهم في الدنيا وموقفهم السلبي من دعوة الخير. وكذلك أذن الله تعالى للملائكة والأولياء بإخبار المتمرّدين بنتائج أعمالهم والعواقب التي تنتظرهم.

والله تعالى لم يقل: إنه سينبئهم بما كفروا. إذ الكفر من الحقيقة يظهر في العمل؛ شاء الكافر أم أبى، والحساب على العمل ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

ولم يقل القرآن: فنجازيهم، وإنما قال: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، لأن

الأساس هو معرفة الخير وتمييزه من الشر. والأصل هو أن نعرف أن الكفّار في طريق الشر دون الخير؛ لأن هؤلاء الذين كفروا يدّعون أنهم على الحق، وفي يوم القيامة يتبيّن لهم أنهم على باطل، وأن عليهم تحمّل كامل المسؤولية على ما ظنّوا وعلى ما عملوا.

مما يعني أن الله تعالى، ومع علمه المطلق بسوء سريرة المتمرّدين على إرادته، وبأن ما عملوا إنما هو شر محض، فإنه مع ذلك لا يعاقبهم لمجرّد علمه، وإنما هو قد كتب على نفسه العدل، وهو قائم بالقسط، ولذلك فإنّه يقدّم أخبار الكافرين بواقعهم الذهني والسلوكي على تعريضهم للعقوبة التي كان سبحانه قد قدّم ذكرها لهم؛ ليكون كلّ شيء واضحًا، فلا تبقى حجّة ما لعاصٍ من العصاة على الله والواقع الأخروي في يوم القيامة، مع أن لله العلم التام بطبيعة الكافرين المتمرّدين، وهو العليم بذات الصدور، أي بالسرائر والنوايا.

» بصائر وأحكام

١- الكفر مهما اتَّسع وتعاظم يبقى حالة طارئة على واقع الإنسانية، في حين أن الإيمان هو القاعدة التي تتمحور عليها الحياة البشرية، وهو الذي تُقاس به مجريات الأمور وتفاصيل المعيشة.

٢- على المؤمنين أَلَّا يتواكلوا ولا يبرروا الكسل والتهاون تحت طائلة الفشل الحتمي للكافرين، وإنما عليهم أن يساهموا في ترجمة هذه الحقيقة المحتومة من خلال مواقفهم الإيمانية المستلة أساساً من القيم والتعاليم الإسلامية.

» لماذا يتمتع الكفار بالنعم؟

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

***

إذا كانت قيم الوحي صحيحة فلماذا يتمتع الكفار بنعيم الدنيا، أَوَلَيْسَتِ الدنيا وما فيها من أقدار وما يرزق فيها الكفار من أرزاق؛ أَوَلَيْسَتْ كلها من عند الله، فلماذا لا يسلبهم الرب نعمه وهم يكفرون به؟.

إن هذه الوسوسة تجعل الكثير من الناس في فوضى فكرية، وربما يدفعهم إلى الضلال البعيد. وقد ردَّ الكتاب الحكيم هذه الوسوسة في أكثر من سورة وموطن، مثلًا في قصة قارون المذكورة في سورة القصص وفي آيات كثيرة من سورة الزخرف.

ومن هنا وبإشارة عابرة يردّ السياق هذه الشبهة لكي يتخلص المؤمن منها ويستوعب المزيد من الحكمة، حيث إن النعمة القليلة التي تعقبها نقم كثيرة لا تُعَدُّ نعمة، فهل الذي يشرب عسلًا وفيه السم يتنعم بلذته أم أن تلك اللذة العابرة تمهيد لعذاب إليم.

ومن هنا قال ربنا سبحانه: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

» بصائر وأحكام

١- إن حرية الاختيار عند الإنسان في الدنيا بين الحق والباطل وبين الجنة والنار لن تدوم له، إنما هي فترة قصيرة لو لم يُفرز بالانتخاب الصحيح يأتي دور الاضطرار.

٢- غلظة العذاب تتناسب عكسيًّا مع نعومة المتعة التي عاشوها.

٣- إن المتعة التي أُتيحت لهم إنما هي من عند الله رحمة بهم ولابتلائهم ولعلهم يتوبون، وليست المتعة من عند أنفسهم.

» اكثرهم لا يعلمون

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

من الحديث

عَنْ الإمَام مُحَمَّدٍ البَاقِرِ عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَعْنِي المَعْرِفَةَ بِأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»(1).

عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الجَعْفَرِيِّ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الثَّانِيَ – الإمَامَ مُحَمَّداً الجَوَاد عليه السلام – مَا مَعْنَى الْوَاحِدِ؟.

قَالَ عليه السلام: **الَّذِي اجْتِمَاعُ الْأَلْسُنِ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»(2).

تفصيل القول

١ – ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص١٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٠٨.

أكبر حاكم على البشر وجدانه، وكل إنسان مفطور منذ عالم الميثاق على معرفة الرب، وهو لا يُنكر ربه ولكنه لا يُطيعه، وهذه هي مشكلته. وهذا الوجدان هو الحجة البالغة على أولئك المترفين، يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

والله سبحانه خلق السماوات والأرض وسخر ما في الأرض للناس، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنةً، وهكذا كان علينا أن نحمده كل الحمد، قال الله سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

فهو الخالق الرازق، وهو الذي لا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب.

٢- ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهم يجهلون صفات ربهم ولا يعرفون واجبهم تجاهه وهذه أعقد مشكلة عند البشر، فبالرغم من إذعانهم بألوهية الرب لا يبحثون عنه وعن وحيه وعما يرضيه أو يغضبه.

وهكذا يعيشون في جهلٍ بدينهم وبما يضر أو ينفع.

» بصائر وأحكام

بالرغم من أن الإنسان لا يُنكر خالقية رب العالمين؛ لأنه مفطور على ذلك، إلَّا أن كثيراً من البشر يجهلون أسماء ربهم وصفاته، ولا يعرفون واجبهم تجاهه؛ لذا لا يطيعونه. وهذه من أعقد المشاكل عنهم.

» هو الغني الحميد

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

***

من أبعاد جهل الإنسان بربه أنه لا يعلم أن الله الخالق هو المالك حقًّا لما في السماوات والأرض فعليه ألَّا يتصرف في شيء إلا من بعد إذنه.

أولًا: لأنه قبيح عقلًا التصرف في أموال الآخرين.

ثانيًا: لأنه قد يمنعهم قسرًا من التصرف فيما يُهيمن عليه؛ لأن مالكيته ليست ظاهرية، وإنما هي جوهرية فلا أحد يستطيع أن يتصرف في ملكوته إلَّا من بعد إذنه، قال الله سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾.

وهكذا فهو الغني عن خلقه لا يريد منهم رزقًا ولا يريد طعامًا، ولا يتقوى بهم على أحد سبحانه. وغناه ليس كغنى البشر الذين يمنعون غيرهم مما يملكون، بل غناه مقرون بالحمد حيث إنه يرزق عباده بغير حساب، قال ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

» بصائر وأحكام

١ - مالكيـة الله جوهريـة، فـلا أحد يسـتطيع أن يتصرف في ملكوته إلا من بعد إذنه.

٢ - الله غنـي عن خلقه، وغنـاه مقرون بالحمد، حيث يرزق من يشاء بغير حساب دون أن يريد منهم شيئاً.

» كلمات الله

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

***

١- ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾.

الحكمة هي صفوة العلم، ومن ركائزها الأولى المعرفة، وسورة لقمان المباركة، والتي هي سورة الحكمة، قد تحدّثت عن مفردات الحكمة ومصاديقها، كما ذكّرتنا بجوامع الحكمة، ومنها معرفة العلم.

ومثل العلم، مثل حلقة يحيط بها الجهل، فكلما اتَّسعت الحلقة اتَّسع التَّماس بينها وبين الجهل المحيط بها. وهكذا كلما ازداد المرء علمًا ازداد معرفةً بآفاق جهله، إذ يتبيّن له أن هناك آفاقًا أوسع لم يصل إليها علمه بعدُ.

ومن هنا، نجد الحكيم هو الأكثر علمًا بجهله، والأكثر إذعانًا بضرورة السعي المتواصل نحو كسب المزيد من المعرفة.

ولقد كانت البشرية تائهة في صحاري الجهل يوم نزول القرآن الكريم، فكانت تزعم -جهلًا- أن بضعة كلمات تعرفها، وبضعة أبيات شعريّة تحفظها، وبضعة حِكَم تتناقلها، هي كلّ العلم! مثلهم في ذلك مثل فلاسفة اليونان الأقدمين.

وإذا رجع الإنسان إلى فلاسفة اليونان، أو إلى كلمات عرب الجاهلية الساذجة، أو إلى أيّة ثقافة بشريّة أخرى كانت قبل نزول الوحي، تبين له أن كلّ طائفة وأمّة كانت تزعم أن جملة معلوماتها، والتي كانت تمتاز بالبساطة، ويشوبها الكثير من الجهل، والكثير من التعميمات، أنها تُمثِّل العلم كلّه، حتى أن الواحد من أفراد هذه الأمة أو تلك الطائفة كان يتبختر ويظن أنه قد بلغ ذروة العلم وسنام المعرفة. في حين أن القرآن المجيد فاجأ البشريّة كلّها بالقول الصريح: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

ولفرط الجهل المتفشي في الناس، فإن بعضًا منهم، وخصوصًا اليهود، قد اعترضوا على هذا القول الربّاني الشريف.

» مثل العلم، مثل حلقة يحيط بها الجهل، فكلما اتسعت اتسع التماس بينها وبين الجهل المحيط بها. وكلما ازداد المرء علمًا ازداد معرفةً بآفاق جهله، إذ يتبيّن له أن هناك آفاقًا أوسع لم يصل إليها علمه بعدُ.

وعن هذا، قال ابن جريج قال حي بن أخطب: «تزعم يا محمد؛ إنّا لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً، وتقول: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[2]، فكيف يجتمعان؟!.

فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ..﴾[3]، ونزل: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ ..﴾»[4].

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٥.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.
(٣) سورة الكهف، آية: ١٠٩.
(٤) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، ج٧، ص١٠٠.

ليعرف الإنسان جهلَه

ولكن ثم سؤال في البين، وهو: ما فائدة معرفة الإنسان بآفاق جهله؟.

الجواب هو: أن هناك فائدتين:

الأولى: حينما يعرف الإنسان كونه جاهلًا، تراه يبحث عن العلم. وفطرة ابن آدم تدعوه إلى العلم وتحثّه على طلبه؛ ذلك لأنّ العلم من أمتع وأشهى اللذات التي يطلبها البشر، كما أن -لدى الجهل- يفقد الراحة، ولكنه حينما يحصل على العلم يستشعر بالاطمئنان والوقار. ومثل العلم مثل الماء، فحينما يفقده المرء يشعر بالعطش ويحس بالأذى، ولكنّه حين يرتوي يحصل على الاستقرار والراحة. وكذلك الجاهل حينما يتعلّم. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا**»(1).

الثانية: أن الإنسان حينما يتأكّد له جهله بأمور ما، فإنه يتورّع -عادةً- عن القول في العلم بلا علم، ويحذر جزاف القول والتصريح بلا دليل أو يقين.

ونحن قد تبين لنا أن القرآن الكريم بيّن في هذه السورة المباركة -وفي ثلاثة موارد- أن العلم هو محور الرسالة الإلهيّة.

فقد قال تعالى في الآية السادسة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

(1) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٤٥٧.

وقال في الآية الخامسة عشرة: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾.

وفي الآية العشرين صرّح بالقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

فالجهل إذن؛ يمثل درجة عالية جدًّا من الخطورة، والقرآن المجيد قد كرّر عبارة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾؛ في ثلاثة موارد، وكرّر ما تعنيه أكثر من مرّة.. وقال في الآية الخامسة والعشرين أيضًا: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي أنه كرّر الحديث عن الجهل الذي هو غير العلم في كلّ خمس آيات.

فالجهل هو شيء عدمي، والعدمي يعرف بالوجودي، كأن نقول حينما نريد أن نبيّن معنى الظلام: الظلام عدم النور، أو نقول الموت: عدم الحياة. وهكذا نقول: إن الجهل عدم العلم.

فربّنا المتعال يهدينا إلى أن محور الحكمة، كما محور التكامل البشري، هو العلم.

والاعتراف بالجهل بداية العلم، ولكن كيف نعترف بالجهل؟.

يتحصّل الاعتراف بالجهل من خلال الإقرار بأن العلم أوسع مدًى وأبعد أفقًا مما يملك المرء من المعلومات الضئيلة. وقد تجلّى هذا عند كبار علمائنا وفقهائنا، وانطلاقًا من أرواحهم الزاكية ونفوسهم المتأدبة، كلما ازدادوا علمًا ترسّخ لديهم الاعتراف بجهلهم بعد أن يتأكّد لهم أن أشياء كثيرة لا يزالون يجهلونها. وهكذا تجد أنه كلّما تقدّم العلم الحديث اكتشف آفاقًا جديدة منه، وعرفوا يقينًا أنهم

لا يزالون في بدايات الطريق... أي أنهم يقفون قبل الخطوة الأولى في طريق الألف ميل. ومن هنا نجد سير البشرية الحثيث نحو المزيد من المعرفة، بحيث إن معلوماتهم تتضاعف كل بضعة أعوام.

ولكن؛ مع ذلك نحن نعتبر البشر محجوبًا عن كثير من آفاق المعرفة. لماذا؟.

» الاعتراف بالجهل بداية العلم، ولكن كيف نعترف بالجهل؟. يتحصّل الاعتراف من خلال الإقرار بأن العلم أوسع مدًى وأبعد أفقًا مما يملك المرء من المعلومات الضئيلة.

لأن الإنسان المادي قد استكبر وزعم أن مناهج العلم التي يملكها هي كل المناهج، حيث لخّص العلم بالتجارب المختبريّة؛ أي جعل العلم في المبضع، وكلّما تحرّك هذا المبضع اعتبره علمًا ومعلومة، واعتبر ما دون ذلك خارجًا عن نطاق العلم.

العلمانية العرجاء

وللقارئ أن يدرس الكتب التي تتحدّث عن فلسفة العلم، ليعرف كيف أن كثيرًا من العلماء الجُدد قد أنكروا جوانب كثيرة من العلم، حتى أنهم أنكروا قدرة العقل على اكتشاف الحقائق بصورة مباشرة، كما أنكروا قدرة الروح على مشاهدة الحقائق بشكل مباشر، وهي ما تسمّى عندنا بعالم الوجدان أو عالم الكشف. حتى أنهم أوغلوا في إنكارهم وقالوا بحاكميّة التجربة المادّية، وألحدوا بالوحي، وأنكروا أن الله قادر على أن يُنزل علمه على من يشاء من عباده، واختصروا العلم في أمور ضيّقة.

ولذلك؛ تعاني البشرية حالة النشاز، حتى أنها أصبحت تمشي برجل واحدة تحت مظلّة هذا النوع من التفكير حيث ألغت الروح، وألغت العقل، وألغت جوانب عديدة من الكيان الإنساني،

وأطلق الكثير منهم على أنفسهم تسمية: (العلمانيّون). في حين أنهم لا يعرفـون من العلـم إلّا قليلًا، بل إنهم لا يدركـون المعنى الدقيق للعلم، ولا يعترفون إلّا بجزء بسيط منه.

وبدلًا من أن يقف الإنسـان وقفة شجاعة، فيعترف بجهله، ويُقِرُّ بعجزه في مجادلة من يعلم، تراه يزداد إيغالًا في التكبّر ويتهرّب من طاولة البحث الحرّ.

هـذا وإن العلمانيـة قـد انتـشرت في الغـرب حينـما صدّقت بالحداثة وتشـوّه سـلوك الكنيسـة إلى حدّ لا يطـاق. فأنكر المجتمع الغـربي كلّ مـا يتصـل بالدين، فانتهـى به الأمر إلى إنـكار الجوانب الروحيّة والعقليّة وحتى الأخلاقيّة.

والتمسّك بما يسمّى العلمانيّة نوع تمرّد على العلم، وليس علمًا، لأن الغرب قد سـجن نفسـه في دوائر ضيّقة. ويُذكِّرنـا هذا التوجّه بـما كان عليه الاتحاد السـوفياتي، حينما كان قادتـه، ومعهم منظومة الدول الاشـتراكية الموغلة بالشمولية والديكتاتورية والقمع، رغم أن أدبياتها كانت تطفح بمفردات وشعارات الحرّية، فيما كانوا أبعد الناس عن الحرّية والديمقراطية.. فكانوا -في حقيقة الأمر- يعانون أزمـات داخلية معقّدة، يحاولون التغطية عليها بالتعابير البرّاقة، كما المتكـبّر الذي يغطّي ضعفه وهوانه وذلّـه الداخلي بالتمظهر بمظهر القـوّة والجـبروت، أو كما الكاذب الذي يتسـتّر على كذبـه باليمين وادّعاء الصدق.

والعلمانيـة اليوم تنكر الحقائق تحت غطاء عدم الاعتراف إلّا بما هو علم، فيما العلمانيّون ينكرون أو يجهلون العلم ذاته. فهم بذلك قد حكموا على أنفسهم بالسجن في أكثر الدوائر ضيقًا وضنكًا.

العلم الأصيل محور الرسالة

أمّـا القـرآن الكريـم؛ فقـد وجَّهنـا إلى الاعتقاد بـأن كلمات الله تعـالى لا تـكاد تنتهـي، حسـب مفهومنـا وقدرتنا عـلى التصوّر والاستيعاب.

يقول سبحانه وتعـالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي لـو أننـا حوّلنـا كل أشـجار الأرض إلى أقـلام، ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ ﴾ أي أصبـح البحـر مـدادًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ أي كل بحار الأرض، وهي أكبر مسـاحة من أقاليم الأرض اليابسة، ثم وضعنا هذه الأقلام التي استوعبت واستنفدت كل الأشجار في هذا المداد، وحاولنا إحصاء علوم الله تبارك اسـمه، لعجزنا، بل ولعجزت كل ملائكة الرحمـن عن إحصاء العلـوم الإلهيّة ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ لأنهـا أكثر وأوسـع وأعمق مـن أن يحيط بها مخلـوق.. إلَّا بإذن الله، وهذا هو الحق والصحيح.

وإذا سألتَ اليوم عالمًا من العلماء عن مقدار العلم، لأجابك بـأن مـا حصلت عليـه البشرية مـن العلم لا يمثّـل إلَّا نسـبة قليلة جدًّا.

ومثال ذلك؛ ما يُعرف اليوم عن ظاهرة استنساخ الحيوانات، حيث تأخذ من جسـم الحيوان خليّة واحدة، فتستنسـخ وتحوّل إلى الحيوان نفسه. فإذا عزلت الخليّة الواحدة، وحوّلت إلى حيوان، فإنه يكون مشابهًا بالمطلق للحيوان الأصلي، حتى في العمر، ناهيك عن الحجـم واللون والـوزن.. بمعنى أن الحيوان -الشـاة مثلًا- تكون أُختًا لأصلها، وليس بنتًا لها.

ويعني هذا أن الخلية فيها من القابلية على التمتّع بكل الميزات والمعلومات الموجودة في الشاة الأولى.

وبعد دراسات معمّقة، وجد العلماء المختصّون بهذا الشأن أن الخليّة الواحدة فيها من المعلومات ما لو كتبت وأحصيت وسجّلت على الورق، لكان مجموعها أكبر وأكثر من مجموع المعلومات المتوافرة في مكتبة الكونغرس الأميركي، وهي من أكبر مكتبات العالم.

فإذا كان الله عزّ وجلّ قد وضع كلّ هذه المعلومات وجعلها في خلية واحدة، فكيف يمكن تخيّل -مجرّد تخيّل- نفاد كلمات الله في الوجود؟!.

وهذا إشارة واحدة فقط إلى بُعد من الأبعاد، لكن ابن آدم جاهل ولا يعلم شيئًا. ومثل ذلك الأعرابي الذي مرّ على أُناس يتهافتون على شراء مجموعة كبيرة من الكتب، وهم يتحدّثون عن هذا الكتاب وذاك، ولكن الأعرابي أراد شراء واحد منها دون أن يسأل البائع عمّا يحتويه، فبادره البائع قائلًا: لِمَ لا تسأل عمّا يحتوي عليه الكتاب الذي تريد؟.

فقال: أنا أعرف ما كُتب في كل هذه الكتب!.

فسأله قائلًا: وما فيها؟.

فأجاب: كل هذه الكتب فيها كلمة واحدة، وهي: أيها الإنسان كن إنسانًا صالحًا.

مختصِرًا كل المكتبة بهذه الكلمة!!.

ولعلّ هذا الأعرابي لا يجانب الحق أن اختصر، ولكن

اختصاره هذا لا يجسّد الحقيقة بأكملها؛ إذ يقفز السؤال المهم إلى الأذهان، فيقول: ولكن كيف للإنسان أن يكون إنسانًا صالحًا؟. وهذا السؤال يبدأ ولا ينتهي لكثرة تفاصيله ووفرة تشعّباته.

العزّة والحكمة

٢- ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

والعزّة الإلهيّة تتجلّى في كلمات الربّ، وفي العالم المحيط.

والحكمة تتجلّى في علم الله، وهو كلماته عزّ اسمه، لأن كل شيء موضوع في موقعه المناسب، بلا زيادة أو نقصان. وهذه هي الحكمة.

والحكمة تتصل بمرحلة التقدير والقضاء في حين تتصل العزة بمرحلة الخلق والإجراء.

وكلمة ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارة من إشارات مدى العلاقة بين العلم والحكمة؛ بمعنى أن العلم والحكمة صنوان لا يفترقان. والعلم الذي ينفصل عن الحكمة، يخرج عن نطاق العلم، ليكون أمرًا آخر، مثل أن يكون وسيلة تكبّر، أو أداة دمار، أو طريقة للاستقلال.

آفاق كلمات اللّه

وردت الفاظ في كتاب الله المجيد تعتبر وعاءً للمعارف الإلهيّة، وهي تحتمل مجموعة كبيرة جدًّا من المعارف.

ولعلّ لفظة (كلمة أو كلمات) من هذه الألفاظ التي تثقل

بالمزيد من المعارف، وهي بمثابة الرابط بين مجموع المعارف المختلفة.

وهذه المفردة قد استُخدمت في السياقات القرآنية لمعانٍ متعدّدة، مثل التعبير عن الآيات، أو تسمية النبي عيسى بن مريم عليه السلام، وكما أن القرآن الكريم آية، فإن عيسى آية إلهيّة أيضًا. وهناك كلمات التوبة التي تلقّاها آدم عليه السلام، إذ كانت تلكم الكلمات -في الحقيقة- مجموعة معلومات وأسماء حسنى علّمها الله آدم ليتوب عليه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فتاب الله عليه.

وقد روى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم **لَمَّا نَزَلَتِ الخَطِيئَةُ بِآدَمَ وَأُخْرِجَ مِنَ الجَنَّةِ أَتَاهُ جَبْرَئِيلُ** عليه السلام **فَقَالَ: يَا آدَمُ ادْعُ رَبَّكَ.**

قَالَ عليه السلام: **يَا حَبِيبِي جَبْرَئِيلُ مَا أَدْعُو؟.**

قَالَ عليه السلام: **قُلْ رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الخَمْسَةِ الَّذِينَ تُخْرِجُهُمْ مِنْ صُلْبِي آخِرَ الزَّمَانِ إِلَّا تُبْتَ عَلَيَّ وَرَحِمْتَنِي.**

فَقَالَ لَهُ آدَمُ: **يَا جَبْرَئِيلُ سَمِّهِمْ لِي.**

قَالَ عليه السلام: **قُلِ اللَّهُمَّ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ، وَبِحَقِّ عَلِيٍّ وَصِيِّ نَبِيِّكَ، وَبِحَقِّ فَاطِمَةَ بِنْتِ نَبِيِّكَ، وَبِحَقِّ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ سِبْطَيْ نَبِيِّكَ، إِلَّا تُبْتَ عَلَيَّ فَارْحَمْنِي.**

» بدلًا من أن يقف الإنسان وقفة شجاعة، فيعترف بجهله، ويُقرُّ بعجزه في مجادلة من يعلم، تراه يزداد إيغالًا في التكبّر ويتهرّب من طاولة البحث الحرّ.

فَدَعَا بِهِنَّ آدَمُ فَتَابَ الله عَلَيْهِ. وَذَلِكَ قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ **. وَمَا مِنْ عَبْدٍ مَكْرُوبٍ**

(١) سورة البقرة، آية: ٣٧.

يُخْلِصُ النِّيَّةَ وَيَدْعُو بِهِنَّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[1].

ثـم إنّ الملائكة كانت قد سـألت الله تعالى عن سـبب اختيار الإنسـان ليكـون خليفتـه في الأرض، فيـما هـي تقـدّس لله وتلهج باسـمه، فأنبأهم الله بأنـه يعلم ما لا يعلمون، وكان علمه سـبحانه يُفـضي إلى أنـه قد خلـق آدم ويعلـم أن فيـه القابلية على اسـتيعاب حقائـق ولايـة النبـي ﷺ وآل بيته عليهم السلام، وهـم الذيـن خُلق الوجـود لأجلهم، وهـم الذين فيهم -بإذن الله واصطفائه- القابلية على تجسيد نوره وربوبيّته في الوجـود، وبهـم تعرفه الخلائـق. ولـولا القابلية التي وضعهـا الله في آدم ليكـون صلبه وعاءً لنـور النبي محمد ﷺ وآل بيتـه الطاهريـن عليهم السلام ربـما لم يُسـجِدِ الرَّبُ ملائكتـه لـه، وحيـث التفتـت الملائكة إلى هـذه الحقيقة أذعنت لأمر الله وسـجدت لآدم عليه السلام الذي سيخرج النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام من صلبه؛ فكانوا حقًّا هم الكلمات التي جسّدت إرادة الله وحكمته وكلّ اصطفائه.

» الحكمـة تتجلـى في علم الله، وهو كلمانه عزّ اسمه، لأن كل شـيء موضوع في موقعه المناسب، بلا زيادة أو نقصان. وهذه هـي الحكمة. والحكمة تتصـل بمرحلـة التقديـر والقضاء في حين تتصل العزة بمرحلة الخلق والإجراء.

وهناك كلمات بمعنى الامتحان، كما يقول ربّنا المتعال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[2]، إذ ارتقـى به ربّه إلى درجة الإمامة، حين اختبره بمجمل ابتلاءات، نجح في عبورها.

وكذلك الكلمات تسـمى عهدًا لله تعـالى في بعض الحالات، حيث سـبقت كلمتـه لعباده الصالحـين بالرحمة، كما سـبقت كلمته أيضًا للمعاندين بالنار. والوعد والوعيد كلمات لله تعالى.

(١) بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٣٣.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

إذن؛ فـإن كلمات الله تعالى، هـي الآيات الإلهيّة، أو مصاديق تلك الآيات، أو معانيها، وهي لا تنفذ، لأن أمر الله وإرادته ليست متناهية عند حد محدود.

وإزاء هذا الواقع اللّامتناهي نجد أنفسنا بحاجة إلى الحكمة، ولا نحصل على الحكمة ما لم نحصل على العلم والمعرفة، وتحصيل العلم يكمن في الاعتراف بأننا لا نعلم إلا قليلًا.

أمواج الجهل

والأمر الثابت هو أن موجات في الجهل والجهالة تجتاح نفس الإنسـان، وهذه الموجات هي الوسـاوس والأوهام والظنون، فإذا مـا آذى الجهـلُ ابنَ آدم، اخترع لنفسـه معلومـات، تمامًا كما الطفل حينما يسـأل فلا يعرف الإجابة، فإنه يجد نفسـه مضطـرًّا إلى التكلّم بتافه الكلام وسـاذجه، وذلك حين يصنع له خياله شـيئًا لئلّا يؤذّيه جهله، فيغرق في الظن والخيال.

ولقـد كان الإنسـان في العصـور القديمـة محاطًـا بالأوهـام والخرافـات، -ذلك حين ابتعد عن تعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام- حتـى إذا مـات له خِـلّ أو قريب وجهل سـبب موته، اتجـه إلى غابة أو نهر أو شـجر، ليركع ويسـجد هناك، هـو ومن معه، لظنّهـم بأن الآلهة قد غضبت عليهم، ودليل غضبها موت ذلك الشـخص. إنهم يقومون بذلك بدلًا من أن يتعرّفوا إلى أسباب الموت بالطرق العلميّة السليمة.

بـل إنّ مـن الأمم ما كانت تتشـاءم برؤيـة أنبيائهـا وتتطيّر، فتخرجهم من بين ظهرانيها، لتزداد تمسّكًا بخرافاتها وأباطيلها.

ومن الأشخاص من ينسب تعرّضه لخطر أو مرض أو خلاف

إلى طائر كالغراب، أو ظاهرة طبيعية. وبالتالي، فهو لا يفكّر في حقيقة الظواهر الطبيعيّة، ويعمد إلى اختراع الأوهام من عند نفسه.

ونحن أيضًا، لا نزال نعاني الكثير من أشكال الجهل والجهالة والظنون الباطلة والقناعات الخاطئة والأحكام المسبقة تجاه الأشياء والأمور والأشخاص، في حين ينبغي أن نتأمّل قليلًا ونبحث عن الأسباب المنطقيّة لموقفنا ونظرتنا تجاه هذا الشخص أو ذلك الأمر. أي لابدّ من الكشف عن العلّة الحقيقيّة. ومن هنا، ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(1).

» إزاء هذا الواقع اللامتناهي نجد أنفسنا بحاجة إلى الحكمة، ولا نحصل على الحكمة ما لم نحصل على العلم والمعرفة، وتحصيل العلم يكمن في الاعتراف بأننا لا نعلم إلا قليلًا.

والكثير من الظن يتمحور حول الجهل وردود الأفعال السلبية والوساوس الشيطانية؛ فهي إثم ينبغي اجتنابها والابتعاد عنها والتخلّص منها حتى تتطهّر النفس ويخلو الذهن، ليملأ فيها بعد بالعلم والمعرفة، وينطلق المرء ضمن التفكير الموضوعي والمنطقي تجاه ما حوله، وبخطوات وئيدة حتى يتم بلوغ العلم الحقيقي.

ولعلّ هذا هو مفهوم قوله سبحانه وتعالى الوارد في سورة الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(2).

أي أنهم يرفضون اتِّباع كل ما يسمعون، بل يتبعون القول الأحسن، ولا يتسنّى لهم اختيار الأحسن من الأقوال والآراء

(1) سورة الحجرات، آية: ١٢.
(2) سورة الزمر، آية: ١٧ – ١٨.

والمواقـف ما لم يكونوا عباد الله حقًّا وصدقًـا، دون أن يكونوا عباد العصبيّة والتطرّف والمصلحيّة والظنون الكاذبة والسـطحيّة. وهذا يعنـي الجزم بالقول بأن عباد الله يمتازون بميزة التفكير الموضوعي والمنطقـي تجاه كل مـا يتعلّق بهم ويصادفهم، وبالتـالي فإنّ عباد الله علماء بالعلم الحقيقي، غير متشدّقين بالخرافة والسطحيّة والمصلحيّة وكل حالات الجهل والجهالة.

بـلى؛ إنّ كلمات الله منتشرة إلى درجة هائلـة، بحيث لا تحتويها حتـى الكتـب التي تُكتب بالأقلام التي تسـتغرق وتسـتنفد أشـجار الأرض، وبمياه كل البحار إذا ما اتُّخذت مدادًا، ولكن جميع الكلمات الإلهيـة تؤكّد حقيقة واحدة، وهي: ربّانية الله عزّ وجلّ، على اختلاف وتنـوّع أشـكال التأكيد وتعـدّد المصاديق، بما في ذلك الشـكل الأكثر شرفًا وقدسيّة، وهو المتمثّل بولاية محمّد وآله الطاهرين عليهم السلام.

» بصائر وأحكام

١ - كلما ازداد المرء حكمةً ازداد ادراكًا لآفاق جهله، وازداد سعيًا إلى المزيد من المعرفة، وازداد ورعًا عن القول بغير علم.

٢ - مـن آفاق المعرفة التذكر بكلمات الله وهي مصاديق آياته وسـننه وأحكامه وهي لا تحد ولا تحصى عدًّا، وبالاعتراف بالجهل يسعى الحكيم جاهدًا إلى معرفة ما قدّر له منها.

٣- ومـن آفـاق الجهل البشري الوسـاوس الشـيطانية التي تجسَّـدت في الأمـم السـابقة بالخرافات، وقـد تتمثل فينـا في ظنون السوء التي علينا اجتنابها.

» عظمة قدرة الله تعالى

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

***

من الحديث

روايـة أبي الجـارود عـن أبي جعفـر عليه السلام في قولـه: «﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ ﴾ بَلَغْنَا وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَالُوْا: يَا مُحَمَّدُ! خَلَقَنَا أَطْوَارًا نُطَفًا، ثُمَّ عَلَقًا، ثُمَّ أَنْشَأَنَا خَلْقاً آخَرَ كَمَا تَزْعُمُ، وَتَزْعُمُ أَنَّا نُبْعَثُ فِيْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

فَقَـالَ عليه السلام: **اللهُ مَـا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعْثَكُـمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ: كُنْ؛ فَيَكُوْنُ**»(١).

تفصيل القول

وهذه الآية القرآنيّة تحوي جملة حقائق.. منها: الحقيقة القائلة بأن هناك حقيقتين في الكون: حقيقة الوحدة، وحقيقة الكثرة.

(١) تفسير القمي، ج٢، ص١٦٧.

لنضرب مثلًا على ذلك، ثم نُبيّن هذه البصيرة الأساسيّة في القرآن الكريم.

أقول: إنّ علماء الفيزياء حينما يحاولون الكشف عن قوانين الحركة في المجرة -وهي أكبر وحدة كونيّة تعرَّف إليها الإنسان حتى الآن- يتبيّن لهم وجود مجموعة قوانين وأنظمة. وعلماء الفيزياء المختصّون بعلم الذرّة -من جانبهم- حينما يفلقون الذرّة، يحاولون أيضًا اكتشاف حركتها وطبيعة الأنظمة الحاكمة على جزئياتها. وهؤلاء وأولئك يكتشفون تطابقًا هائلًا بين قوانين صفحة المجرة وصفحة الذرّة، رغم تفاوت الحجم بين الصفحتين. مما يدعوهم جميعًا إلى التأكّد من أن خالق المجرة هو نفسه خالق الذرّة، إذ الخلقة واحدة.

وهكذا نتعرّف إلى أن خلقة إنسان واحد كخلقة كل البشر، وخلقة كل البشر كخلقة إنسان واحد، إذ القانون هنا هو نفسه القانون هناك.

وحينما نسير في هذا الكون الرحب، وهذه الفضاءات الآخذة بالاتساع العجيب، والتي لا يكاد الخيال يعرف حدودها، ثم نقف عند كل ظاهرة، وعند كل مجرة وكوكب وشمس وطاقة وموجة قصيرة أو طويلة.. نجد القوانين نفسها، فنعرف وحدانيّة الربّ الخالق.

وهذه الحقيقة تعطينا بصيرة في العلم، والعلم هو معرفة أمرين متداخلين، وما يميز الشيء عن الشيء الآخر، وما يجمع الشيء مع الشيء الآخر؛ أي كل شيئين يجمعهما قانون ويفرقهما قانون.

يقول ربّنا المتعال في الآية السابعة والعشرين: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ

كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي أن كلمات الله لا تُحصى كثرةً.

وهو عزّ اسمه يقول في الآية الثامنة والعشرين: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

فمليارات البشر فوق هذا الكوكب، لكلّ منهم ما يُميزه من غيره، ولكن عند الدقّة في النظر تجد تشابه روحيّاتهم وقيمهم وتطلّعهم وعقلهم.

» لو تسنّى لك أن تجمع البشريّة برمّتها في مكان واحد، على ألّا يكونوا مثقفين بأية ثقافة، ثم ألق على أسماعهم درسًا، لوجدت أن الحجّة العقلية التي يقتنع بها الجميع هي حجة واحدة، وأن عقولهم عبارة عن عقل واحد.

ولو تسنّى لك أن تجمع البشريّة برمّتها في مكان واحد، على ألّا يكونوا مثقفين بأية ثقافة، ثم ألقِ على أسماعهم درسًا أو محاضرة ما، لوجدت أن الحجّة العقلية التي يقتنع بها الجميع هي حجة واحدة، وأن عقولهم عبارة عن عقل واحد، وغرائزهم واحدة، وكذلك القوانين والسنن التي تحكم نفوسهم لا تختلف. من هنا نعرف أن التنوع إنما هو في إطار الوحدة.

ويتكشّف من ذلك ظاهرة واحدة، هي ظاهرة المخلوقيّة للموجودات ووحدانيّة خالقها ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

وهذا يدلنا على بُعد آخر، وهو: أنّ القادر الحكيم الذي خلق الذرّة قادر أيضًا على أن يخلق كل شيء، إذ بإمكانه تكثير خلقته. والخبير المتخصص الذي يرى سيّارة تقطع مسافات الشوارع، يتأكّد من أن المصنع الذي أنتج هذه السيّارة قادر على أن ينتج أمثالها، إذ العلم والخبرة اللذان تجلّيا في صناعة السيّارة الأولى دليل على قدرة المصنع والصانعين. اللّهم إلّا أن يتعطّل المصنع أو يموت الصانعون، والله عزّ اسمه خارج عن حدّ التعطيل والموت والنسيان.

كذلك الإنسان حينما ينظر إلى حقيقة خلقته وما فيها من سنن وقوانين وعجائب، يكتشف أن كل هذا دليل على قدرة الله التَّامة وحكمته البالغة. ومادام الأمر كذلك، فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يفعل كل شيء، بل إنه لا فرق عند الله بين أن يخلق مئات المليارات من البشر وبين أن يخلق إنسانًا واحدًا، وكذلك بالنسبة إلى خلق النجوم و المجرّات.

وكلّما فكّر ابن آدم في عظمة الله وقدرته وحكمته، استوعب هذه العظمة بنسبة تفكيره، وازداد معرفة بالله وقربًا منه، بل إن دعاءه الذي به يُناجي ربّه، يتحوّل إلى دعاء حقيقي صادق ينبع من عقله وقلبه.

ولكن مشكلة البشر أنهم محدودون بالجهالة، ومحجوبون بالوساوس الشيطانية، ومحجوبون بالتوجّه إلى الدنيا الزائلة، والانكباب على المسائل التافهة والثانوية، ومتى ما تمكّنت النفس من التخلّص، ولو للحظات ولو بنسبة بسيطة من كل هذه الحجب، فإن نور الله ينتشر فيها.

إذن؛ من هنا نعرف أن اعترافنا بوجود الحجب يعتبر أوّل خطوة في طريق إزاحتها بالتوبة والإقبال على المعرفة الحقيقيّة.

» بصائر وأحكام

من الحكمة معرفة ما يجمع وما يفرق بين الخلائق فإنها على كثرتها تدلنا على وحدة خالقها لما فيها من وحدة السنن والأنظمة وما فيها من شواهد التقدير والتدبير.

» بين بصائر وحي السماء وثقافة الأرض

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

***

عند التأمّل في آيات الذكر الحكيم، ولدى مقارنتها بكل ما في الثقافة البشريّة، من أفكار ورؤى، نجد فارقًا كبيرًا ومائزًا مهمًّا. فبينما الثقافة البشريّة الوضعيّة تحاول البحث عن الأنظمة الثابتة بنظام الخلق، نجد الثقافة القرآنية والبصائر الربّانية تهدي الإنسان إلى حقيقة الهيمنة المباشرة للخالق على الخلق.

فلماذا هذا الاختلاف والتفاوت؟. وما هو السبب في أننا نجد التباين قد تمدّد إلى التعابير واستخدام المفردات. فالثقافة البشرية عندما تريد التحدّث عن شيء، تقول: هكذا تفعل الطبيعة، وهكذا هي الطبيعة، وهذا هو القانون. ولكن الثقافة القرآنية تتحدّث عن الشيء ذاته فتقول: هكذا فعل الله، وهكذا خلق، وهكذا أراد... حتى في المسائل التي تبدو

لنا أنها من فعل الناس، أو هي نتيجة أسباب مادّية أخرى؟.

من أخطاء الثقافة البشريّة

وبعيدًا عن الخلق الأوّل الذي ابتدعه الرب بلا مثال سابق يُحتذى، دعنا نتحدّث تمهيدًا عمّا نجده من الطبيعة -حسب التعبير الشائع- مباشرة، إذ نجد في الطبيعة أن هناك أنظمة ثابتة، فيما هناك فجوات في تلك الأنظمة بحيث يجعل التنبؤ بالمستقبل مع تلك الفجوات مستعصيًا. فلا أحد من العلماء القدماء والمتأخرين يمكنه التنبؤ بالمستقبل مئة بالمئة، رغم توفّر وسائل وآليات القواعد العامّة والكلّية؛ مثل الاستقراء والتجارب. ولعلّ هذا الجدل البشري الواسع الذي يشمل كل حقول المعرفة دليل قاطع على أن العلم البشري لم يحسم أمره حتى الآن فيما يتصل بالقوانين المطلقة. والسبب أن أهم مناهج العلم الحديث هو الاستقراء، أو بتعبير آخر دراسة جملة من الظواهر والحوادث المتفرقة، ثم تجميعها وتحويلها إلى قاعدة عامّة.. يبقى كل ذلك رهين الاحتمال. ومن ذلك، نظريّة الاحتمالات، إذ لا تستطيع أن تعطينا الثقة الكافية، رغم أنها قد تُوصل إلى نسبة عالية من الثقة.

فإذا عرفنا أن أحدهم قد مات بعد أن تناول عقارًا طبيًّا ما، فبحثنا، فوجدنا ظواهر مشابهة تمامًا، إلّا أننا لا نستطيع أن نتأكّد من السبب الحقيقي للموت هو هذا العقار، لأن نظام الاحتمالات لا يُوصل إلى حسم القاعدة بشكل نهائي.

فإذا كنّا لا نحصل على القاعدة من خلال الظواهر، فكيف لنا أن نقفز من الظواهر الجزئية إلى القاعدة الكلّية؟.

وهذا إشكال جدّي وكبير في المنطق اليوناني الذي يقول في

كبرى قياسه الأساسي: كل متغيّر حادث؛ حيث إن هذا المنطق لم يتحدّث لنا عن كيفيّة اكتشافه هذا، ومن أين اكتشفه.. فإذا كان مصدره الاستقراء، فإنّ الاستقراء لم يشمل كل شيء. وإذا كان قد شمله فإننا لسنا بحاجة إلى منطق، علمًا أن هذا المنطق الذي يسمّى بالتجريبي هو المعتمد اليوم في العلوم الحديثة، مما أدّى بكافّة العلوم إلى معاناة الفراغ العلمي،حتى لقد تأكّد للعلماء وجود ما يسمّونه بالظواهر الشاذّة التي يجهلون سبب حدوثها وحصولها في مختلف المجالات.

فالأطباء -مثلًا- يؤكّدون أن الدواء الفلاني يقوم بدور محدّد، ولكننا نجد في بعض الأحيان أنَّ الدواء نفسه يقوم بدور معاكس، ولا يُعرف سبب ذلك. ولذلك فقد أصبح معروفًا أن الطبيب الحاذق لا يُعطي حكمًا مؤكّدًا على ما يقول، بل يضع نسبة من الاحتمال في البين.. هذا من الناحية المبدئية.

ومن ناحية أخرى؛ فإن المعاجز التي وقعت عبر التاريخ، إنما تقع بصورة منتظمة، كالذي يشفى من مرض السرطان المتقدّم بلا دواء أو معالجة مادّية، وذلك بعد أن يلجأ إلى الله تعالى ويستشفع بأحد الأنبياء والأئمة والأولياء. ومثل هذه الحالة من الكثرة ما لا يمكن إنكاره، مما يشير إلى أننا نجهل نظام الخلقة على سبيل اليقين، وأن هناك أسبابًا لا نعرفها، في حين تجد العلماء يزدادون يقينًا بوجودها -على سبيل الإجمال- يومًا بعد يوم.

وهذه الظاهرة -كما قدّمنا - نجدها في حياتنا وتتناقلها الألسن، بالإضافة إلى ما نؤمن به نحن المؤمنين في تاريخنا، كتحوّل النار بردًا وسلامًا على النبي إبراهيم عليه السلام، أو تحوّل العصا ثعبانًا بيد النبي موسى عليه السلام، أو إحياء الموتى من قبل النبي عيسى عليه السلام، وغير ذلك من الحوادث التاريخيّة، والتي ما تزال تقع نظائرها على

مشهد من الناس، مما يثبت أن الطبيعة لا تُدار دومًا بقوانين ثابتة.

أمّا إذا توغّلنا في العمق الفلسفي، وبحثنا موضوع وجود خالق لهذا الكون؛ فإننا نعرف من خلال الحكمة أن لهذا الكون بداية، حيث انعدام الطاقة قبل نشوئه، ومن خلال عشرات الأدلّة التي نسوقها في بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأ وخلق وابتكر. بمعنى: أن هناك قوّة وقدرة وعزّة وعلمًا وأسماء حسنى وراء هذا الخلق برمّته. وقد أصبحت هذه الحقيقة أمرًا ثابتًا حتى لدى الذين يحملون راية الإلحاد في العالم، إذ كل إنسان يعرف بوجدانه أن لكل مخلوق خالقًا، وكل إنسان يعرف ربّه على وجه اليقين حينما يقع في مأزق حرج، لا سيّما بعد أن تتقطّع به السبل ويعجز عن إيجاد حلّ.

فإذا كان هذا الكون مخلوقًا، فإن خالقه -وهو فعّال لما يشاء، ودليل خلقه قدرته وإرادته- هل اعتراه ضعف أو بخل أو عجز؟. أي: هل شاخت قدرته؟.

كلا؛ هذا ما لا يمكن تصوّره، لأن القدرة تتجلّى في هذا الكون، وهي قدرة لا نهائية، فكيف لنا أن نفكّر بتوقّفها مع كونها لا نهائية؟.

وبتعبير آخر؛ إن القدرة التي كانت وراء هذا الخلق العظيم هي ذاتها القدرة التي تهيمن على عرش العالم وتدبره، لأننا لا يمكننا القول بفنائها أو ضعفها.

جريمة عقائدية

هنا؛ نصل إلى أن الخالق فعّال لما يشاء، ونصل إلى عقم المقولة اليهوديّة بأن يد الله مغلولة. إنها كانت مطلقة، فمتى غُلّت؟ ولماذا غُلّت؟ بل ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ إذ المقولة الباطلة بالنسبة إلى

الله الفعّال القادر أبدًا، قد انعكست عليهم، وانغلقوا على أنفسهم وطردوا من رحمة الله.. ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾(١).

بلى؛ إن إيماننا بالله وبأسمائه الحسنى، إيمان منطلق من رؤيتنا ونظرتنا إلى الخلائق العجيبة، ومن نداء فطرتنا التي توجّهنا إلى القول بأن الله فعّال لما يشاء، وأنه إله حي قيّوم، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعتريه ضعف أو يحدده حد محدود.

أمّا نظريّة اليهود، التي تسلّلت -مع الأسف- إلى بعض مدّعي الإسلام، وقال بها كثير من الفلاسفة الفرنسيين، فهي تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق كما الساعة فشحنه بقوّة ميكانيكيّة، ثم وضعه جانبًا، حيث بدأ به يوم الأحد وأتمه في يوم الجمعة، ثم ذهب في السبت إلى نوم وراحة!!.

ولكننا -كردٍّ أوّلي- نتساءل: لماذا لا يطّرد الخلل على هذه الساعة، ولماذا لا تزيد في الحركة أو تنقص؟!.

أمّا الفيلسوف الفرنسي الآخر؛ فيقول: إنّ الفلسفة عرضت على الناس إلهًا ميتًا؛ لا يتدخّل في شؤون الكون، وذلك بعد أن أصبحت يده مغلولة، وتنازل عن حقّه في التدخّل.

فيما يقول فيلسوف مسلم ممن يُقدّر ويُقدّس عند كثيرين: إن الله لا يعرف، أو لا شأن له بالأشياء الصغيرة، ومعرفته خاصّة بالأشياء الكبيرة!!.

ولم تنشأ النظرية العلمانية الملحدة في الغرب -في أيام الانقلاب على الكنيسة- إلّا بسبب مثل هذه الأطروحة الخاطئة

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

التـي افتعلها الفلاسـفة بخصوص نشـأة الكون؛ فقالـت العلمانية بإخراج الربّ من الحياة الإنسانية وإنكاره.

فـكان موقـف العلمانيـة المضـاد للديـن، موقفًـا مـن الدين المصطنـع الـذي يحمل في طياته إشـكالات لا تحصى أساسًـا؛ ذلك الدين الذي يؤمن بالثالوث الذي يقول قسم من أتباعه: إن الديـن غـير العقل، وإنما هو إرادة القسـيس، غافلين عن أن العقل لا يمكن إلغاؤه أبدًا، إذ كيف لإنسـان أن يعترف بشيء دون أن يستخدم عقله.

» في الرؤيـة القرآنية، نلاحظ كل شيء عليه أثـر الرحمن، بل إن كل شيء من الخلق هو آية من آياته.وحتى حركات الزمـن، إنما هـي من صنع الرب وتدبيره.

أمّـا في الرؤيـة القرآنيـة، فنجد العكـس تمامًا، إذ نلاحـظ كل شيء عليـه أثر الرحمن، بـل إن كل شيء من الخلق هـو آية من آياته. وحتى حـركات الزمن، إنما هي من صنع الرب وتدبيره.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ حيث لا ينقص النهار ولا يزداد بذاته، وكذلك شأن الليل، إنما الله هو الذي يسيطر على حركتهما.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ إذ لا يمكن للشـمس أَلَّا تشرق أو لا تغيـب إلَّا بـإذن الله، رغم أننـا لا نعرف كيفيّة وطبيعة السـيطرة الربّانيـة عـلى الشـمس أو القمـر، اللّهـم إلَّا مـا نعرفه مـن قوانين الضوء أو الجاذبية، وهي أمور سـطحية للغاية بالقياس إلى الأسرار الإلهيّة.

﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي كل شيء محكـوم بأجل مقدّر ومرسوم، لكون الأشياء جميعًا مخلوقات لله تعالى. فهو الذي بدأها، وهو الذي ينهيها.

وحينما ننظر إلى الطبيعة من هذه الزاوية نعرف: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إذ علمه ليس مقتصرًا على الكلّيات فقط، بل هو عالم بكل شيء؛ كبيرًا كان أو صغيرًا، حتى الورقة من شجرة في غابة يعلم الرب أجلها، وإذا سقطت فإنما سقطت بإرادة ربها، ويعلم سبحانه كل ذلك لأنه محيط بكل شيء.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ولولاه لأصبح كل شيء باطلًا، ولو أننا حذفنا المعرفة بالله سبحانه وتعالى من منظومة معارفنا، لانهارت كل المعارف، لأن كل شيء يبدأ به، وينتهي إليه.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ فما خلا الله باطل، لأنه غير متعلّق به سبحانه وتعالى. فالأصنام باطلة لأنها لا تضر ولا تنفع، وهي باطلة لأن أمرها بيد ربها، وهي باطلة لأنها زائلة، فأين اللات وإين العُزّى وأين مناة الثالثة الأخرى، وأين الفراعنة الذين عُبدوا من دون الله؟.

في حين أن الله حي قيوم تدعوه فيُجيب دعاءك وإليه المصير.

» بصائر وأحكام

حسب بصائر الوحي كل شيء آية تدلنا على تقدير الرب وخلقه وتدبيره المباشر، وحتى حركة الزمان آية من آيات الرحمن المحيط قدرةً وتدبيرًا وعلمًا وهيمنةً على كل شيء، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

» الحكمة ومعرفة الحق

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

***

ما هو الحقّ؟ بل ما هو الباطل؟ وهل فكّرنا بالتمييز بين الحقّ والباطل؟ ثم إذا عرفنا الحقّ والباطل، فما هي قيمة هذه المعرفة على صعيد الحكمة؟ بمعنى: كيف للإنسان أن يحقّق لنفسه التكامل الذي يصل إليه الحكماء من خلال معرفة الحقّ والباطل؟.

هذه أسئلة هامّة جدًّا، نرجو أن نتمكّن من الإجابة عنها فيما يلي من البحث.

حقيقة الباطل

أمّا الباطل؛ فهو ما لا شأن له بتحقيق الأهداف السامية، لا سيّما وأن الأمر الأهم لدى كل إنسان بلوغ الهدف الذي يضعه لنفسه، إذ من طبعه أن يكره الخسارة، ولا يريد أن يفرط بطاقاته، بمقدار ما يريد لحياته التقدّم والفوز.

إذن؛ فالباطل حالة موجوده، وليست فراغًا وخيالًا، ولكنّها تعجز عن تحقيق غايات الإنسان النبيلة.

فالطاغوت مثلًا شأن باطل؛ لأن دولة الطاغوت لا تحقق أهداف الإنسان، كالتمتّع بالأمن والعدل والرفاه والحرّية.

والطعام قد يكون باطلًا أيضًا؛ وذلك حينما يتناوله الإنسان فلا ينفعه، بل قد يضرّه في بعض الحالات؛ فهو طعام باطل فاسد.

وقد يكون لابن آدم صديق، ولكنّه باطل، من حيث عدم وجود القدرة فيه على تحقيق معنى الصداقة وأبعادها. وإنما تكون الصداقة شأنًا حقًّا، حينما تتحقق أهدافها الطبيعيّة؛ إذ الهدف من الصديق أن يصدق صاحبه في المواقف، فينصره ولا يخذله، ويحفظه في الغيب فلا يخونه، ويكون له كما المرآة التي لا تعرف الغش.

ودعوة الإنسان قد تكون باطلة، وذلك حين يتوجّه بالدعاء إلى صنم لا يسمع ولا يستجيب. ومن هنا ورد قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾(1).

فهذه الدعوة دعوة باطلة، وهي عمل لا يتضمّن حقًّا، ولا يُعبّر عن شيء من الحق.

وعبّر عن الباطل بأنه ما لا قدرة له على تحقيق أهداف الإنسان، لأن واقع الإنسان وجوهره -في الغالب- يتطلّع إلى تحقيق أهداف سليمة ومشروعة ومباحة، ولكنّه -في الغالب أيضًا- يختار الطريق الخاطئ والوسيلة الباطلة. فالإنسان يريد تحقيق مصلحته

(1) سورة الرعد، آية: ١٤.

وضمانها، وهذه الإرادة والنيّة أمر مشروع. أو يريد التقدّم والرفاه والأمن والصحّة والغنى والدنيا والآخرة، وهذه كلّها أهداف غير باطلة.

جوهر الحق

أمّا الحق؛ فهو كل ما في العالم المحيط بالإنسان، إلّا ما سُمّي باطلًا؛ أي أننا إذا تجاوزنا الباطل وتجاوزنا الوسائل العاجزة وغير المناسبة لتحقيق الأهداف المشروعة، سنصل إلى الحق ونراه رأيَ العين.

فالحق هو الله، وللإنسان أن يرى ربّه بعين بصيرته. والحق هو سنن الله، والحق هو أولياء الله. والحق ما ينتهي بالمرء إلى ربّه المتعال؛ بمعنى ما يجعل الإنسان تحت مظلّة الرحمة والعلم والعزّة والنعيم الإلهي. وليس ربّ العالمين سبحانه وتعالى جسمًا حتى يصل إليه المخلوق ماديًّا ويقترب منه جغرافيًّا، وإنما يقترب المخلوق من خالقه حينما يكون في إطار أسمائه الحسنى.

» الباطل حالة موجوده، وليست فراغًا وخيالًا، ولكنّها تعجز عن تحقيق غايات الإنسان النبيلة. فالطاغوت مثلًا شأن باطل؛ لأن دولة الطاغوت لا تحقق أهداف الإنسان.

وتنعكّس هذه المعرفة في حال كونها معرفة دقيقة للحق من الباطل، بشكل أو بآخر على روح الإنسان في صورة حكمة؛ إذ يحقّق المرء في ظلّها أهدافه السامية من الطرق المشروعة والنزيهة والآمنة والسريعة. بمعنى أن الحكمة ينالها الفرد حينما تتوافّر له القدرة على معرفة أي الطرق يسلك، ثم يلتزم بمعرفته تلك ويختار الطريق السوي ويفضّله على ما سواه؛ فإذا وصل النقطة الصحيحة عند نهاية الطريق، فهو حكيم. وهذه الحقيقة تصلح مقياساً في جميع شؤون الحياة.

فالحكمة إذن؛ هي التفكير الدائم فيما هو الحق، وهي التفكير الدائم في كيفيّة تحقيق الأهداف المشروعة بالطرق الممتازة.

ربّنا سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، يقول: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى أن ما تجده -يا ابن آدم- في العالم المحيط بك من أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأنه قد سخّر الشمس والقمر، وأن كل شيء ينتهي إلى أجل مسمّى، وأن الله عليم بما يعمله الناس... كل هذه البصائر لابدّ أن تنعكس عندك في نتيجة واحدة، وهي أن تعرف أن الله هو الحقّ.

أي أنك -أيها الإنسان- إذا أردت الكمال وتحقيق الأهداف المشروعة، وأن تصل إلى معدن الحكمة، فلابدّ لك أن تقترب إلى الله تبارك وتعالى، وتسمع وصاياه وتعمل بأوامره؛ لأنه هو الحاكم دون غيره، وهو المهيمن على أمر السماوات والأرض. أمّا إذا مشيت خلافًا لحركة السماوات والأرض، وسعيت بالضد لما الوجود محكوم به من سنن، فإنك لن تصل إلى الأهداف.

» الحق؛ هو كل ما في العالم المحيط بالإنسان، إلّا ما سُمّي باطلًا؛ أي أننا إذا تجاوزنا الباطل والوسائل العاجزة وغير المناسبة لتحقيق الأهداف المشروعة، سنصل إلى الحق ونراه رأيَ العين.

١- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾.

فإذن؛ مادام الله هو الحق، فما حكم البقيّة سواه؟.

البقيّة هي الدعوات والمبادئ والمدارس الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية، وهذه الأنظمة، وهي كلّها باطلة إذا لم تكن تسير في طريق الله عزّ وجلّ، ولا تتبع هداه، ولم تكن ضمن إطار التوحيد والحاكمية والهيمنة الإلهية على الكون.

٢ - ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

فالأصنام -مثلًا- باطلة، لأنها تعجز عن تحقيق شيء، اللّهم إلَّا إبعاد الإنسان عن ربّه. والواقع، أن الأصنام مغلوبة على أمرها، وإنما الإنسان هو من يبتعد بإرادته عن خالقه، بعبادته لتلك الأحجار الصماء، كما أن تلك العبادة تبعث على خموله الفكري وجموده الحياتي، وقد قال سبحانه: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ ﴾[1].

ومما ذكره التاريخ لنا أن أهل الطائف فاوضوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يسمح لهم بعبادة أصنامهم سنةً، ليعبدوا ربّ العالمين سنةً مثلها، فرفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالوا له: إذا كنت ترفض أن تعبد أصنامنا، فاقبل بألَّا نعبدها نحن، ولكن شريطة أن تترك الأصنام لشأنها ولا تحطّمها. فرفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيهم الآخر هذا، مؤكّدًا لزوم تحطيم الأصنام التي كانت في الطائف، حتى أذعنوا في نهاية المطاف لأمر تحطيمها، على ألَّا يقوموا بذلك بأنفسهم، لما كانوا يعتقدون من النحس فيها والخوف من عاقبة تحطيم الأصنام. فبعث النبي وفدًا ليحطموها، ففعلوا ذلك، في حين كان أهل الطائف -ترتعد فرائصم خوفًا من عواقب ذلك-، ولكن تم تحطيم الأصنام ولم يحدث شيء مما خافوا منه.

ثم إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حمل أمير المؤمنين عليه السلام على كتفيه الشريفتين ليحطّم الأصنام التي كانت في جوف الكعبة، ولم يحمل غيره، ليبيّن للناس وللأجيال اللّاحقة أن عليًّا هو الأكثر جدارة

(١) سورة يس، آية: ٧٤ - ٧٥.

بهذا الشرف، وأن آخرين لا يزالون مشوبة قلوبهم بحب الصنم وبالخوف منه.

وكما أن الأصنام الحجرية عديمة الفائدة، كذلك الأصنام البشريّة لا تنفع ولا تضر، ويجهل الخائفون من الحاكم الطاغوت أنه أضعف منهم، وأن ما لديه من قوّة إنما هو آت من خوفهم أياه ليس إلَّا. فهو يستفيد من ضعف الناس، وتفرُّقهم وتشتت آرائهم، وبالتالي، فإن الطاغوت باطل، ومادام باطلًا فإنه لا يحقّق شيئًا، مع امتلاكه الأسلحة والأموال، إلَّا أنه يبقى باطلًا ضعيفًا لأنه لا يحقق أهداف الأمة وتطلعاتها من السلطة، وأن قوته كامنة في ضعف الناس.

» إذا أردت الكمال وتحقيق الأهداف المشروعة، وأن تصل إلى معدن الحكمة، فلابدّ لك أن تقترب إلى الله تبارك وتعالى، وتسمع وصاياه وتعمل بأوامره.

فيما الناس يجرون وراء المبادئ والأفكار خوفًا وطمعًا، وكلّها باطلة، لأنها لا تحقق هدفًا ساميًا.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله. وهذه الكلمة ذات أفقين مختلفين:

ألف: ما يُدعى في سبيل الله وإلى الله سبحانه، مثل الدعوة إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ وأوصياء رسوله عليهم السلام وتوابعهم والدعاة، وحتى من رسالة تدعو الله حتى لو كانت ضمن مراتب؛ أي مرتبة الله والرسول والإمام والفقيه والداعية إلى الله والمؤمن الصالح، وهكذا الصحيفة الرسالية الداعية إلى الله، وهكذا القناة التلفزيونية والكتاب المهذب.. وكل شيء ينتهي إلى سبيل الله.

باء: ما كان من دون الله، فهو كله باطل، وما لم يقع في صراط ربّ العالمين فهو باطل محض.

ولا فرق في الدعوة إلى الله أو ما سواه بين العقيدة والعمل، لأن ما يستحق أن يطلق عليه اسم العقيدة، هي تلك العقيدة الراسخة التي تنعكس في السلوك.

إن الحكمة تقتضي أن نختار الوسائل الصحيحة، وهي ليست إلَّا ما أمر بها الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

والمشكلة الكبرى للإنسان أنه يُحجب عن ربّه بواسطة مخلوقات الله؛ فهو يرى الجبل فينبهر بضخامته، ويرى البحر فيُؤخذ باتساعه وعمقه، ويرى الشمس فيتعجّب من قوّة ضوئها، والقمر فينبهر بجماله... فيما كان عليه أن يستثمر عقله وذكاءه ولو قليلًا؛ لأن القليل يكفيه ليعرف أن للجبل والبحر وكل السماوات والأرض خالقًا ومدبّرًا ومهيمنًا. بل وما الداعي ليحكم المرء على نفسه بالتصاغر حين يشغل نفسه بالمخلوق دون الخالق، وحين يغفل أو يتغافل عن أن جميع المخلوقات مسخرات لخدمته هو، وأنها لا تنفعه ولا تضرّه إلَّا بإذن الخالق الكبير؟!.

» كما أن الأصنام الحجرية عديمة الفائدة، كذلك البشريّة لاتنفع ولا تضر، ويجهل الخائفون من الطاغوت أنه أضعف منهم، وأن ما لديه من قوّة إنما هو آتٍ من خوفهم أياه ليس إلَّا.

٣- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

فإذا كان الإنسان يحب العلو ويرغب بالعزّة ويطمح إلى التكامل والتسامي، فليقصد الله سبحانه وتعالى، لأنه هو العليّ بذاته، وهو الفياض بكرمه وعطائه، وهو الكبير حقًّا بحيث يتصاغر في حضرته كل شيء. فلماذا يختار ابن آدم السافل على العلي، والضئيل الحقير على العظيم الكبير.

دعوة سماوية للارتقاء

هنا نجد فلسفة الإسلام الحقيقيّة تعتمد على رفع الإنسان من مستوى الخضوع للمخلوق إلى مستوى التواصل مع أسماء الله الحسنى.

والملفت للنظر أن ابن آدم حين يخضع للمخلوقات ويصل به الأمر إلى عبادة بعضها؛ مثل الشمس والقمر والبحر والحجر.. فإنه في الحقيقة يتنازل لها عن هويته كإنسان، وعمّا كرّمه الله به، وهو الذي خُلق في أحسن تقويم، أَوَلَمْ يُسخر له المخلوقات ولم يسخّره لها؟ فكيف يعبد الإنسان بقرة -مثلًا- وهي الحيوان الوديعة الحلوب، والتي جُعلت لتسقي ابن آدم وتطعمه من لبنها السائغ ومن لحمها وتعينه على حراثة الأرض؟! وكيف له أن يعكس الحقيقة، فيما الله جعله أرقى منها، وأهّله لأن يرتقي إلى ما هو أعلى من مستوى الملائكة؟.

أمّا عبادة المال، فحدِّث ولا حرج، إذ صار الإنسان يستثمره المال بدلًا من استثماره له.

وهناك من يعبد زوجة جميلة أصبحت مسيطرة عليه كل السيطرة، فإذا به يضحّي من أجلها بدينه وحياته وكل قيمه.

عقبى عبد الطاغوت

ومن الناس من عبد حاكمًا سياسيًّا، غير آبهٍ بضلاله وفسقه وإجرامه.. والقصة التالية مثل لذلك.

رَوَى عُبَيْدُ الله الْبَزَّازُ النَّيْسَابُورِيُّ -وَكَانَ مُسِنًّا- قَالَ: «كَانَ

بَيْنِـي وَبَيْنَ حُمَيْدِ بْنِ قَحْطَبَةَ الطَّائِيِّ الطُّوسِيِّ مُعَامَلَةٌ، فَرَحَلْتُ إِلَيْهِ فِي بَعْـضِ الْأَيَّام، فَبَلَغَهُ خَبَرُ قُدُومِي فَاسْـتَحْضَرَنِي لِلْوَقْتِ وَعَلَيَّ ثِيَابُ السَّفَرِ لَمْ أُغَيِّرْهَا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَقْتِ صَلَاةِ الظُّهْرِ.

فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ، رَأَيْتُهُ فِي بَيْتٍ يَجْرِي فِيهِ المَاءُ، فَسَـلَّمْتُ عَلَيْهِ وَجَلَسْتُ، فَأُتِيَ بِطَسْتٍ وَإِبْرِيقٍ فَغَسَلَ يَدَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَنِي فَغَسَلْتُ يَدَيَّ، وَأُحْضِرَتِ المَائِدَةُ، وَذَهَبَ عَنِّي أَنِّي صَائِمٌ وَأَنِّي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. ثُمَّ ذَكَرْتُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي.

فَقَالَ لِي حُمَيْدٌ: مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ؟.

فَقُلْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؛ هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ، وَلَسْتُ بِمَرِيضٍ وَلَا بِي عِلَّـةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ، وَلَعَلَّ الْأَمِيرَ لَهُ عُـذْرٌ فِي ذَلِكَ أَوْ عِلَّةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ؟!.

فَقَـالَ: مَا بِي عِلَّـةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَـارَ، وَإِنِّي لَصَحِيحُ الْبَدَنِ. ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَكَى.

فَقُلْتُ لَهُ بَعْدَمَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ: مَا يُبْكِيكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟.

فَقَالَ: أَنْفَذَ إِلَيَّ هَارُونُ الرَّشِـيدُ وَقْـتَ كَوْنِهِ بِطُوسَ فِي بَعْضِ اللَّيْـلِ: أَنْ أَجِـبْ. فَلَـمَّا دَخَلْـتُ عَلَيْهِ، رَأَيْتُ بَـيْنَ يَدَيْهِ شَـمْعَةً تَتَّقِدُ وَسَيْفاً أَخْضَرَ مَسْلُولاً، وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَادِمٌ وَاقِفٌ. فَلَمَّا قُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالمَالِ.

فَأَطْـرَقَ، ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الِانْصِرَافِ. فَلَـمْ أَلْبَثْ فِي مَنْزِلِي حَتَّى عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ، وَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّا لله، أَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَزَمَ عَلَى قَتْلِي، وَإِنَّهُ لَمَّا رَآنِي اسْتَحْيَا مِنِّي. فَعُدْتُ إِلَى بَيْنِ يَدَيْهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً، ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الِانْصِرَافِ.

فَلَمَّا دَخَلْتُ مَنْزِلِي، لَمْ أَلْبَثْ أَنْ عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَحَضَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالدِّينِ. فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: خُذْ هَذَا السَّيْفَ وَامْتَثِلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ هَذَا الْخَادِمُ.

قَالَ: فَتَنَاوَلَ الْخَادِمُ السَّيْفَ وَنَاوَلَنِيهِ، وَجَاءَ بِي إِلَى بَيْتٍ بَابُهُ مُغْلَقٌ فَفَتَحَهُ، فَإِذَا فِيهِ بِئْرٌ فِي وَسَطِهِ، وَثَلَاثَةُ بُيُوتٍ أَبْوَابُهَا مُغْلَقَةٌ، فَفَتَحَ بَابَ بَيْتٍ مِنْهَا، فَإِذَا فِيهِ عِشْرُونَ نَفْساً عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَائِبُ شُيُوخٌ وَكُهُولٌ وَشُبَّانٌ مُقَيَّدُونَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ، وَكَانُوا كُلُّهُمْ عَلَوِيَّةً مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام، فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ. ثُمَّ رَمَى بِأَجْسَادِهِمْ وَرُؤُوسِهِمْ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ.

ثُمَّ فَتَحَ بَابَ بَيْتٍ آخَرَ، فَإِذَا فِيهِ أَيْضاً عِشْرُونَ نَفْساً مِنَ الْعَلَوِيَّةِ مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام مُقَيَّدُونَ. فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ. فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ. حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ، ثُمَّ

فَتَحَ بَابَ الْبَيْتِ الثَّالِثِ، فَإِذَا فِيهِ مِثْلُهُمْ عِشْرُونَ نَفْساً مِنْ وُلْدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام مُقَيَّدُونَ عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَائِبُ فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ أَيْضاً. فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ. حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى تِسْعَ عَشْرَةَ نَفْساً مِنْهُمْ وبَقِيَ شَيْخٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ شَعْرٌ.

فَقَالَ لِي: تَبّاً لَكَ يَا مَشُومُ؛ أَيُّ عُذْرٍ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَدِمْتَ عَلَى جَدِّنَا رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْ أَوْلَادِهِ سِتِّينَ نَفْساً، قَدْ وَلَدَهُمْ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عليهما السلام؟.

فَارْتَعَشَتْ يَدِي، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي، فَنَظَرَ إِلَيَّ الْخَادِمُ مُغْضَباً وَزَبَرَنِي، فَأَتَيْتُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ أَيْضاً فَقَتَلْتُهُ، وَرَمَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ.

فَإِذَا كَانَ فِعْلِي هَذَا وَقَدْ قَتَلْتُ سِتِّينَ نَفْساً مِنْ وُلْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فَمَا يَنْفَعُنِي صَوْمِي وَصَلَاتِي، وَأَنَا لَا أَشُكُّ أَنِّي مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ»[1].

فحيث الله خلق الإنسان ليكون عبدًا له، فيتجرّد عن كل الأغلال المادّية التافهة، ترى الكثير من يدافعون عن الملوك الظلمة والرؤساء الطغاة بأنفسهم ودينهم وكل ما لديهم.. ولا يزيدهم ذلك إلّا عبوديّة لمن هو أو لما هو أوضع منه، فيشاركه في كل آثامه وجرائمه. وليس واقعهم إلّا واقع أولئك الذين وصفهم الله بالقول: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2]، أي ألغيت ذواتهم من قائمة الكرامة.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٠٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

ولا يعود الإنسان إلى رشده إلّا حينما يقول ويعترف بأن الله هو العليّ الكبير.

ولم يأمرنا الله عزّ وجلّ بأن نذكره -فكرًا وقولًا وفعلًا- ذكرًا كثيرًا، ليلًا ونهارًا، قيامًا وقعودًا، إلّا لكي لا نتحوّل إلى عبيد للدنيا، ولكي نبقى أعزّاء بعزّته، ونعيش بكرامتنا وإنسانيتنا التي خلقنا سبحانه عليها.

» فلسفة الإسلام تعتمد على رفع الإنسان من مستوى الخضوع للمخلوق إلى مستوى التواصل مع أسماء الله الحسنى. وأن ابن آدم حين يخضع للمخلوقات ويصل به الأمر إلى عبادة بعضها؛ .. فإنه في الحقيقة يتنازل لها عن هويته كإنسان.

ولا ريب في أن في عبوديّة الله -وحدها- العزّة والكرامة، لأن الله سبحانه وتعالى يسخّر للإنسان كل الموجودات حينما يقر له ويعترف بفضله فيعبده. ولكن تصرّفه في الموجودات في حال تمرّده على إرادة الربّ العليّ الكبير يكون تصرّفًا فضوليًّا غير مسموح به؛ بمعنى أنه سيزداد إثمًا على إثم في كل لحظة يعيش فيها غير خاضع لخالق الموجودات.

الحب، الشفقة، الخضوع

قِيلَ: لَمَّا كَانَ الْعَبَّاسُ وَزَيْنَبُ -وَلَدَيْ عَلِيٍّ عليهما السلام- صَغِيرَيْنِ، قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام لِلْعَبَّاسِ: **قُلْ وَاحِدٌ.**

فَقَالَ عليه السلام: وَاحِدٌ.

فَقَالَ عليه السلام: **قُلِ اثْنَانِ.**

قَالَ الْعَبَّاسُ عليه السلام: أَسْتَحِي أَنْ أَقُولَ بِاللِّسَانِ الَّذِي قُلْتُ وَاحِدٌ اثْنَانِ. (أي أنني أعبد إلهًا واحدًا).

فَقَبَّلَ عَلِيٌّ عليه السلام عَيْنَيْهِ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى زَيْنَبَ عليها السلام وَكَانَتْ

عَلَى يَسَارِهِ، وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ. فَقَالَتْ عليها السلام: يَا أَبَتَاهْ أَتُحِبُّنَا؟.

قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ يَا بُنَيَّ! أَوْلَادُنَا أَكْبَادُنَا.**

فَقَالَتْ عليها السلام: يَا أَبَتَاهْ حُبَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ حُبُّ الله وَحُبُّ الْأَوْلَادِ. وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ لَنَا فَالشَّفَقَةُ لَنَا، وَالْحُبُّ لله خَالِصاً..»(1).

هذا كان مثلًا، وهو معيار وضعه لنا أمير المؤمنين وابنته الحوراء زينب عليهما السلام.

إنّ حبّ المؤمنين الحقيقي ينبغي أن يكون لله تبارك وتعالى كما قال ربنا سبحانه: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾(2).

أمّا موقفهم من الآخرين، ومن المال وغير ذلك، فينبغي أن يكون منطلقًا من الشفقة والاحترام والحاجة والاستثمار، فيما الحب والعبوديّة يكونان لله سبحانه.

» إن الله خلق الإنسان ليكون عبدًا له، فيتجرّد عن كل الأغلال المادّية التافهة، نرى الكثير من يدافعون عن الملوك الظلمة والطغاة بأنفسهم ودينهم وكل ما لديهم.. ولا يزيدهم ذلك إلّا عبوديّة لمن هو أو لما هو أوضع منه.

بين الحب والشهوات

وحيث يتضاءل الإيمان وتضعف القيم المثلى لدى البعض، تراهم يعبّرون عن الشهوة بالحب، وعن العلاقة بالمال بحب المال، في حين أن الإنسان يرغب بالمال، ويجدر أن يكون علاقته به علاقة استثمار للمال في مصلحته وليس العكس. وكذلك سائر الأمور، مثل

---

(1) مستدرك الوسائل، ج15، ص215.
(2) سورة البقرة، آية: 165.

الشـهرة والجاه والطعـام. وهذا هو الحد الفاصـل بينها وبين الحب لله.

أمّا حب الوالدين، وحب الأولياء، فإنما نسميه حبًّا لا شهوة لأن الله تعـالى أمـر بهـذا الحـب، ولأن هـذا النوع من الحـب ينتهي إلى حـب الله عـزّ وجلّ. وحتى طاعة النبـي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام، فإنـما تبدأ بطاعـة الله وتنتهي بها. وهذا معنى اتخاذهم وسـيلة؛ لأن الله تعـالى قـد قـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1]، فكانوا أسمى الوسائل إلى الربّ العلّي الكبير.

وقد علّمنا أهل البيت عليهم السلام من خلال أحاديثهم وأدعيتهم ومواقفهـم أن نجعـل الله قبـل كل شيء وعنـد كل شيء وبعـد كل شيء.

ولمجرّد زيارة المعصوم نجد التعاليم القدسيّة تؤكّد الخطاب علينـا، فتعلّمنـا أن نقـول: «**السَّـلَامُ عَلَيْـكَ يَـا رَسُـولَ الله..**»، أو: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَلِيَّ الله..**».

إذ كل الأمور ترجع إلى الله عزّ وجلّ.

وهنـاك زيـارة معروفـة هي الزيـارة الجامعة، حيـث نقرأ في فاتحتهـا: «**السَّـلَامُ عَلَيْكُـمْ يَا أَهْـلَ بَيْتِ النُّبُـوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسَـالَةِ، وَمُخْتَلَـفَ المَلَائِكَـةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَـةِ، وَخُزَّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الحِلْمِ، وَأُصُولَ الْكَرَمِ، وَقَادَةَ الْأُمَمِ...**»[2].

وقد ورد اسـتحباب تكبير الله مئة مرّة قبل الشروع بقراءتها؛

(١) سورة المائدة، آية: ٣٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٣٠٥.

لكي يتأكد للقارئ الزائر أن كل الشرف وكل العظمة وكل القدسيّة وكل الحب والاحترام الذي يُقدّمه لأئمة الهدى عليهم السلام فإنما لأنهم عباد الله الأكثر إخلاصًا لربهم ودعوةً إليه، ولأنهم كلمة التقوى، فقد أمر الله بحبّهم وطاعتهم.

فإذا كان كل شيء في طريق الله وبأمر الله، تحوّل ذلك الشيء إلى عبادة، لأنه يستمد قدسيّته من عبادة الله سبحانه وتعالى.

كيف نتحدى ضغوط الدنيا؟

أمّا إذا تقدّم أحدهم ليسأل عمّا عليه أن يفعل ليصل إلى المستوى الذي لا تستولي فيه زخارف الدنيا عليه، وكيف له أن يتحدّى ضغوط الحياة، كضغوط المجتمع الفاسد والتيارات الفاسدة والطغاة؟.

فعليه أن يعلم أن توثيقه الصلة بالله سبحانه وتعالى هو الضامن الأكيد لتساميه على محيطه المعيب، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1]، وكذلك عبر الاستعانة بالصوم والصلاة وقراءة القرآن قراءة باحث عن نجاة، وبالتالي عبر التوكّل على الربّ الكافي ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2].

التوكل على اللَّه سبحانه يزيد العزم

ومعنى التوكل أنه إذا بلغ الأمر بالإنسان إلى خوض صراع شديد مع الطبيعة أو مع الآخرين، فعليه -في لحظات الحسم

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤١.
(٢) سورة الطلاق، آيه: ٣.

الحقيقيّـة- أن يكرس كل توجهه إلى الله تعالى، ليسـتمد منه الأرادة النافذة والعزم الراسخ، ويستلهم منه الصبر والبصيرة؛ ليرى نفسه فيما بعد أنه يهيمن على الدنيا المحيطه به، وليرى نفسه في نهاية المطاف يقف في مواجهة الطاغوت ويقول كلمة الحق، ولا ينحني أمام أشد الأزمات وأكبر المشاكل والإغراءات.

» حين يتضاءل الإيمان وتضعف القيم المثلى لدى البعض، تراهم يعبّـرون عن الشـهوة بالحب، وعن العلاقـة بالمال بحب المال، في حـين أن الإنسـان يرغـب بالمال، ويجـدر أن يكون علاقته بـه علاقـة اسـتثمار للمال في مصلحته وليس العكس.

ولا ريـب في أن ذكـر الله بحاجـة إلى مـراس متواصـل على أن يكـون قلبيًّـا وذهنيًّا ولسـانيًّا؛ لتكون الآخرة نُصـب العين، وكذلك ذكر المـوت. فتهون على الذاكر كل المواقف.. كيف؟.

إنـه بمجـرّد ذكـر المـرء للمـوت وتذكّـره القـبر والحسـاب والـصراط والنـار والجنّـة؛ فإنـه يفـكّ غلًّا وإصرًا عن نفسه، فينطلق ويهيمن على كل شيء.

ولعـلّ هذا هو السر في الحث الشرعي عـلى زيارة القبور، إذ هنالك تتجسّـد نهاية الدنيا، فلا يأبه المؤمـن لدنياه. وهذا هو الذي يجعـل المؤمن أصلـب من الحديد وأقوى من الجبال، حيث يسـتمد قوته من خالقها.

في بعـض الأحيان، يقـف المرء حائرًا فيما يتصـل بحال أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، وكيف أنهم صبروا، ولم تصدر عنهم كلمة واحـدة مما يُعبّر عن الضجر أو الخوف أو التخـاذل. لكننا إذا أمعنّا النظـر في الآيات المجيـدة، وعرفنا أن أهل البيت قـد ذابوا في حب ربهم وصاغتهم آياته صياغة مختلفة عن جميع الناس.. سيتأكّد لنا أن صبرهـم وتحدّيهم كان -في الحقيقة- بسـبب تلك الآيات القرآنية، والآيـات تلـك لا تـزال أمامنـا، ومتـاح لنا أن نسـتمد منهـا العزم

الراسخ والبصيرة الفذّة إن شاء الله.

ورغم أننا قد لا نستطيع أن نكون بمستوى أهل البيت المعصومين المطهّرين عليهم السلام، إلّا أن لنا أن نصطبغ بصبغتهم ونقتدي بهداهم في تمسّكهم بالآيات القرآنية وكلماتهم المضيئة. وهي كل ما يُقدّم لنا فرص التكامل والتسامي، ونحن على معرفة بمن استفادوا من هذه الفرص وساروا على نهج المعصومين، إذ صمدوا وتحدّوا وواجهوا أنواع الضغوط والأزمات، حتى بلغوا الذروة في حياتهم الدنيويّة والأخرويّة، وهم كانوا مجرّد بشر، لكنّهم تسلّحوا بقوّة الإيمان والبصيرة، بعد أن استلهموا الدروس من أهل البيت عليهم السلام الذين هم ترجمان القرآن وعِدْله.

وكلمات أهل البيت عليهم السلام ليست معقدة، وإنما هي نور مضيء، ولكلٍّ أن يستفيد منها وفق قابليته الذهنية. بل إن في هذه الكلمات من الخصوصيّة ما ينمي ذهنية الإنسان -القارئ والمهتم- ويرتقي بمستواه.

» إننا قد لا نستطيع أن نكون بمستوى أهل البيت المعصومين المطهّرين عليهم السلام، إلّا أن لنا أن نصطبغ بصبغتهم ونقتدي بهداهم في تمسّكهم بالآيات القرآنية وكلماتهم المضيئة.

وهي مبثوثة في أدعيتهم المباركة؛ مثل دعاء كميل، ودعاء أبي حمزة الثمالي، ودعاء مكارم الأخلاق، ودعاء عرفة؛ إذ تتضمّن الأفكار الرائعة والمضامين السامية والبصائر الكثيرة. كما هي موجودة أيضًا في كتاب نهج البلاغة أو الكافي أو التهذيب والوسائل. وإني أتوجّه بالنصح الخالص إلى جميع إخواني وأخواتي؛ المؤمنين والمؤمنات أن يقتنوا ولو واحدًا من هذه الكتب الجليلة، ولا سيّما ما يرتبط منها بالأخلاق، مثل كتاب تحف العقول التي جمع فيه المحدّث الكبير الحسن بن شعبة الحرّاني وصايا مفصّلة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرين عليهم السلام.

» بصائر وأحكام

١- من الحكمة التمييز بين الحق والباطل فما حقق تطلعاتها السامية حق، والباطل سواه، وما يبقى هو الحق ودونه الباطل.

٢- والله حق لأنه مهيمن على السماوات والأرض والتقدير والتدبير بيده وله الخلق والأمر، وأما الدعوات الأخرى فهي باطلة لأنها زائلة، ولأنها لا تحقق هدفًا، ولأنها لا تضر ولا تنفع بل تضر بعبادتها ولا تنفع.

٣- لقد كرّم الله الإنسان وسخّر له ما في الأرض، ولكن الشيطان يضله ويجعله يعبد ما سوى الله ويُسخّر نفسه لها، أليس في ذلك ضلالاً بعيداً!؟.

» دعوة إلى وعي الحقائق

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾.

***

لماذا نجد بعض الناس تهتز مشاعرهم لما يرون من آيات الله عزّ وجلّ، وتستقبلها أفئدتهم، وتهضم عقولهم معانيها، ويستوعبون دروسها، حين أن بعضاً آخر متبلدة عواطفهم، حتى كأنَّ عقولهم في أكنان، ولا يعتبرون بشيء يرونه؟.

يرجع السبب في هذا التفاوت الكبير إلى المستوى الخُلقي لدى الطرفين، إذ من الناس من تتكامل نفوسهم إلى درجة تستطيل إلى مستوى فهم الحياة، وغيرهم يفضّل البقاء قزمًا دون مستوى الفهم، وهذا الفارق يميّز بين هؤلاء وأولئك.

والقرآن المجيد، وفي أكثر من مناسبة، نجده حينما يذكِّر بآية من آياته، يؤكّد على أنها آية للعالمين، وليست مجرّد حادثة عابرة، بل لعلّنا لا نجد حادثة في الخلق يمكن وصفها بالعابرة وغير جديرة

بالتأمّل. وفي الآية أعلاه يقول ربّنا المتعال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

بين الشكر والصبر

فالآيات للجميع، إلّا أن الذي يستفيد منها حق الاستفادة، هو الصبّار الشكور. فمن هو هذا الصبّار الشكور يا ترى؟!.

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**الْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ فِي الصَّبْرِ، وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ**»[1].

بمعنى أن المؤمن لدى مواجهته الصعاب، يتخذ موقف الصبر، وإذا استقبل النعم كان موقفه منها موقف الشكر. فهو صبور عند الشدائد، شكور عند الآلاء والنعم... حتى لكأن هاتين الصفتين لا تنفصلان عن بعضهما؛ لأن الصبر ميراث الوعي، حيث المؤمن يتطلّع إلى الحقائق، ويرنو إلى المستقبل، بعد استيعابه للقاعدة الإلهيّة القائلة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2].

فالشدائد غالبًا ما تكون تمهيدًا للرفاه، كما الصعوبات التي تعتري طالب المدرسة خلال الامتحان تتحوّل في النهاية إلى نجاح باهر إذا ما صبر حيالها وتحدّاها، كذلك هي الصعوبات التجارية التي تتحوّل إلى أرباح، وأشباه ذلك.

مما يشير إلى أن الرؤية المستقبلية خاصّة بمن يتخذ الصبر منهجًا، لا سيّما إذا كانت هذه الرؤية رؤية شمولية تتضمّن مواقف الآخرين وحقائق الأمور. فمن وجد صعوبة في حياته، فنظر إلى

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٥٣.
(٢) سورة الشرح، آية: ٥ - ٦.

غيره ممن يعيش ظرفًا أكثر قسوة وأكثر تحدّيًا من ظرفه، تطمئن نفسه.

وغالبًا ما إذا نظر المرء إلى ما حوله، ووجد الصعوبات عند الآخرين، كان ذلك مدعاة لأن يشكر الله سبحانه وتعالى، لا سيّما حين يجد نفسه يملك ما لا يملك غيره، وأن من المصائب ما نزلت على الآخرين، ولم تنزل عليه.

وهذا يعني أنه كلّما اتسعت دائرة اهتمام الإنسان -زمانًا ومكانًا- تكاملت شخصيّته، ونما عقله، فصبر وشكر. والشكر لا يكون إلَّا حينما يعي الفرد أن هذه النعمة أو تلك؛ لم تكن ثم كانت، ويكون على يقين بأن طبيعة النعم أن تزول وتتبدّل.

وعلى هذا، فإن المرء حينما يكون صبّارًا شكورًا، فإنه في الحقيقة سيمتاز بصفة راقية تدفع به إلى التقدّم والسمو. ومثل هذه الشخصيّة هي التي تكشف له عن آيات الله سبحانه وتعالى، تبعًا لما تمتاز به من نظرة شمولية واعية، لتتصل فيما بعد بنور الله، فيزداد بهجة وسرورًا وحكمة في الحياة؛ إذ يتأكّد له أن المهيمن على العالم هو الله وحده دون سواه. فإذا أصابته -وهو في سفينة تحيط به أمواج البحار- مصيبة، فإن قلبه لا يخرج عن نطاق الاطمئنان، تبعًا لما لديه من التوجّه والاستمداد، لأنه يعرف أن الله لا يُقدّر له إلَّا الخير.

وهذا الإنسان يتمتّع بشخصيّة إيمانيّة فذّة، في حين أن الآخر يخشى أبسط الأمواج وأهدأ الرياح، لأنه مفتقر إلى الاطمئنان والاستقرار، ولا يعيش إلَّا همَّ نفسه. ومن هو كذلك، لا ينظر إلى ما حوله، ولا يعي شيئًا من آيات الله عزّ وجلّ.

ربّنا سبحانه يقول: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾.

والقول هذا دعوة إلى وعي حقيقة جريان السفن في البحر، وطبيعة القوانين التي تحكم هذا الجريان. بل ومدى النعم الربّانية التي مكّنت الإنسان من اكتشاف وتسخير البحر.

» إذا نظر المرء إلى ما حوله، ووجد الصعوبات عند الآخرين، كان ذلك مدعاة لأن يشكر الله، لا سيّما حين يجد نفسه يملك ما لا يملك غيره.

إنّ الجميع يرون السفن وهي تجري في البحار وتخوض غمارها، ولكن الذين ارتقوا بتفكيرهم ونظرتهم عبرها هم قلائل.

وحتى السفن التي تجري في البحار بالطاقة الذرّية، هي نعمة إلهيّة، كما هي نعمة الأمن، ونعمة القدرة على التنظيم والتعاون والتمدّن، هي بأجمعها أورثتنا -نحن البشر- القدرة على استخدام البحر. وكلّما تقدّمت الحضارة تضاعفت القدرة على تسخير الطبيعة، ومنها البحار التي تُعتبر من أفضل آليات نقل البضائع ونقل وقود الطاقة؛ مثل النفط الذي أصبح شريان الحياة الأكثر أهميّة.

لماذا خُلق الإنسان؟

إنّ الهدف القرآني هو إلفات نظر الإنسان إلى أن علّة إيجاده في الحياة ليس لمجرّد إشباع بطنه وتحقيق مصالحه المادّية، وإنما لإشباع روحه وتحقيق مصالحه المعنويّة وكمالاته الروحيّة. وآية هذا الهدف أنه سبحانه قد قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، وقوله هنا: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ فيسمو الإنسان بالشكر إلى وعي حقيقة الحياة والحكمة منها، إضافة إلى أن تكون رؤيته إلى ما وراء المادّيات، فلا تصبح

(١) سورة البقرة، آية: ٥٢.

حياتـه حيـاة خاضعة للحالـة الروتينيـة؛ إذ ينطلق المـرء في البحار ويرى الآفاق وعجائب الخلقة غير المألوفة لنفسـه، كما هي في البر، وكلّما رأى المرء الآيات ازداد وعيًا وحكمة وكمالًا.

ثم إن النظرة إلى البحر ينبغي أن تكون نظرة تنتهي إلى معرفة أن البحـار ومـا فيها من موانئ تعتبر نقـاط تواصل بين الحضارات البشريّـة. وواضـح أن القـدرة الإنسـانية عـلى التكامـل الحضاري تعـد بحـد ذاتها نعمة إلهيّة، وهذه واحدة مـن مفاتح العلم وأصول المعرفة وسـبل التكامل التـي يُحرِّضنا القرآن الكريـم على الاهتداء إليهـا. وليس ذلك إلَّا لنعتبرها وسـيلةً للبحث الجدّي والانطلاق في الحياة.

وكتـاب الله المجيد قد أمر المسـلمين بأن يسـيروا في الأرض -برّها وبحرها- ليعرفوا حقيقة الخلقة، ويتأكّدوا من بدء الخليقة. وهذا الأمر بالتحرّك لهذا النوع من المعرفة، سـواء خلقة الإنسان أو الحيوانات أو النباتـات، أو حتى خلقة الصخور وانفصال الأرض عـن الشـمس، يُعطـي الباحـث مزيـدًا مـن المعلومات حـول النفس الإنسـانيّة؛ نظرًا لأن التاريـخ هو مصباح المسـتقبل، ولأن مـن لا يعـرف تاريخه المـاضي، لا ريب سيجهل مستقبله.

» إنّ الجميـع يـرون السـفن وهـي تجري في البحـار وتخـوض غمارها، ولكن الذين ارتقـوا بتفكيرهـم ونظرتهـم عبرها هم قلائل.

كـما أن ربّنـا المتعـال أمرنا بأن نسـير في الأرض، لنعـرف كيـف كانـت عاقبـة الذيـن ظلمـوا؛ أي عاقبة الحضـارات التي سـادت وازدهرت ثم بـادت، لنعرف لماذا بادت؟ لأن معرفتنا بنهايات الحضارات تعطينا دراسـة عميقة في عوامل الصعود والسقوط، وفي عوامل التقدّم والانهيار.

ولكـنّ كثيرًا من المسـلمين لم يُكَلِّفوا أنفسـهم عنـاء التفكير والتأمّـل والبحـث والتنقيـب، لكـي يتجنّبـوا عوامـل السـقوط، ويتمسّـكوا بعوامل الصعود. بل إن منهم من لا يكلّف نفسـه حتى قـراءة الآيات التـي تتحدّث بوضوح عن العوامـل بنوعيها، فضلًا عن البحث عنها في واقع الحياة وفي آثار الماضين وعبر حياتهم.

متى يُعرف التاريخ والمجتمع؟

ومـن المعـروف في علم الاجتـماع وفي علـوم الطبيعة، بل في العلوم التجريبية ككل، أن الحالات الشاذّة والتحوّلات الطارئة هي الأكثر أهميّة لدراسـة طبيعـة القوانين والأنظمة الحاكمة في المجتمع أو الطبيعـة. وكمثـل دعنـا ندرس منهـج علم الاجتماع في دراسـة التحولات الاجتماعية، ونسأل: كيف يمكننا دراسة المجتمع؟.

الجـواب هـو: إنما يـدرس من خـلال التحوّلات السياسـيّة والثورات والاضطرابات، تمامًا مثل ما يدرس جسم الإنسان، عند تعرضه للأمراض.

القرآن مفتاح المعرفة

من المشـاكل الكبيرة التـي يُعاني منها المسـلمون اليوم، أنهم حينـما يقرؤون كتاب الله المجيد، يقفـون عند المفاتيح، ثم يأخذونها ويضعونهـا في جيوبهـم، ظنًّا منهم أنهم قـد حصلوا على الحلول، في حـين أن الشـأن القرآني أنـه يُبيّن لقارئـه طريق البحـث، وعليه أن يمـضي قُدُمًـا في البحث حتى يبلغ الحقائق؛ مثلًا يأمره بأن يسـير في الأرض، وعلى المسـلم أن يسـتجيب لذلك ويقوم بدوره من السير في الأرض والنظر ثم الاعتبار بما فيها.

ولعلّ هذا التقصير تجاه القرآن، يجري أيضًا عند بعض المؤمنين، إذ يتخيّلون أنهم بمجرّد قراءتهم للآيات سيحصلون على المعرفة التامّة والإيمان الكامل. والحال أن القرآن الكريم يحثّهم على القيام بفعل النظر والاعتبار والتفكّر والتدبّر، مما يشير إلى أن زيادة الإيمان منوطة بحركة الإنسان وتوجّهه بنفسه، وبالتالي بجهده الفكري والعاطفي تجاه الإيمان. أمّا الإيمان؛ فهو لا ينزل من السماء مباشرة إليهم من دون فعل منهم.

الفاصل بين القرآن والدراسات الحديثة

وبالرغم من أن الباحثين غير المسلمين يقومون اليوم بدراسات ميدانية للآثار، ولكن هناك فاصل بين منهج القرآن الكريم والمناهج الحديثة، حيث إن هذه الآخيرة تهدينا إلى معرفة التاريخ علميًّا من خلال الوقائع التي جرت فحسب، في حين أن القرآن يأمرنا بدراسة الوقائع ومعرفة أسبابها والاعتبار بها؛ بمعنى تحويل الحدث التاريخي إلى قيمة حضارية في أنفسنا وإلى سلوك حكيم في مشاربنا ومذاهبنا، وهذا شيء مهم للغاية.

نعم؛ إنّ الاعتبار له أهميّة قصوى، إذ مجرّد العلم الذي لا يتحوّل إلى عمل وسلوك وحكمة، يبقى عديم الفائدة أو قليلها.

ولو أن قوّة بشريّة حكمت العالم بأسره، ولكنّها كانت تفتقر إلى الخبرة والحكمة، ولم تدرس وتعتبر من الأسباب التي أطاحت بالقوى السابقة، فإنها لا ريب لن تدوم طويلًا، وسرعان ما ستتهاوى، خصوصًا وأنها تحتضن عوامل سقوطها بنفسها، قبل أن يسقطها أعداؤها.

إنّ الإسلام يحث على المعرفة والتتبّع والاعتبار والالتزام، في حين أن الثقافات الأخرى تفتش عن مجرّد المعرفة لتحقيق المصالح المادّية، دون تأمين الوضع الاستراتيجي والمستقبلي.

ونجد الآن من يزور الآثار التاريخيّة، كالأهرامات المصريّة مثلًا، ثم لا يهتم إلَّا بطبيعة البناء، ويفكّر في كيفيّة توصل البنّائين المصريّين القدماء إلى ما وصلوا إليه مع عدم التقدّم التقني والتكنولوجي لديهم، غافلين عن سلوك ومصير الفراعنة الذين استعبدوا مئات الآلاف من الناس ليبنوا هذه الأهرامات.

» هناك فاصل بين منهج القرآن والمناهج الحديثة، حيث إن هذه الأخيرة تهدينا إلى معرفة التاريخ علميًا من خلال الوقائع التي جرت، في حين أن القرآن يأمرنا بدراسة الوقائع ومعرفة أسبابها والاعتبار بها.

إذن؛ ينبغي لنا الاستفادة من القرآن، فننطلق منه في علمنا وعملنا. وشأن التفكّر والاعتبار المأمور بهما في الآيات المجيدة، شأن الآية التي تأمر بالصلاة، إذ هي ليست لمجرّد الترتيل أو التجويد، وإنما هي عبارة عن مشروع ربّاني عظيم ينبغي تفعيله، من خلال أداء الصلاة، وإقامة وتطبيق ما تحويه من معانٍ سامية على حياتنا.

كذلك حينما يأمرنا ربّنا بتدبّر الآيات المجيدة، يجب أن نبادر إلى طاعته في هذا المجال، ليس لمجرّد كسب العلم بهذه الآية أو تلك، ومن ثم توقّع الحصول على المعرفة والإيمان؛ لأن الحصول على الإيمان يتأتى حين تطبيق الآية، إذ القرآن انعكاس لآيات الله في الخلق، وهو بيان لها، وبيان لطريقة الاستفادة منها.

لذلك؛ يقول القرآن هنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يعني في الفلك التي تجري في البحر ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ وليس آية واحدة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي أن من تتوفّر فيه هاتان الصفتان، هو الذي يعي ويستفيد من

هذه الآيات.

ولا ريب في أن هناك عقبات بين الإنسان وبين التكامل، بما فيه التكامل العلمي والتكامل الروحي. فمن يرى الشمس بعظمتها، وهي آية ربّانية كبرى في الطبيعة ثم لا يقول: سبحان الله، ولا يستشعر قدرة الله وجماله وحكمته؛ فإنه لا ريب محجوب مُعتقل بذنوبه وأفعاله السيّئة.

ولذلك؛ كان لابدّ من تطهير الإنسان نفسه وتنزيه قلبه والسمو بعقله، ليتسنّى له النظر في آيات الله والاعتبار بها، لكي تتحصّل له القابلية على الاستفادة من حوادث التاريخ.

» بصائر وأحكام

١- آيات الله نافعة لكل من استطال إلى مستوى تلقيها وفي الطليعة كل صبار شكور، والصبر ميراث وعي الزمان ماضيه ومستقبله، والشكر ميراث وعي النعم، ومعرفة أنها طارئة ويمكن أن تزول لو لم تُشكر.

٢- حكمة الآيات تنمية وعي البشر ومعرفتهم وتكامل أنفسهم بالشكر، وكتاب الله منهاج تفكر ووسيلة تدبر وعلينا أن ننطلق من آياته لدراسة العالم المحيط.

> «إنّ الإسلام يحث على المعرفة والتتبّع والاعتبار والالتزام، في حين أن الثقافات الأخرى تفتش عن مجرّد المعرفة لتحقيق المصالح المادّية، دون تأمين الوضع الاستراتيجي والمستقبلي.»

٣- وحين نتخذ من القرآن منهجاً فإننا سوف نحوّل آياته الكريمة إلى مفاتيح نعم الدنيا، ونتخذ من فهم الدنيا وسيلة لإصلاح أنفسنا.

» اللجوء إلى اللّه

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

***

رغم أن ومضات من اليقين تشرق على قلب كلّ إنسان، بين الحين والآخر، شاء أم أبى، إلَّا أن كثيرًا من الناس يمارسون الحياة وكأنهم لا يقين لهم، وكأنهم لم تمر عليهم لحظة واحدة من اليقين بالله.. فلماذا يا ترى؟.

صرخة الوجدان

حينما يحيط بالفرد خطر عظيم، فيُحدق به من كلّ صوب، يشعر بالضعف التام ويفتقر إلى وسائل الدفاع. وهناك يجد نفسه -لا إراديًّا- يلجأ إلى الله سبحانه دونما قناعات مسبقة ولا مقدّمات، ولا ينطلق في ذلك من أحاديث الدعاة أو من كتب قرأها للعلماء، وإنما ينطلق من وجدان عميق وفطرة راسخة، ثم تراه يطلق عهودًا مع ربه أنه سيُقدم هذا الشيء أو ذاك في سبيل ربه إن هو سبحانه

وتعالى أنجاه من الخطر المحدق به، مُعربًا عن أنه سيعود إلى الجادّة الحق، وأنه سيكون شاكرًا في مستقبل أيامه.

والله إذ ذاك لم يطالبه بذلك، ولكنّه يفيض عليه من رحمته الواسعة فيُنقذه من مأزقه دون أي مقابل.

ولكن هذا الإنسان سرعان ما يتملّص من الوعود التي قطعها على نفسه، حيث ينسى أو يتناسى إيمانه، ويبتعد عن يقينه، غافلًا عن أنه قد يقع في خطر أشد مما وقع فيه من قبل، وأنه سيحتاج إلى ربّه مرّة أخرى.

ومضات اليقين

وتعرّض الإنسان للأخطار وتوجهه إلى الله تعالى نوع من ومضات اليقين التي أشرنا إليها. وقد تأخذ هذه الومضات شكلًا آخر، مثلما يحدث لبعض المؤمنين في مناسبات دينية؛ مثل ليلة القدر، حيث تنصهر نفسه في برامج روحيّة، ويصبح قلبه مفعمًا بالإيمان، مغمورًا باستشعار التقوى، فيخطط لنفسه ليكون من الصالحين، ويرى أنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الصلاح المطلق والخلوص التام، ولكنّه مرة أخرى يعود إلى سابق عهده في اجتراح الذنوب بعد انتهاء ليلة القدر، فيتغيّر تغيّرًا عجيبًا.

لماذا ينقلب الإنسان على وجدانه؟!

ولنا أن نتساءل عن السبب وراء هذا الانقلاب والتغيّر، وكيف يتسنّى للإنسان أن يكون ثابتًا في مسيرته الإيمانية؟ وكيف له أن يستفيد من تلكم الومضات فيُحوِّلها إلى مصابيح دائمة تضيء قلبه؟.

لعلّنا نستفيد من الآيتين: الحادية والثلاثين، ثم الثانية والثلاثين من هذه السورة المباركة بأن هناك صفة لدى كل إنسان، إن وُجدت استفاد من ومضات اليقين هذه؛ وهذه الصفة هي صفة الشكر، وهكذا صفة الصبر. وتقابل صفة الشكر الكفران، ويقابل صفة الصبر الغدر، وقد عبّر عنه القرآن الحكيم بالختر، ولعله أغلظ من الغدر.

» حينما يحيط بالفرد خطر عظيم، فيُحدق به من كل صوب، يشعر بالضعف التام ويفتقر إلى وسائل الدفاع. وهناك يجد نفسه -لا إراديًا- يلجأ إلى الله سبحانه دونما قناعات مسبقة ولا مقدّمات.

ونعود ونتساءل مرّة أخرى ونقول: كيف يمكن للإنسان أن يكون صبورًا، ولا يكون ختّارًا؟!.

نفهم من الآيات -بصورة مجملة- أن هناك علاقة وثيقة، بل انسجامًا واندماجًا بين الإيمان وبين هاتين الصفتين؛ أعني صفة الشكر والصبر. كما أن هناك صلة قريبة بين الكفران والغدر من جهة، وبين جحود آيات الله سبحانه وتعالى من جهة أخرى.

أمّا الجواب الحقيقي على التساؤلات أعلاه، فنجدها عند كلٍّ من علماء الأخلاق والنفس والتربية، إذ يشيرون إلى أن الإنسان الواثق من نفسه، المحترم لها؛ والذي يحس بشخصيّته المتكاملة في الداخل، دون الذي لا يرى من ذاته إلَّا هيكلها الخارجي، بل يعيش بقلبه شخصيّة متميّزة.. فهو يكون وفيًّا بعهده، صبورًا على ما يتعرّض، شكورًا على ما ينال؛ لأنه يأبى على نفسه أن يكون ختّارًا غدّارًا.

وكمثال على ذلك ما رُوِيَ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عِيسَى قَالَ: «ضَاقَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام ضِيقَةٌ، فَأَتَى مَوْلًى لَهُ فَقَالَ لَهُ: **أَقْرِضْنِي عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ إِلَى مَيْسَرَةٍ.**

فَقَالَ: لَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي، وَلَكِنْ أُرِيدُ وَثِيقَةً.

قَالَ: فَشَقَّ لَهُ مِنْ رِدَائِهِ هُدْبَةً، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **هَذِهِ الْوَثِيقَةُ.**

قَالَ: فَكَانَ مَوْلَاهُ كَرِهَ ذَلِكَ فَغَضِبَ. وَقَالَ: **أَنَا أَوْلَى بِالْوَفَاءِ أَمْ حَاجِبُ بْنُ زُرَارَةَ؟**(١).

فَقَالَ: أَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ.

فَقَالَ عليه السلام: **فَكَيْفَ صَارَ حَاجِبٌ يَرْهَنُ قَوْساً وَإِنَّمَا هِيَ خَشَبَةٌ عَلَى مِائَةِ حَمَالَةٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَيَفِي وَأَنَا لَا أَفِي بِهُدْبَةِ رِدَائِي!.**

قَالَ: فَأَخَذَهَا الرَّجُلُ مِنْهُ وَأَعْطَاهُ الدَّرَاهِمَ، وَجَعَلَ الْهُدْبَةَ فِي حُقٍّ فَسَهَّلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْمَالَ فَحَمَلَهُ إِلَى الرَّجُلِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام لَهُ: **قَدْ أَحْضَرْتُ مَالَكَ فَهَاتِ وَثِيقَتِي.**

فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ ضَيَّعْتُهَا.

فَقَالَ عليه السلام: **إِذَنْ لَا تَأْخُذُ مَالَكَ مِنِّي لَيْسَ مِثْلِي مَنْ يَسْتَخِفُّ بِذِمَّتِهِ.**

قَالَ: فَأَخْرَجَ الرَّجُلُ الْحُقَّ فَإِذَا فِيهِ الْهُدْبَةُ فَأَعْطَاهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليهما السلام الدَّرَاهِمَ وَأَخَذَ الْهُدْبَةَ فَرَمَى بِهَا وَانْصَرَفَ»(٢).

---

(١) قال الفيروز آبادي في (القوس) من القاموس: «حاجب بن زرارة، أتى كسرى في جدب أصابهم بدعوة النبي صلى الله عليه وآله يستأذنه لقومه أن يصيروا في ناحية من بلاده حتى يحيوا. فقال: إنكم معاشر العرب غدر حرص، فإن أذنت أفسدتم البلاد وأغرتم على العباد. قال حاجب: إني ضامن للملك ألّا يفعلوا. قال: فمن لي بأن تفي؟ قال: أرهنك قوسي. فضحك من حوله، فقال كسرى: ما كان ليسلمها أبدًا فقبلها منه وأذن لهم. ثم أحيا الناس بدعوة النبي صلى الله عليه وآله، وقد مات حاجب فارتحل عطارد ابنه إلى كسرى يطلب قوس أبيه، فردها عليه وكساه حلة. فلما رجع أهداها للنبي صلى الله عليه وآله فلم يقبلها، فباعها من يهودي بأربعة آلاف درهم».

(٢) الفروع من الكافي، ج٥، ص٩٦.

النظرة الشمولية للحياة

وهكذا الإنسان ذو الشخصيّة المميّزة، ومن يتمتّع بثقة بالغة بنفسه، ولديه من الإيمان ما يجلّه، إنه يحترم عهده؛ وأول عهد يحترم، عهده مع الله تعالى، ذلك العهد الذي قطعه على نفسه حين تعرّضه للشدائد.

فهو يفي بعهده، لأنه يعرف حاجته دومًا لربّ العالمين، هذا أوّلًا.

ثم إنّ الملتزم بعهده يمتاز بنظرة شمولية للحياة في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك فهو يفكّر تفكيرًا يمتد من حاضره لمستقبله، ولا ينظر فقط إلى اللحظة التي يعيشها. وهذه صفة الإنسان الصبور؛ إنه يجعل المستقبل في حساباته، فلا يغدر، ولا ينقض الميثاق، وهو حينما يفعل ذلك، فإن صفة اليقين المتوفّرة لديه -ولو بنسبة ضئيلة- تستمر معه. وهذا الواقع يمنع الإنسان من الغدر والختر، ويُحرِّضه على الوفاء.

قصّة وعبرة

وبهذا المنحى، يُنقل أن ملكًا هاجم العدو دولته، فتعهّد مع ربه إذا تحقّق له النصر، زاد في عطاء جنده، قدرًا مقدورًا. ولكنّه حينما أراد الوفاء بنذره، وجد أن ما سيعطيه للجنود يشكّل عبئًا على ميزانيته، فاستشار وزراءه، فلم يهتدوا إلى رأي واحد، فاقترح أحدهم أن يُؤتى برجل من عامة الناس فيسأله فجاؤوا إليه بأعرابي، فطرحوا عليه المسألة بطريقة مبهمة.

فقال: أيها الملك؛ إذا كنت من نذرت له محط حاجتك إليه في المستقبل أيضًا، فعليك أن تفي بنذرك، وإلّا فأنت في غنىً عن الوفاء.

فقال له الملك: انصرف بارك الله فيك.

ثم إنه -الملك- سأل وزراءه عمّا يقولون، فقالوا: لا نعلم ما إذا كان هذا آخر اعتداء تتعرّض له الدولة أم لا.

فقال الملك: فمن المتوقّع أن يَجْمَعَ العدوّ قواه ويهاجمنا مرّة أخرى.

فقالوا: إذن نحن بحاجة لله سبحانه الذي نذرت له، وإلى هؤلاء الجنود الذين بذلوا قصارى جهودهم في الدفاع عن المملكة، ومن المناسب جدًّا أن تزيد في عطائهم؛ وفاءً بنذرك.

ففعل الملك برأيهم وزاد في عطاء الجند.

احترام الذات

بلى؛ إن الصبور هو الذي يجعل للمستقبل حيّزًا مهمًّا في تفكيره، فلا يعيش لحظته الراهنة؛ ولأنه يلاحظ المستقبل، تراه لا يغدر؛ فالغدر متصل بالجزع وبالنظرة الآنية إلى الحياة. وهذه الحقيقة تسري حتى فيما يرتبط بحاجات الناس وتصريف شؤونهم؛ إذ إن مَن يقترض مبلغًا معيّنًا إلى أجلٍ معيّن، ثم لا يفي لصاحبه مع قدرته عليه، فإنه في الواقع يقطع على نفسه سبيل المعروف عادة، ولا يفكر بأنه قد يحتاج إلى الدين مرة أخرى. وكذلك مرشّح الرئاسة مثلًا، إذ إن عليه أَلَّا يتوقّع انتخابه ثانيةً -وفق الأصول والقواعد الدستورية- إذا هو لم يفِ بوعده لمن انتخبوه في المرّة الأولى.

» حينما يحيط بالفرد خطر عظيم، فيُحدق به من كلّ صوب، يشعر بالضعف التام ويفتقر إلى وسائل الدفاع. وهناك يجد نفسه -لا إراديًا- يلجأ إلى الله سبحانه دونما قناعات مسبقة ولا مقدّمات.

ومثل هذا الذي لا يفي، لا يسيء لنفسه ولمستقبله فحسب،

وإنما يلحق الإساءة بما رفعه من الشعارات وبما نادى به من المبادئ، لأنها سوف تتلوّث بسوء عمله وغدره. ومثل هذا أيضًا لن يُشرِّف المنصب الذي يشغله بلا استحقاق، وإنما المنصب هو الذي سيشرفه، وحيث يزاح عن المنصب يبقى بلا شرف. وهذا هو الذي يسمّيه القرآن الكريم بالختّار، أي كثير الغدر.

» الإنسان ذو الشخصيّة المميّزة، ومن يتمتّع بثقة بالغة بنفسه، ولديه من الإيمان ما يجلّه، إنه يحترم عهده؛ وأول عهد يحترم، عهده مع الله، ذلك العهد الذي قطعه على نفسه حين تعرّضه للشدائد.

أقول: إذا أردنا أن نرى الحقائق بوضوح، وإذا أردنا أن نمتلك اليقين، أو نستفيد من ومضات اليقين التي يُسبغها علينا ربّنا في لحظات الشدّة على الأقل، فلابدّ لنا أن نتميّز بالصبر، وجوهره رؤية المستقبل ووضعه في الحسبان، وبالشكر، وجوهره التحسس بالنعمة وبعواملها وبمن أسداها. والصبور الشكور هو الجدير بالحصول على نور اليقين.

يقول ربّنا المتعال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ ﴾، والقرآن ذكر الموج تارة بصيغة المفرد، وبصيغة الجمع تارة أخرى، حيث أحاط بهم وغشاهم من كلّ مكان، أو كان كالسحب التي تضللهم، أو مثل الجبال التي تحيط بهم كما جاء في بعض الآيات.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ ﴾ وتوجّهوا إليه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ولم يدعوا ما كانوا يتخذونه شريكًا في حالاتهم الطبيعيّة، فلم يخلطوا بين الشركاء والله سبحانه وتعالى.

أمّا الدين، فهو بمعنى الحاكميّة التي تحكم الإنسان ويلتزم بها بصورة طوعيّة.

بلى؛ الإنسان حينذاك يعلن براءته من كلّ شيء، إلّا ميثاقه مع الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فنجّاهـم من كل مشـكلة، وخرجوا إلى البر بعيدًا عن الخطر، تراهم تفرقوا شيعًا.

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فلا ينسـى الميثاق الذي قطعه على نفسه. والاقتصاد هو الطريق الوسـط، فرغم أن إيمانه في البر لا يرتقي إلى ما بلغه من الإيمان في البحر، وحين تعرّضه للمشكلة والشدّة.. إلَّا أنه اقتصد واتخذ طريقًا وسطًا.

ومنهم الذي انقلب على عقبيه، فجحد بنعمة النجاة، وجحد بما تعهّد ووعد لله.. والله عزّ اسـمه يدين صاحب هذا الخيار، وهو الختّار الكفور، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

فالختّار يعني: شديد الغدر.

والكفور هو: المستمر بالكفر وكفران النعم.

فكلّـما دخـل البحـر، وكلّما تعرّض للشـدّة، توجّـه إلى الله.. وكلّـما تـرك البحر وتخلّص مـن الخطر، نسي الله مرّة بعـد مرّة.. فلا يشكر أي نعمة من نعم الله التي أسبغها عليه.

إذن؛ فهو شـديد الغدر بما عقد من صفقـة مع ربّه. ومثل هذه الآية، آية وردت في سورة التوبة المباركة، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

فمن كان ذا شـخصية مهانة وغـير محترمة، كانت عهوده بلا حساب، وإذ هي هكذا، فإنه من غير المتوقّع له أن يفي بها. والبخل

(١) سورة التوبة، آية: ٧٥ – ٧٦.

ونكران فضل الله ترجمة للذات الضعيفة.

ومن الناس من ينخرط في سلك الإيمان والمؤمنين، ولكنّه إذا أصبح غنيًّا ونال شيئًا من فضل الله، عجز عن استيعاب هذا التحوّل، واستولى المال عليه، وانخرط في سلك المترفين. ولكن ربّما يُنذر هذا النموذج السلبي من عاقبة سيّئة للغاية، إذ قال عزّ وجلّ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1].

» إن الصبور هو الذي يجعل للمستقبل حيّزًا مهمًّا في تفكيره، فلا يعيش لحظته الراهنة؛ ولأنه يلاحظ المستقبل، تراه لا يغدر؛ فالغدر متصل بالجزع وبالنظرة الآنية إلى الحياة.

فليس من السهل أن يتعهّد المرء عند الله بشيء ثم يهجر عهده ويخلفه، لأنه حكم على نفسه بنفسه بالإصابة بمرض النفاق العضال.

أمّا الجانب الذي تحدّثت عنه آية سورة لقمان، وهو الجحود بآيات الله سبحانه وتعالى، فهو يتضمّن عدم التنبّه إلى معانيها والاكتفاء بالاحتكاك بألفاظها وصورها فحسب. فمن يذهب إلى البحر -مثلًا- ويتعرّض للشدائد، ثم ينقذه الله تعالى من هذه الشدائد، ثم لا يفي بما عاهد الله تعالى أثناء ذلك، يكون قد تجاهل هذه الآية الربّانية التي أتمّ الله بها حجّته عليه. وهو إذ ذاك لا يستبعد أن يكون مصداقًا لقوله عزّ وجلّ في تكذيب آيات الله والجحود بها: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[2]، فهو يتحوّل إلى حيوان ممسوخ، إذ يرفع عقيرته بما لا يؤمن به عقله وقلبه، وبما لا تفعله جوارحه. ألم تر إلى الحجّاج،

(١) سورة التوبة، آية: ٧٧.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

ذلك الجزّار المعروف كيف كان يتشدق بخطب حول التقوى؟ وإنما كان يفعل ذلك، ليغطّي كذبه ونفاقه وخواءه الإيماني بالكلمات المجرّدة.

النفاق ميراث الغدر

ثم إنّ الجحود قد لا يكون جحودًا اسميًّا، بقدر ما يكون جحودًا بالمعنى. وهذه هي حقيقة النفاق الذي يرثه من غدر وختر بعهده وميثاقه مع الله عزّ وجلّ.

ومن المؤكّد أن من يتعرّض لشدّة من الشدائد -وهذا أمر طبيعي ومتوقّع للإنسان خلال حياته- ثم لا يفي بعهده مع الله بعد خلاصه منها، فإن مشكلته بعد هذه الآية سيكون أخطر من الخطر الذي كانت تمثّله له تلك الشدّة؛ لأنه في البدء كان له -جدلًا- أن يبرّر كفره وجحوده بجهله، ولكنّه إذا أصبحت الأمور واضحة أمامه بشكل تام لن يبقى لديه حجّة لجحوده فيستحق العذاب ويكون مثله مثل ثمود حينما أراهم الله تعالى آية مبصرة، وهي الناقة التي خرجت من الجبل، ثم كفروا، فعمّهم العذاب؛ لأن الناقة كانت آية مبصرة واضحة.

» من الناس من ينخرط في سلك الإيمان والمؤمنين، ولكنّه إذا أصبح غنيًا ونال شيئًا من فضل الله، عجز عن استيعاب هذا التحوّل، واستولى المال عليه، وانخرط في سلك المترفين.

أقول أخيرًا: إنّ ابن آدم محكوم بالعيش في هذه الدنيا ضمن ظروف متغيّرة، فلا يعرف ماذا يحدث له في غده. وهو لإحراز نجاحه في الحياة بأمسّ الحاجة إلى عامل إنقاذ مهم للغاية؛ ونقصد به التقوى والتزوّد بها بأكبر قدر ممكن، لأن التقوى هي العامل الذي للإنسان أن يتسلّح به لمواجهة التغيّرات الطارئة في حياته، وما أكثرها.

» بصائر وأحكام

١- ومضات اليقين التي يُسبغها الرب على عباده عند الإحساس بالخطر أو في لحظات التجلي هي من حججه البالغة علينا.

٢- الصبر والشكر صفتان نابعتان من بصيرة نافذة، والكفر والغدر صفتان يجمعها قصر النظر وعدم وعي المستقبل، وهو يؤدي -أيضًا- ضياع ومضات اليقين.

» التقوى تنتصر على الضلال

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَا أَبَا ذَرٍّ؛ الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنِ اتَّبَعَ نَفْسَهُ وَهَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِي**»(١).

تفصيل القول

حينما دخلنا الدنيا؛ دخلناها لنتحدى فيها أمواج الفتن، ولولا هذا التحدّي كنا نتحول إلى ذرّة في متاهات العذاب. أمّا القرآن الكريم، فهو سلاح تحدينا، لأنه يذكّرنا بالفتن ويرشدنا إلى سبل مواجهتها.

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٠.

عوامل الضلال

والآية أعلاه تذكّرنا بثلاثة عوامل أساسيّة للضلالة، ينبغي تحدّيها ببصيرتين اثنتين:

العامل الأول: الانسياب العاطفي مع الأجواء المحيطة، لأن ابن آدم لا يولد في فراغ، بل ضمن أسرة، والأسرة تتصل به وتتواصل معه من جميع الجهات. وهو -لضعفه- يحتاج لهذه الأسرة، ويتأثر بثقافتها وتقاليدها. ومن خلال الأسرة يتصل الإنسان بالمجتمع، ويتفاعل معه.

والمجتمع الكبير كما الأسرة الصغيرة، يضغط على الإنسان باتجاه أفكاره وبرامجه. فإذا كانت الأسرة فاضلةً، والمجتمع مجتمعًا سليمًا، فإن الإنسان يجد مساحات طيبة للنمو السليم في حضنيهما. أمّا المشكلة الكبرى التي تُثقل كاهل البشر، حينما تكون الأسرة منحرفةً والمجتمع مريضًا، هنالك ينبغي أن يتحدّى الضغوط.

وقد سبق وأن بيَّن القرآن الحكيم في هذه السورة المباركة ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الإنسان بوالديه، وأن من الضروري أن يصاحبهما في الدنيا معروفًا، وأن تكون علاقة واعية رشيدة، فلا يخضع لضغوطهما إن جاهداه على أن يشرك بالله ما ليس له به علم.

ولعلّ الإشارة قد تمّت هنا، ولكن من زاوية أخرى إلى أن الإنسان إذا اتَّبع والديه وأطاعهما طاعة عمياء، فعليه أن يتأكّد بأنهما لن يُغنيا عنه من الله شيئًا في الآخرة، كما أنه لن يُغني عنهما شيئًا، إذ لا أنساب يومذاك بينهم، حيث يُحشر كل إنسان بمفرده و يُحاسب

بمفرده، وإنما يُحشر مع الإمام الذي ينتمي إليه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

إنّ تحدّي الإنسان لضغوط مجتمعه، ابتداءً من تحدّيه لضغوط الأسرة، هو السبيل الوحيد لخلاصه من المُضلّات التي تنساب إليه. ولعلّ باستطاعتنا التأكيد على أن أكثر من نصف انحرافات البشر تعود إلى هذه المشكلة. وهذه الحقيقة دفعت بعضًا من علماء الاجتماع إلى القناعة بأن للمجتمع روحًا وأنظمةً ضاغطةً عليه.

العامل الثاني: يتجسّد في زخارف الدنيا، لأن الإنسان هو بالتالي ابن هذه الأرض وتحيط به شهوات الحياة، وهي ضغوط شديدة عليه، وقد قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1]، وفي هذا التزيين ضغط كبير عليه؛ وشاء الإنسان أم أبى، فإن الشهوات تجذبه والزخارف تستهويه.

ولكن على الإنسان أن يعرف أن ما يضلّه من الدنيا ليس الحاجات الضروريّة الضاغطة بطبعها، وإنما المزيد من الطمع الذي يميّزه عن غيره من المخلوقات، إذ يتطلع البشر أن يكون هو الأعلى، ويسعى من أجل أن يتميّز عن الآخرين بالمراتب الأكثر علوًّا. وما هذا التكاثر في الأموال والأولاد، إلَّا مصداق من مصاديق هذه الصفة عند ابن آدم. وإن أكثر الناس الذين يتبعون الشيطان ويخوضون الطرق الملتوية، ليس من أجل حاجاتهم الضرورية، وإنما لكي يتفوّقوا على غيرهم ويصبحوا أفضل من غيرهم، بما

(١) سورة آل عمران، آيه: ١٤.

يمتلكون من زخارف الدنيا.

العامل الثالث: الثقافات المنحرفة التي يبثها المغرورون والطغاة في الأرض.

كيف نتحدى عوامل الضلال؟

» المجتمع الكبير كما الأسرة الصغيرة، يضغط على الإنسان باتجاه أفكاره وبرامجه. فإذا كانت الأسرة فاضلةً، والمجتمع مجتمعًا سليمًا، فإن الإنسان يجد مساحات طيبة للنمو السليم في حضنيهما.

ولكن كيف لهذا الإنسان الضعيف أن يتحدّى هذه المضلّات الكبيرة والثقيلة؟!.

الجواب: يكمن في أن هذا الإنسان الذي قد يبدو لنفسه أو للآخرين ضعيفًا، ليس بذلك المخلوق البسيط، وإنما يختلف عن سائر الأحياء، بما يمتاز به من قوة الإرادة وروح الكرامة، وبالإرادة حمّله الله مسؤولية حفظ الأمانة التي أشفق من تحمّلها كلّ شيء.

وباعتبار أن ابن آدم قد أكرمه الله تعالى، وحمله في البر والبحر، وباعتبار أن الله عزّ وجلّ قد سخّر للإنسان ما في السماوات والأرض، كما سبق وأن أوضحت ذلك الآية العشرون من هذه السورة المباركة، فقد كُلّف بهذه المهمة الصعبة والمميزة (حمل الأمانة)، وقد أضحى لا خيار له في ذلك؛ أي لا خيار له في أنه: إمّا أن ينهار أمام ضغوط الدنيا، فيُلقى به في نار جهنم والعياذ بالله. وإمّا أن يتحدّاها، فيكون مصيره إلى الجنّة ورضوان الله وكرامته في الدار الآخرة، فضلًا عن حظوته بحياة طيِّبة في دار الدنيا.

وللإنسان أن يتحدّى الضغوط مع ما فيه من الضعف الظاهري، وذلك عبر قوّة الإرادة التي أودعها الله عزّ وجلّ فيه، إذ لم يخلقه الله خاويًا، ثم يأمره بتحدي كل تلك الضغوط. وفي التاريخ

أمثلة كثيرة جدًّا على نجاح الإنسان في تفعيل قوّة التحدّي التي لديه.

فالسحرة الذين استدعاهم فرعون لمواجهة النبي موسى عليه السلام قد تحدّوا فرعون بعد أن انقلبوا عليه، وبعد أن كانوا وسيلة من وسائل ظلمه وجبروته. ورغم أنه صلبهم وقتلهم، إلَّا أن مقتلهم واستشهادهم بتلك الطريقة المفجعة كان دليلًا واضحًا وقاطعًا على قدرتهم على التحدي.

أمّا زوجة فرعون، آسية بنت مزاحم، فقد كانت محدّدة في قصره، وكان من الواجب -في كلّ المقاييس الدنيويّة- أن تخضع لزوجها وتطيعه وتخافه، خصوصًا وأن فرعون كان جبّارًا في الأرض و إرهابيًّا بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنّها رضي الله عنها تحدّته حتى دفعت حياتها ثمنًا لذلك التحدّي.

وهكذا وهب الله للإنسان قدرة التحدّي، ولكن على الإنسان أن يبحث عن آلية التحدّي، لكي يُفعّل هذه القدرة، لأنه إن تأكّد له قدرته على التحدّي، ثم لم يحدّد آلية هذا التحدّي، فسيبقى يدور في حلقة مفرغة، والآليات هي:

» إنّ تحدّي الإنسان لضغوط مجتمعه، ابتداءً من تحدّيه لضغوط الأسرة، هو السبيل الوحيد لخلاصه من المُضلّات التي تنساب إليه.

١ - السبيل الرسالي:

ومثال ذلك، أن آلية التحدّي للأسرة، هي أن يبحث الإنسان عن بديل لتجمع الأسرة، كما ذكّرنا ربّنا بذلك في سورة لقمان المباركة، في آية كريمة سبقت، حيث قال: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ﴾.

بمعنى أن الفرد حينما ينفصل -روحيًّا وثقافيًّا وسلوكيًّا- عن الأسرة المريضة أو المجتمع المنحرف، عليه أن يفتش عن بديل

سليم، ولو كان محدودًا. خصوصًا إذا كانت درجة التحدّي درجة كبيرة، كالصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي تحدّى أباه المشرك فانضم إلى جماعة المسلمين ثم هاجر إلى المدينة.

وتبدو القضيّة واضحة إذا ما أمعنّا النظر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ إذا ما أمراه بأن يشرك بالله ما ليس له به علم؛ فعدم الإطاعة من جهة، ومصاحبتهما بالمعروف من جهة ثانية، بحاجة إلى إرادة قوية وحكمة بالغة.

» **على الإنسان أن يتحدّى الضغوط مع ما فيه من الضعف الظاهري، وذلك عبر قوّة الإرادة التي أودعها الله فيه، إذ لم يخلقه الله خاويًا، ثم يأمره بتحدي كل تلك الضغوط.**

٢- رضوان الله ذلك الميزان:

ثم إنّ على الفرد أن يتصوّر يوم القيامة ويضع مصيره فيه نُصب عينيه، وكيف أن كل من يريد إضلاله لن يغني عنه شيئًا، وأن كل إنسان قد أُلزم طائره في عنقه. أي أن المقياس في علاقة الإنسان بغيره، مهما كان هذا الغير، هو رضوان الله وسخطه. وهذا المقياس لو تم تفعيله في حياته، حظي المؤمن بما نُطلق عليه بالمسؤولية الإيمانية الأولى. ولن يتخلّص الإنسان من مسؤولية مواقفه وأفعاله وعلاقاته، مهما شاركه فيها غيره من الناس.

وأولئك المجرمون الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء بقوا مسؤولين عن جريمتهم الشنعاء، مهما شاركهم شريح القاضي بفتواه، ويزيد بأوامره، وعمر بن سعد بقيادته الميدانية، ولم ولن يتخلّصوا من جريرتهم تلك مهما جاؤوا بالأعذار.

٣- تقويم المرحلة والموقف:

أن يقوّم الشخص مرحلته وموقفه بوسيلة التوجّه إلى الله

تعالى، فيخيّر نفسه دائمًا بين الله وبين والديه -مثلًا-، ويساءل نفسه هل يخسر ربّه أم يخسر والديه، فيجعل كل تفكيره وتركيزه في هذه النقطة. وحتى يصل إلى القناعة بأن خسرانه والديه أو مجتمعه لا يشكّل شيئًا يذكر مقابل خسرانه لرضوان الله تعالى، حيث لا يمكن أن يختار الإنسان على الله شيئًا.

ولعلّ هذه الناحية، وهذا المغزى، هو الذي نجده في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: اعلموا أن المشكلة -ضغط الدنيا- ليست بالأمر الهيّن، إذ الله تعالى طرف في الموضوع، وعلى الإنسان أن يحسب له الحساب الأهم، فيتّقيه ويخشاه؛ فهو مليك الدنيا والآخرة، وهو مليك السماوات والأرض. أي أن على الإنسان أن يتخذ من التقوى انطلاقة في التعامل مع الأسرة والمجتمع والحياة عمومًا.

﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ أي: أن الخشية ينبغي أن تصل إلى مرحلة الآخرة دائمًا، وأن يكون التوجّه إلى الله عاملًا أساسيًّا لدى تحدّي الفتن والضغوط، نظرًا إلى أن في التوجّه إلى الله تعالى استمدادًا للقوّة وهزيمة للضغوط.

ولنا في سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام خير قدوة، وهو الذي كانت من أصعب لحظاته في يوم عاشوراء، اللحظة التي ذُبح فيها طفله الرضيع في حضنه، ولكنّه نطق بكلمة اختزلت كل معاني تضحياته، إذ قال عليه السلام: «**هَوَّنَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ الله**»[1].

(١) بحارالأنوار، ج٤٥، ص٤٦.

فـإذا تذكّر الإنسـان ربّه في لحظـة المواجهة، وتذكّـر القيامة، وتصوّر أنه بين أمرين: بين أن يختار النار، أو يختار صعوبات مؤقتة في الدنيـا عـلى أن تكون له الجنّة في الدار الآخـرة. فبالتأكيد أن هذا الإنسـان سـتهون عليـه المصائب ويتحدى المشـاكل وسـيقدر على حلّها وتجاوزها بكل قوّة وهيمنة.

ثم المضل الثاني في هذا السياق هو والذي سبق بيانه يتمثل في زخارف الدنيا، إذ قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

فلا يمكن التهرّب منه، أو الشك فيه، أو الاستخفاف به.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: علينـا ألّا ننخـدع بزخـارف الدنيـا، رغـم أنها تُحيط بنـا، وذلك عبر تذكّـر الله وتذكّر الآخرة. فلا نبيع الجنان بدراهم معدودة.

٤- الاقتصاد في المعيشة:

ونسـتطيع مقاومة غـرور الدنيا عبر النظـر في عاقبة الأثرياء والأغنيـاء الذين تركوا الدين من أجل الدنيا، فلم يفلحوا في الدنيا وقـد خسروا الآخـرة. ولنا في قـارون عـبرة، إذ خرج بزينتـه أمام النـاس، فنصحـه بعض مـن أصحابه الذيـن كانـوا يخالفونه الرأي فقالـوا لـه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

فهم قد دعوه لاتخاذ سيرة التوازن وطريقة الاقتصاد، إلّا أنه رفض دعوتهم رفضًا قاطعًا، وأصرّ على التظاهر بزينته والاستكبار

(١) سور القصص، آية: ٧٧.

على الناس، ليوحي للناظرين بأنه قد بلغ أسـمى درجات السعادة، لإشـباع نفسـه المريضـة، وللتغطيـة عـلى حقارتـه الذاتيـة ومهانته الباطنيـة التـي كان يعرفهـا. فخسـف الله بـه وبممتلكاته الأرض، وأصبـح أحدوثة ثم عـبرة، لمن أراد الاعتبار. هذا قـارون، وأمثاله كثيرون، ويكاد الجميع يمتلكون صفة من صفات قارون.

٥- الطرق الآمنة لتحقيق النجاح:

أن يفكّـر الإنسـان في الطريق الحـلال الآمن، نظـرًا لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع أمام كل إنسان طرقًا سليمة للحصول على الفوائـد نفسـها. إذ من الممكـن أن يصبح المرء غنيًّا، أو سـعيدًا، أو سلطانًا، ولكن من المفترض أن يكون ذلك بالطريق الصحيح. ولعلّ ما ورد في سورة العنكبوت يشير إلى هذه الحقيقة، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

فهناك سـبل آمنة يسـتطيع المـرء أن يسـلكها لتحقيق أهدافه دون التعـرّض لمشـاكل تذكر، وذلك عبر التـزوّد بشيء من الحكمة والصـبر والتعـب، وعـدم الإصرار عـلى تحقيـق الربح العاجـل. علـمًا أن طـرق الحـلال أيسر بكثـير من طرق الحـرام، إضافـة إلى أن المـال الحـلال أهنأ للإنسـان من المال الحرام، لأن هذا الأخير يتحوّل إلى نحس وشـؤم، في حـين أن الحلال يعقبه هناء وحياة طيبة وحب الناس والأولاد والسعادة الدنيوية والأخرويّة.

> « إن المقياس في علاقة الإنسـان بغـيره، هو رضوان الله وسخطه. وهـذا المقيـاس لو تم تفعيلـه في حياتـه، حظـي المؤمـن بمـا نُطلق عليه بالمسؤولية الإيمانية الأولى.

وإن مـن طبيعة الحلال والحـرام أن يتداخلا في حياة الإنسـان. وابن آدم معرّض في كل لحظة من لحظات يومه إلى أن يسـمو

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

عبر الحلال، أو يسقط عبر الحرام. ونحن ينبغي أن نعرف أن تحقيق الحياة الآمنة والسعيدة أمر ممكن في الدنيا، ولكن الغرور والانحراف عن الطريق السليم هو الذي يُضل الإنسان ويُبعده عن الأمن والسعادة.

٦- في مواجهة الثقافة الباطلة:

» نستطيع مقاومة غرور الدنيا عبر النظر في عاقبة الأثرياء والأغنياء الذين تركوا الدين من أجل الدنيا، فلم يفلحوا في الدنيا وقد خسروا الآخرة. ولنا في قارون عبرة.

أمّا المضل الآخر الذي يذكّرنا ربّنا به في هذه الآيات الكريمة، فيتمثل في الثقافات الباطلة، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

والثقافات الباطلة قد تكون أفكارًا تسللت لذهن الإنسان دون تحقيق فيها أو تدقيق وتأكّد منها. كأنْ يكون قد شاهد فيما مضى أفلامًا، وليست بالضرورة أن تكون أفلامًا ماجنة، ولكن كانت فكرتها فكرة خاطئة تحث على الكسل أو الجريمة أو الأنانية. وليكن في الحسبان أن مَنْ يُخرج الفيلم أو يؤلّفه أو ينتجه يسعى جاهدًا ليجعله مثيرًا، ليضمن مشاهدة الناس له وتأثرهم به. وكذلك الروايات والقصص التي يقرؤها الإنسان، وفيها الكثير من السموم الفكريّة.

أمّا الثقافة الباطلة التي تنشرها الفضائيات، ومنها فضائيات بعض الحكومات العربيّة أو الحكومات التي تدَّعي الدين، فَحَدِّثْ ولا حرج.

والله سبحانه وتعالى أمر الإنسان -المؤمن خصوصًا- أن يُحصن نفسه من الانسياب مع ثقافات الباطل التي عادةً ما تتخذ لنفسها منظرًا جذّاباً وكلماتٍ معسولةً؛ لأن من شأنها أن تُنسي الإنسان ذكر ربّه وتُبعده عن هدفه المقدّس الذي خُلِقَ في هذه الحياة من أجله؛ ولذلك، كان من اللّازم أن يُبعد المرء نفسه عن ثقافة الغرور والخداع

والتخدير والتبرير، ليجد نفسه في محيط الأمن والسلامة والسعادة.

وببالغ الأسى والأسف، نجد الكثير من رجالنا ونسائنا قد تأثروا بالأفكار التي بثتها الأحزاب السياسيّة الهدّامة، هذه الأحزاب التي كانت تتحدّث عن الحرّية والوحدة والتقدّم والرفاه، وأمور جيّدة أخرى، فانخدع الناس بها، وقد تبيّن لهم فيما بعد، أن جوهر تلك الأحزاب لم يكن سوى الإرهاب والقمع، ونتائج حكمهم لم تكن سوى الفقر والتخلف والحروب والمآسي.

أمّا الأحزاب؛ فهذه هي حقيقتها.. وأمّا الذين انخدعوا بها، فلأنهم تبعوها بلا تفكير، وبلا تحقيق عن مسؤولي هذه الأحزاب. فمثلًا نجد معظم -إن لم يكن جميع الذين اتبعوا حزب البعث في العراق- لم يُكلّفوا أنفسهم عناء التحقيق والتساؤل عن شخصيّة ميشيل عفلق الحقيقيّة؛ كما هو الأمر الآن في أتباع عصابات القاعدة، هؤلاء الذين ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح. ولفرط تعصّبهم الأعمى وانتمائهم الجاهل، تراهم يمارسون أقذر أنواع القتل بدم بارد، بعد أن مُسخوا عن حالتهم الإنسانية وصاروا يقتلون لمجرّد الرغبة في القتل، وهناك من القوى من يستغل هذه الرغبة لدى هؤلاء الشراذم لتحقيق مآربه التدميرية والمعادية لشعوبنا.

» ينبغي أن نعرف أن تحقيق الحياة الآمنة والسعيدة أمر ممكن في الدنيا، ولكن الغرور والانحراف عن الطريق السليم هو الذي يُضل الإنسان ويُبعده عن الأمن والسعادة.

ولذلك يقول ربّنا المتعال في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

(١) سورة الزمر، آية: ١٧-١٨.

فهذا الإنسان المبشّر بالخير والفوز والسعادة، قد نال كل هذه البشرى لأنه أولًا اجتنب الطاغوت ولم يتبع قائدًا أو حزبًا اتِّباع الأعمى. وثانيًا لأنه قوّم ما سمع، ونقده، ثم اتبع الأحسن؛ أي أنه اختار الأحسن بإرادته وحكمته. ومن الطبيعي أن يكون الفوز والفلاح له ولأمثاله دون الذين جعلوا أنفسهم عُرضةً لكل عاصفة، بل لعلّ من الناس من تزيحه ريح خفيفة لفرط ضعفه وهوانه.

بلى؛ إنّ الإنسان كائن مسؤول، وعليه أن ينتشل نفسه من نار غضب الله، من خلال التوجّه لربّ العالمين، وتذكّر نعمه عليه؛ ومن نعم الله أنه جعل في نفس كل إنسان القدرة على مقاومة إغراء الفساد وغواية الضلال؛ فهو يعلم أن من استمع إلى ناطق فقد عبده، فإن كان ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان. وهو يعلم أيضًا، أنه إذا قرأ كتابًا، أو شاهد فيلمًا، فعليه أن يقرأ ويشاهد بعين مفتوحة وقلب بصير، قادر على التقييم الصحيح ثم الاتباع الأحسن.

إنّ الإنسان مطالب بألّا يسترسل مع الغرور بالله؛ أي بأن ينأى بنفسه عن كل ما يُبعده عن الله وعن القيم الحقّ، وعن الجدّية في الحياة، وهذا لا يتعارض أبدًا مع الانتماء إلى مجموعة من الناس هدفها الحقيقي وسلوكها الرصين يصبّان في خدمة الأمّة؛ إذ المهم أن يكون الانتماء انتماءً واعيًا.

فنحن لا ندعو إلى عدم الانتماء السياسي أو الثقافي أو غير ذلك، ولكننا ندعو إلى الاختيار الواعي لدى الانتماء، وهذا الاختيار ينبغي أن يكون قائمًا على الأسس والقيم الإلهية والمعايير الدينية الصحيحة، ثم استمرار هذه الوعي دائمًا، فإذا بدأت المجموعة بالانحراف اتخذ الفرد سبيلًا آخر.

» بصائر وأحكام

١ - الدنيا محطة الابتلاء وفيها عوامل للضلالة لا بد من تحديها بالتقوى:

أولًا: الانسياب مع المحيط الأسري، وعلينا أن نعرف أن الأسرة لن تغني عنا شيئًا.

ثانيًا: زخارف الدنيا التي تغر وتضر، وعلينا مقاومة إغراءها.

ثالثًا: وساوس إبليس التي تهدينا إلى طريق جهنم وبئس المصير.

٢- وبديلًا عن الأسرة علينا أن ننتمي إلى تجمع من أناب ونجعل رضا الرب مقياسًا ونستحضر في وعينا بالآخرة وأهوالها عندما نريد أن نختار.

» تفاضل القيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

***

من الحديث

عَـنْ حَنَانِ بْنِ سَـدِيرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَـالَ: «**إِنَّ للهِ عِلْماً عَامّاً وَعِلْماً خَاصّاً: فَأَمَّا الخَاصُّ فَالَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَـلٌ. وَأَمَّا عِلْمُـهُ الْعَامُّ الَّذِي اطَّلَعَتْ عَلَيْـهِ المَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ فَقَدْ دَفَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَيْنَا.**

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **أَمَا تَقْرَأُ وَ**: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٦٣.

«﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «**هَذِهِ الخَمْسَةُ أَشْيَاءَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصف الأتراك: «**كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطَرَّقَةُ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الخَيْلَ الْعِتَاقَ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ المَجْرُوحُ عَلَى المَقْتُولِ، وَيَكُونَ المُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ المَأْسُورِ**.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ.

فَضَحِكَ عليه السلام وَقَالَ لِلرَّجُلِ -وَكَانَ كَلْبِيّاً-: **يَا أَخَا كَلْبٍ! لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ .. ﴾ الْآيَةَ.

فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ وَ دَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي»[2].

(١) بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٠١.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢٨.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَوْفِ بْنِ الْأَحْمَرِ قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام المَسِيرَ إِلَى النَّهْرَوَانِ أَتَاهُ مُنَجِّمٌ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَا تَسِرْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَسِرْ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَمْضِينَ مِنَ النَّهَارِ.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **وَلِمَ ذَاكَ؟**.

قَالَ: لِأَنَّكَ إِنْ سِرْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ أَصَابَكَ وَأَصَابَ أَصْحَابَكَ أَذًى وَضُرٌّ شَدِيدٌ، وَإِنْ سِرْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرْتُكَ ظَفِرْتَ وَظَهَرْتَ وَأَصَبْتَ كُلَّ مَا طَلَبْتَ.

فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **تَدْرِي مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الدَّابَّةِ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟**.

قَالَ: إِنْ حَسَبْتُ عَلِمْتُ.

قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **مَنْ صَدَّقَكَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾...»(1).

تفصيل القول

في البدء؛ هناك بصيرتان يمكن استقاؤهما من هذه الآية الشريفة.

البصيرة الأولى: أن قيم الناس تتفاوت؛ ليس في طبيعتها فحسب، وإنما في سُلَّم تفاضلها وفي التفاصيل. فما هي القيمة الأشد ضرورة في حياة الإنسان؟ وما هي القيم التي تتوالى بعد

(1) بحار الأنوار، ج٥٥، ص٢٢٣.

تلك القيمة على درجاتها من الاهتمام؟.

نجد بعض الناس كثيري الاهتمام ببطونهم، حتى لكأنهم يشعرون -أنه إذا شبعت بطونهم- أنهم قد نالوا سعادتهم المطلقة. وبعض آخر يهتمّون بما يسمّونه (ماء الوجه) أي الوجاهة؛ فلا يهتمّون بما يأكلون ويشربون بقدر اهتمامهم الشديد بحديث الناس عنهم، وحالهم كما يصف الشاعر:

إذا متُّ كان الناس صنفان: شامت
وآخر مثنٍ بالذي كنت أصنع

وترى الآخرين يصب جلّ اهتمامهم براحة أهلهم وببيوتهم، وهكذا يختلف الناس في التفاضل بين قيمهم. أما المؤمنون، وهم الذين يُفترض أن تقودهم القيم، فيا ترى ما هي القيمة الأرقى عندهم من بين القيم السليمة؟. هل هي قيمة العدالة؟ أم قيمة الحرّية؟ هل هي الأمن؟ أم هي الصحّة؟ هل هي تحقيق السعادة للذرّية والأبناء؟ أم تحقيق السعادة لأنفسهم هم؟.

» إن وعينا بعلم الله يجعل لنا معياريّة وسلوكيّة جيّدة، لأنّ الإنسان يعرف أنّ الله مهيمن على نواياه وأفعاله وسكناته، وحتى لمحات عينه، ووساوس نفسه؛ فإن ذلك يكون مدعاة له لضبط سلوكه ضبطًا دقيقًا.

ومهما يكن؛ فإن الآية التي تصدّرت البحث -كما يبدو لي- قد تحدّثت عن جانب من موضوع تفاضل القيم، ولذلك ينبغي تدبّرها من هذه الزاوية.

البصيرة الثانية: أن وعينا بعلم الله يجعل لنا معياريّة وسلوكيّة جيّدة، لأنّ الإنسان يعرف أنّ الله عزّ وجلّ مهيمن على نواياه وأفعاله وسكناته، وحتى لمحات عينه، ووساوس نفسه؛ فإن ذلك يكون مدعاة له لضبط سلوكه ضبطًا دقيقًا.

وإذا كانت سورة لقمان هي سورة الحكمة، وإذا كانت الحكمة: التطبيق المناسب للتخطيط السليم. وبتعبير آخر؛ عقلانية العمل، فإنّ نهاية هذه السورة المباركة تتناسب مع هذه الحكمة، باعتبار أن الإنسان لن يكون حكيمًا إلَّا إذا كانت كل أبعاد سلوكه منضبطة على المسالك السليمة.

بعد هاتين البصيرتين التمهيديتين، تجدر الإشارة إلى ما استوحيناه من هذه الآية الكريمة:

- قيمة ضمان المستقبل

إنّ أهم قيمة للإنسان هي الخاصّة بضمان مستقبله وآخرته، لأنّ ابن آدم؛ مهما عمّر في هذه الدنيا، فإنه لا ريب راحل عنها. ولذلك؛ فقد جُعلت نهاية الإنسان قضيةً مهمةً جدًّا، والقرآن الكريم قال بهذا الشأن: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[1].

وكان من الجدير بالإنسان أن يكون دائم التفكير بالنهاية، وبأن هذه النهاية ستكون بيد مَنْ. فإذا عرف أن مصيره سيكون بيد الله سبحانه وتعالى، وأن إليه الرُّجعى، باعتباره المالك ليوم الدين؛ فإن هذه المعرفة تجعله أكثر حبًّا لربّه من ناحية، وأشد خوفًا منه من ناحية ثانية، وبالتالي يكون أكثر انضباطًا في حياته.

وهذه هي القيمة المثلى التي ينبغي أن تُتَّخذ، وليست تلك الخاصّة بالطعام أو الشراب أو الوجاهة أوالذرية؛ ذلك لأن النظر إلى العاقبة يجب أن يكون منهجًا متبعًا في حياة كل إنسان، لأن هذه الحياة تتلوّن بلون عاقبتها، تمامًا كمن يعرف أنه سيتزوّج امرأة جميلة وثريّة

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

جـدًّا ولكنهـا مصابة بوباء قاتـل، حيث لا يعرف طبيعة المأسـاة التي سـيتعرّض لها هذا الرجـل إن تزوّج فعلًا بهذه المـرأة. أو كمن يعرف بأنـه قادر على شراء قصر منيـف رائع، بأرخص الأثمان، ولكنّه عرف أيضًا أنه سيتلاشى هذا القصر بعد وقت قصير بفعل زلزال مدمّر.

ومـا الدنيا -برمّتها- إلا مرحلة بسـيطة من عمر الإنسـان، تبعًـا لمراحـل خلقته، إذ هـو عاش في عالم الأظلّة، ثـم في عالم الذر، ثم في عالم الأرحام، وهو يعيش الآن في عالم الأنسـاب، وسـيغادره إلى عالم البرزخ، وبعده عالم يوم القيامة، وبعده عالم الخلود والنهاية المطلقة. فهو في الحقيقة عليه أن يخوض تجربة العوالم السـبعة؛ ثلاثة منها مضت وثلاثة منها قادمة، ويعيش ضمن مرحلة بسيطة دوامها سبعون عامًا تقريبًا، وفي هذه المرحلة له أن يُحدّد مصيره من جديد، وفيها يختار نهايته.. فأي مصير يختار يا ترى؟!.

- قيمة الرزق:

وبعد أن يُؤمِّن الإنسان العاقبة، تأتي قيمة الرزق، إذ ابن آدم لابـدّ له مـن رزق حتى وهو في الجنّـة، وحتى وهـو في النار، ولأن الـرزق مـن طبيعـة كل شيء مخلوق، بينـما الرب سـبحانه غني من الرزق. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾(١).

فالـرزق -بدوره- بيد الله الخالق، وهو الـذي ينزّل الغيث، ولا عمارة دون غيث، ولا حضارة دون ماء.

وهـذه القيمة قيمة مشروعة، شريطة ألّا تتعارض مع القيمة الأولى، وهي قيمة العاقبة.

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٨.

- **قيمة الذرّية:**

والقيمـة الثالثـة؛ هـي قيمـة الذرّية، نظـرًا لأن الإنسـان إذا حصـل على أمن المعاد وأمـن المعاش، انتقل به التفكـير إلى الذرّية. ولا ننسى أن الله سبحانه وتعالى يرجع إليه أمر الذرّية، وهو المهيمن على مـا في الأرحام، وهو الذي يجعل الإنسـان عقيمًا أو ولودًا، وكذلك يقدر سبحانه نوع الذرّية وطبيعتها.

» علـى الإنسـان أن يكون دائـم التفكير بالنهاية، وبيد مَنْ سـتكون. فإذا عرف أن مصيره سيكون بيد الله، وأن إليه الرُّجعى، فإن هذه المعرفة تجعله أكثر حبًّا لربّه، وأشـد خوفًـا منه، وبالتـالي يكون أكثر انضباطًا في حياته.

- **قيمة الحركة:**

أمّا القيمـة الرابعة؛ فهي قيمة الحركة والنشـاط، نظرًا لأن ابن آدم يرغب في الحركة والانطلاق للحصول على مكاسـب إضافية فـوق الرزق الأولي. وهـذا أيضًا منـوط بأمـر الله عزّ وجـلّ، لأن القـوى التـي يتمتع بها الإنسان داخلة ضمن إطار حول الله وقوّته.

- **قيمة المصير:**

وآخـر شيء يعـتري البـشر مدفنـة، وفي أي أرض يمـوت فيدفن، إذ الإنسـان يجهل بادئ بدء أين سـيعيش بقيّـة حياته، نظرًا لكثـرة التغيّرات و الطوارئ فلا يدري أين يتوفاه الرب، لأن نهايته كما بدايتـه بيد ربه. فهو إذن متعلّق بماضيه وحاضره، ونهايته بإرادة الله المحيطة به.

إذن؛ فإننـا في دائـرة مغلقة؛ رزقنـا بيد الله، وذرّيتنـا يقدّرها الله، ومصيرنـا إلى الله بعد أن كانت حركتنا في إطار قدرته سـبحانه وتعـالى، علمًا أن المكان الذي نحيا فيه أو نموت مناط تقدير الرب. وربّنـا محيط بنا؛ علمًا وقدرةً وهيمنـةً وتدبيرًا، فكان من الأفضل لنا أن نتعرّف إلى ربّنا تباركت أسماؤه.

المنظومة الخماسيّة

وهذه المنظومة الخماسية من القيم تدلنا على ربنا، لأن البشر لا يعرف الربّ كما يعرف سائر الأشياء والأشخاص و المخلوقات؛ إنما الله تعالى يُعرف بآياته وبأسمائه. وهذه المنظومة منها.

قال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ وهي الساعة النهائية لحياة الكون. وهناك علم لهذه الساعة في مكان ما، نفترض أنها في اللوح المحفوظ، أو في العرش، أو في كتاب مبين، أو في أم الكتاب، أو عند النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام الذين هم أفضل وأشرف وأقدس مَنْ خَلَقَ الله على الإطلاق. وكل هذه الأشياء، وهؤلاء الأشخاص هم عند الله؛ بمعنى أن الله تعالى محيط بهم ومحيط بذلك العلم، لأن الله لا يوصف بالمكان والزمان.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ هو ينزّل، ولم يقل إن عنده علم الغيث. إذ إن الله تعالى بالإضافة إلى علمه بالغيث وقطراته وذرّاته، فإنه كذلك المدبّر لعملية إحياء الأرض بالغيث.

وكلمة ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ مفردة جميلة تدل على المطر، وتدل على العون. فهو إذن عامل نجاة للأرض والإنسان وسائر المخلوقات. علمًا أن القرآن لم يُعبّر بكلمة المطر إلَّا بمطر السوء ومطر الحجارة، بينما مطر الرحمة والفائدة، يسمّيه القرآن غيثًا، وهو من الغوث، لئلَّا يصاب الناس بالإحباط والكآبة واليأس أو يتعرّضوا للاستئصال؛ فإذا نزل عليهم الغيث استبشروا خيرًا؛ لأن فيه كل الخير لكل المخلوقات، إذ تخضر المراعي، ويتطهّر الهواء، والأوكسجين يزداد، والحيوانات تنتعش..

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ والمطلوب من ابن آدم أن يطلب الذرّية الصالحة والطيبة من ربّه.

ولعلّ من الواضح أن علم الله بما في الأرحام ليس من ناحية هوية الجنين الذكوريّة أو الأنوثيّة فحسب، خصوصًا وأن ذلك قد يكتشف بالأجهزة الحديثة كما كان يكتشف أو يحتمل من خلال حالات وتقلّبات المرأة الحامل.

بل الله تبارك وتعالى يعلم جوهر الجنين ما إذا سيكون سعيدًا أو شقيًّا، ويعلم أدق تفاصيل صفاته الجسديّة والروحيّة والنفسيّة، ومدى تأثّره الحقيقي بالعوامل الوراثية والغذائية والصحّية.

وظيفة الإنسان تجاه الحقائق الربّانية

ونحن -كبشر- أمام هذه الحقيقة الهائلة، يجب أن نؤدّي وظيفتين اثنتين:

الأولى: التوجّه إلى الله بالدعاء دومًا، لأن يجعل ذرّيتنا ذرّية طيّبة.

الثانية: أن ننضبط ضمن إطار التعاليم الإلهيّة، فيما يتعلّق بموقفنا من الجنين والطفل عمومًا، ليكون كائنًا سليمًا؛ لأن الله العالم بما في الأرحام قد وضع لنا وصفة متكاملة لكيفيّة التعامل مع الرحم ومع الجنين والطفل، ليكون معافىً جسديًّا وخلقيًّا.

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ أي: أنها لا تدري ماذا ستختار لها، بمعنى أن الإنسان جاهل، إلَّا أن يعلّمه الله عزّ وجلّ.

فلا جبر مطلقًا، ولا تفويض مطلقًا، وإنما هناك أمر بين أمرين.

ولكن المشكلة الكبرى أنه: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ هذا فضلًا عن أنها لا تدري متى تموت، مع أن الإنسان غالبًا ما يختار مكان سكناه، وربما يظن بأنه سيموت في الموقع الذي يموت فيه ويدفن فيه، لكن الأمر ليس كما يريد ويحب. فحتى هذا ليس بيده مئة بالمئة، إذ ثمة تقدير وقضاء ينزلان من السماء، وهما اللذان يتحكّمان في نهاية ابن آدم.

ولكن يا ترى من هو العالم بهذه الأمور الخمسة الأساسيّة؟.

يُجيب ربّنا بالقول الصريح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾. والعليم بمعنى المحيط علمًا، والخبير هو ذو العلم اللطيف الدقيق والنافذ إلى أصغر الأشياء والأمور، فضلاً عن عامّها وكبيرها.

جذوة القول

يمكن الإشارة إلى أن جذوة القول فيما يتعلّق بالتدبّر في سورة لقمان المباركة، إنّ محوريّة الحكمة وأساسها وأصلها هو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة علمه ولطفه.

» إننا بالتدبّر في سورة لقمان، نعلم أنّ محوريّة الحكمة وأساسها وأصلها هو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة علمه ولطفه.

وكلّما ازدادت هذه المعرفة ازداد الإنسان معرفة بالحياة المحيطة به، وازداد قدرة على التحكّم بهذه الحياة، لأن الله هو خالق هذه الحياة، وهو مَن سخّر لنا كلّ ما فيها؛ من سماوات وأرضين، كما صرّح سبحانه وتعالى في الآية العشرين من هذه السورة: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾(1).

ولنا أن نستثمر الكون المسخّر لنا عبر نشاطنا وعقلنا وهمّتنا، وبمزيد من الاقتراب إلى الله تعالى ونيل التوفيق منه.

(1) سورة لقمان، آية: ٢٠.

وينبغي ألَّا ننسى أن بعضًا من الناس يستفيدون من علمهم وحركتهم، مستغنين عن الدعاء وطلب التوفيق لاستثمار الحياة بصورة سليمة، مما يُحدث لديهم فجوات لا يمكنهم سدّها وردمها أبدًا إلَّا بالعودة إلى الله، ولا يُنال التوفيق الإلهي إلَّا بالتوجّه إلى الله، لأن ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

مما يدل على ضياع الإنسان المحتوم دون الاستمساك (شدّة التمسّك) بالعروة الوثقى.

وليست العروة الوثقى سوى إرادة الله ومشيئته ونهجه وتعاليمه لبني الإنسان في الحياة. ومعلوم أن هذه الإرادة وهذا المنهج متجسّد في القرآن الحكيم والنبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم وآله المعصومين عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا.

» بصائر وأحكام

١- وعي المؤمن باحاطة علم ربه به يعطيه معيارًا سليمًا للسلوك، ويجعله موافقًا لبصائر الوحي التي يؤمن بها، وهكذا ما تقر به الحكمة.

٢- الناس يختلفون في سُلَّم الأولويات في القيم، والمؤمن يرى حسن عاقبته أعظم قيمة، والرزق الطيب قيمته الثانية والثالثة قيمة الذرية الصالحة، وتطلعات تقدمه قيمة إضافية.

(١) سورة لقمان، آية: ٢٢.